الرحلة الأولى
الرحيل من دمشق إلى لبنان
١

كان من أعظم أماني النفس منذ بضع سنين، أن أرحل إلى أوربا رحلة علمية أقضي بها ردحًا من الدهر. للتوفر على دراسة حضارة الغرب في منبعثها، واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون. والفلاسفة المنزهون والعلماء العاملون والساسة المستعمرون والقادة الغارون، والتجار والصناع والزراع والماليون. وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها

وكانت الأحوال تعوق هذا القصد عن إتمامه، وتحول دون البغية المنشودة إلى أن قدر الله فأقام والي سورية السابق تلك القضية الملفقة على جريدة المقتبس واحتال انتقامًا لنفسه لإقفال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حكم المحكمة علي فقلت الآن حان وقت الرحلة في طلب العلم تتفرغ لتحقيق ما في الخاطر، ريثما يتبين الحق من الباطل، والحالي من العاطل، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

في الهزيع الأخير من ليل الثلاثين من رمضان ١٣٢٧هـ/١٩٠٨م ركبت من دمشق عربة مع صديقين عزيزين، قاصدين قرية القابون وفي ظاهرها وقفنا لحظات إلى أن وصلت فرسي ووصل صديق آخر راكبًا فرسه فركبنا وعاد ذانك الحبيبان إلى المدينة، وكان بدأ في تلك الساعة الأشراق في الأفق، والسكون لم يبرح مستحوذًا على الأرباض والرياض، ولم نكن نسمع من بعيد غير فعقعة أجراس الطحانين والمكارين، وصياح الديكة أو

عواء الكلاب، وما كدت أعلو متن مطيتي حتى ترامى إلى مسمعي صوت مؤذن القابون ينادي (هلموا إلى طاعة الله يرحمنا ويرحمكم الله) فقلت: كلمة حق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها لرحموا ولكنها جمل جملة تقال، ومعان شريفة لا يعمل بها وعادات ألفت بمعزل عما فيها من الأسرار النافعة في صلاح المعاش والمعاد.

التفت إلى الغوطة الدمشقية التفاتة أخيرة وهي أحب بقعة إلى قلبي في الأرض وقد كثر في أفقها شفق الفجر فذكرت طرفًا من أيامها البيض والسود. ذكرت الغوطة المحبوبة، وذكرت مطامع البشر وانحطاط أخلاقهم وعقولهم، فقاد ذلك إلى التفكير في شقاء الإنسان بالإنسان. وموت بعض لحياة كل، وافتقار مئات لا غناء أفراد، وشقاء ربوات لسعادة عشرات وتعب فريق لراحة أمة، فتمثل لي عجيب صنع المولى في خلقه، سبحانه لا يبقى العالم على حال هو المعز المذل، القابض الباسط، المغني المفقر، يقلب الأرض ومن عليها ولا يرثها إلا عباده الصالحون.

سارت بنا مطيتانا، فاجتزنا قرية برزة ومعربا، ولم تشرق الشمس إلا وقد قطعنا أراضي معربا وأشرفنا على اكتماتها فالتفتنا إلى ما وراءها وقد تجلت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج من خلف الجبال فألقينا عليها نظرة الوداع، وأغذذنا السير إلى بسيمة، ومنها إلى دير مقرن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد، وفي هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر.

ولم أشهد هذا الوادي وكنت مررت به راكبًا منذ ستة عشر عامًا شيئًا من التغير والارتقاء المحسوس، فالفلاح فيه لا يزال ينتظر موسم الفاكهة، إن سلمت أشجاره من لفحات الجليد، يرتاش تلك السنة ويعتاش، برمانه وجوزه، وتفاحه وكمثراه وتينه وعنبه، وإلا فيضطر في الأكثر إلى الاستدانة على الموسم المقبل وإن كان على شيء من القوة والجلد، يرحل إلى

بعض الكور المجاورة كقرى وادي العجم أو الغوطة يعمل فيها أشهر الصيف ليأتي في الشتاء بمؤونة تكفيه من الحنطة في كنه وكانونه.

وذلك لأن هذا الوادي منذ قرية دمر حتى سوق وادي بردي لا يغل من الحبوب ما يسد عوز سكانه بعض السنة، لغلبة اليبوسة على جروده وجباله، ولأن أكثر تربته صخرية، تحتاج للعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة، لتأتي أكلها. أما الأشجار وبعض الخضر والبقول التي ينتفع بها الفلاح هنا، فالفضل لنهر بردي في إروائها، يأخذ من مائه في مجاري يعليها بقدر حاجته أو أكثر.

ولقد أخذت أثمان الفواكه تأتي أصحابها بأرباح أكثر من السنين السابقة خصوصًا منذ تم استثمار السكك الحديدية في سورية كسكة بيروت- دمشق- حوران وسكة دمشق- حيفا- المدينة وسكة دمشق- حلب- بيره جك (البيرة) فأصبحت ثمارهم تصدر إلى الجهات القاصية. وكانوا يقدمون أكثرها في سنى الخير علفًا للدواب. أو يلقونها في الطريق؛ لأن العطلة في نقلها من محلها إلى دمشق أو بيروت مثلًا على الدواب لا تقوم بأجرة المكار ودابته.

نعم لم أر ارتقاء محسوسًا في حالة فلاح وادي بردي (البيلية) وأنى يتم له ارتقاء. وليس له طريق يسلك. غير ما حفرته أقدام المارة، وحوافر الدواب والماشية، وجرفته السيول والرياح منذ قرون. فالطرق المعبدة المطروقة لا أثر لها في هذا الوادي، ولعل ذلك ناشئ من كونه حديث عهد بالحكومة المنظمة. فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لأقضية بعيدة أما الآن بعد أن غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات، فقد بات يرجى أن تنظم لأهل قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية، ليتيسر للناس الغدو والرواح من

أيسر السبل. وما إخال ذلك متعذرًا على الحاكم إذا حث أهل كل قرية أن يقوموا بأنفسهم لتمهيد طريقهم أيام انقطاعهم عن العمل، كفصل الشتاء مثلًا لما يعرفون من الفوائد التي تنجم لهم عنها، أو يعلمونها بواسطة الموظفين الأمناء، وإن كانت هذه الطريقة لا تخلو من محظور لأنها تؤدي إلى السخرة، والسخرة ممنوعة بنص القانون الأساسي وتمهيد الطرق وبث الأمن من جملة الفروض العينية على كل حكومة.

وبعد فإنه لا وجود في وادي بردي لسائر المرافق التي يتمتع بها الفلاح في البلاد المتمدنة. وذلك لأن الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهمها من الفلاح إلا أن تأخذ منه لا أن تهيئ له سبيل الأخذ. فكان قصاراها تكثير الجباية، وتوفير الضرائب، وأخذ من تريده للخدمة العسكرية أما إمتاع الأهلين بالوسائل الصحية وتعليمهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ وفتح سبل المواصلات، ورفع علم الأمن، وتعليمهم الضروري من القراءة والكتابة، فكانت أمورًا لا تعرفها لا في وادي بردي فقط بل في جميع أودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها.

ومن أغرب ما رأينا في وادي بردي، أن بعض قراها تحفر القبور لموتاها أمام الدور، فترى حي الأحياء مع حي الأموات وما أدري هل يأتون ذلك بالقصد حرصًا على رفات موتاهم من أن تسطو عليها الوحوش الكاسرة في مدافنها إذا لحدوها بعيدة عن العمران ولو بضع خطوات، أو أنهم يؤثرون دفن الموتى أمام أعينهم ليذكروا كل شارقة وبارقة مصير الإنسان إلى دار البقاء ويزهدوا في دار الفناء، فلا يهتمون بأسباب الهناء والصفاء.

ومما عمت به البلوى في الفلاحين أنك ترى القاذورات أيضًا نعمى العيون ونخنق الأنفاس، فترى روث البهائم وغائط الآدميين. وسط الدور

وخلفها وقدامها وعن أيمانها وشمائلها. ولولا بقية من عادة النظافة والتطهر ورثها المسلمون بالتسلسل عن آبائهم وشيء من جودة الهواء في الجملة في القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الإقليم ومن حوله.

ركبت صبيحة العيد ورفيقي قاصدين سوق وادي بردي ولعلها سميت كذلك لسوق كانت تقام فيها فيما مضى للبيع والشراء على العادة في أسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلًا سوق الأحد وسوق الجمعة وسوق الخيل وسوق الحمير، ولهذه الأسواق أمثال في أوربا. وبالقرب من السوق تضيق فوهة الوادي وينقطع العمران ليخرج منه إلى منفسح وادي الزبداني. وجبال السوق لا تخلو من نواويس قديمة على نحو ما تجد منها في جبال الشام محفورة في الغالب في القمم والآكام. ومن السوق انتهى بنا نفس السير إلى قرية عيتا الفخار من أعمال البقاع العزيز، وهي القرية التي اشتهر منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه أكثر بيوتها في تنانير خاصة وتبيعه في المدن الداخلية من أعمال دمشق.

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ أطللنا على عيتا، ورأينا بيوت القرميد التي بنيت بالحجر النحيت على المثال الذي نشاهده في أكثر بيوت سورية وعلمنا أن سبب ما شاهدناه من جمال المساكن في عيتا، تلك الأموال التي جلبها بعض سكانها من هجرتهم إلى أميركا. وأحبوا حتى من لا تحدثهم أنفسهم بالسكنى ثانية في عيتا أن يظهروا غناها بإنشاء الدور المنظمة ليصح عليهم المثل العربي (أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها) (إن الغنى الطويل الذيل مياس) أو الأثر المشهور (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) وليس كالبيوت تتم عن يسار وتدل على سعة، وبعد عيتا مررنا بكامد اللوز فجب جنين فلالا فبعلول من وادي البقاع وفي هذه القرية بتنا عند رجل من أهلها أنزلنا عنده وأكرمنا ولم يعرفنا. ومع حرصه

على معرفتنا اكتفينا من التعريف بالتعريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

وقد سرت إلى هذه القرية وإلى جميع قرى البقاع عدوى الهجرة وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم، ومن حديث كثير من البقاعيين تبين أن أهل كل قرية في الغالب يؤثرون في بلاد المهجر إقليمًا خاصًا لهم ينزلونه أو مملكة يوجهون وجهتهم إليها فيقصد مثلًا أهل قرية كذا ولاية كذا من شمالي أميركا وأهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرين ينزلون كندا وغيرهم أوستراليا وفريق السنيغال وبعض الترنسفال. فكان عدوى الانتقال تسري إليهم بالعشرة، فلا يحب المواطن إلا أن يقلد مواطنه في مآتيه ومنازعه، بل في شقائه وسعادته. وقد أذكرنا هذا بحال العرب في الفتح وبعده فكان القيسيون ينزلون بلد كذا واليمانيون إقليم كذا ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الأندلس كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جند حمص ولذلك كان الجند يدعون كل بلد ينزلونه باسم بلدهم الأول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك في الولايات المتحدة.

وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة فمررنا بجرسها المخرب الممتد على نهر الليطاني وأنجدنا قاصدين جزين أول حدود لبنان إلى الجنوب، ومشغرة أقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة إلى الآن بدبغ الجلود للأحذية اشتهار مدينة زحلة أو أكثر، والمسافة بين مشغرة من أعمال ولاية سورية وجزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلو قمة عالية، ثم تنحدر في واد عميق.

ومع أن قضاء البقاع من أعمر أقضية ولاية سورية بزراعته لخصب تربته، وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقي،

ومتاخمته لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ما تنبته أرض البقاع من الحبوب والثمار. ومع كثرة الأعيان الذين يملكون فيه المزارع والأراضي الواسعة ومنهم من أنشأ فيه حقولًا أنموذجية حقيقية وصرفوا عليها الأموال الطائلة واستخدموا لها أحدث الطرق الزراعية كالأراضي التي عمرها نجيب بك سرسق في عميق ودير طحنيش وأقامها الآباء اليسوعيون في تعنايل- مع كل هذا العمران المستبحر، وما تأخذه النافعة من أموال الأهلين كل سنة باسم الطرق والمعابر لا ترى في القضاء طريقًا مسلوكًا اللهم إلا طريق الشام القديم الذي تركته شركة الديليجانس لما أنشى خط بيروت الحديدي، وقيل لنا إن الحكومة صح عزمها مؤخرًا على إنشاء طريق عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشغرة في غربه وإن هذا الطريق وصل أو كاد إلى قرية عيتنيت ولعله يكون جسمًا لا اسمًا كأكثر الطرق التي أنشأتها النافعة في الولايات فكانت لفظًا بلا معنى واسمًا بلا مسمى لم ينشأ عنها إلا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وخدمة الأوطان.

وصف لبنان الطبيعي
٢

كنت في لبنان أشبه بأبي زيد السروجي أو أبي الفتح الإسكندري أحتاج إلى راوية مثل الحارث بن همام أو عيسى بن هشام يروي كل منهما لمثل الحريري أو بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطررت إلى الظهور فيها لأنجو من مخالب عدو ممازق أو جاسوس مخادع وليتيسر لي درس حالة البلاد بدون حجاب.

فقد قيل: اكتم ذهابك ومذهبك وذهبك، ولكن هذه القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الأذكياء، فتجدهم يحرصون كل الحرص على استطلاع طلع كل مصطاف بينهم. أو سائح في جبالهم. والوقوف على مقصده. ومبلغ ثروته. والدين الذي يدين به. وربما كان سؤالهم عن الأخير قبل كل شيء لأن عامتهم متدينون جدًّا فهم يسرون إذا شعروا أنهم يتعارفون إلى رجل يشاكلهم في المعتقد، وأنى لمن قضي عليه شدة إخلاصه في خدمة وطنه ودولته أن يصرح لهم بهويته، وهو مشرد طريد. محكوم عليه بالجناية حكمًا قره قوشيًّا.

ودعني رفيقي غداة وصلنا إلى حزين وعاد إلى الفيحاء وبقيت وحدي لا رفيق لي إلا كتابي وفرسي. فانقلبت لساعتي من جزين قاصدًا دير القمر فاجتزت إليها بتاتر وعماطور والمختارة وغيرها، والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغاية تمشي فيه وسط أشجار الزيتون وهي غابات غبياء في الشوف كما أن أشجار الصنوبر كذلك في قضاء المتن. ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت إليه قبيل الغروب وقد بدت القصبة بأبنيتها الشاهقة كالعروس في حليها وعكست شمس الأصيل على زجاج

نوافذها وسطوحها فاختلطت الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة فكان من أجمل منظر نقع عليه عين إنسان وأهل الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرقة وحسن العشرة يتحببون إلى الغريب كيف كانت حاله، وفي هذه القصبة إلى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناه أحد أمراء لبنان ولا يزال الديريون يحرصون على سلامته فيتعهدونه بالعمارة وإن لم يكن له من يقيم فيه الصلاة.

وقصبة الدير بكثرة سكانها وتوفر مرافق الحياة فيها أشبه بالمدن منها بالقرى. وهي مشهورة بتجارة الحنطة تحمل إليها من حوران فتوزع في الأطراف وليس دير القمر وحيدًا في نوعه باكتظاظ الأقدام فيه فمدينة زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين ألف نسمة وأوصل بعضهم نفوسها إلى خمسة وثلاثين وتكثر النفوس في حمانا ورأس المتن وبرمانا وبيت مري وبعبدات وبيت شباب وبكفيا وبسكنتا وبعبدا والشوير وحصرون والشويفات وحدث الجبة وبعقلين ومجد المعوش وعالية ومعلقة الدامور وجزين وجبيل واهمج وتنورين وعمشيت وغزير وجونية وكفرذبيان والبترون واهدن والهرمل وأميون وزغرتا وكوسبا وفي غير ذلك من القصبات التي يعد فيها النفوس بالألوف والمئات.

والقرى والمزارع متصلة خصوصًا في المحال التي ترتفع كثيرًا عن سطح البحر ولا يتعذر العيش فيها في الشتاء لكثرة ثلجها وبردها وجليدها وأعاصيرها وما أشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسعمائة وست وخمسين قرية [١] إلا بقصر فخم جميل! واسع الارجاء، محفوف من أطرافه بالرياحين والأزاهير العطرية وغرفه الكثيرة تلك الدساكر والضياع. لا يكاد المتجول يمل من مقصورة، حتى ينتقل إلى أخرى، وما أسرع

(١) دليل لبنان لإبراهيم الأسود.

وصوله إليها من تلك الطرق المعبدة، وهذا القصر مزدانة أفنيته وأروقته بأقصى ما تخص به يد الصانع من بدائع الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيرًا في تعهده.

معنى لبنان الأبيض، وهو اسم عبراني سمي به لتعمم قممه بالثلج في الشتاء والربيع وبعض الصيف. وقد ورد ذكره في الشعر القديم، فقال النابغة الذبياني:

حتى غدا مثل نصل السيف منصلتًا ... يقرو الأماعز من لبنان والأكما

وقال أحمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخراساني الطرابلسي من المحدثين:

دعوني لقا في الحرب أطفو ... ولا تنسبوني فالقواضب تنسب
وإن جهلت جهال قومي فضائلي ... فقد عرفت فضلي معد ويعرب
ولا تعتبوني إذ خرجت مغاضبًا ... فمن بعض ما بي ساحل الشام
وكيف التذاذي ماء دجلة معرقا ... وأمواه لبنان ألذ وأعذب
فمالي وللأيام لا درّ درّها ... تشرق بي طورًا وطورًا تغرب

وأنشد المتنبي في مدح أبي هارون بن عبد العزيز الأوارجي من قصيدة:

بيني وبين أبي علي مثله ... شم الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها ... وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وقال البحتري:

وتعمدت أن تظل ركابي ... بين لبنان طلعًا والسنير
مشرفات على دمشق وقد أعـ ... رض منها بياض تلك القصور

وقال الجغرافي اليزه ركلو من المتأخرين يصف لبنان: إذا ما ألقيت ببصرك من البحر إلى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هذا الجبل منظرًا مهيبًا فيلوح لك أزرق أو ورديًّا في الصيف ومشتملًا في الشتاء والربيع بجلباب ثلجه الفضي وإذا تصاعدت الأبخرة في الجو ألبست قممه الشامخة ثوبًا شفافًا هوائيًّا، غاية في اللطف، بيد أن جمال هذا المنظر، لا يخلو من سطوة الشدة، فترى ذاك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم في وجهه قائم على أن النظر إلى محاسن هذا الجبل عن كثب هي دون جماله عن بعد فترى ظهره على طول ١٥٠كليو مترًا. أقهب أجرد لا تكسوه الخضرة، أوديته متشابهة ومشارفه كأنها قدت على قالب واحد.

وقال الأب لامنس: إن لبنان أشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وفي الجهة الشرقية تراه ينقطع بغتة. أما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعًا متعددة على هيئات شتَّى من آكام وبطون وسهول وربى متسلسلة يدخل بعضها في بعض، وإذا استثنيت هذه التفرعات الثانوية والتجعدات غير المنتسقة. تحققت أن سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية، وجانب كبير من البساطة، ولذلك قلما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقر بها العين، وإنما يقع البصر على حاجز كبير في حدود الأفق. يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قممه العليا تمتاز عن بقية أقسامه.

ووصف شكله أيضًا فقال: ومن تفرع الجبل من الجنوب إلى الشمال وجده يتزايد علوًا وكذلك يتسع عرضًا. ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كليو مترًا وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلو مترًا، ومعظم اتساعه بين طرابلس

والهرمل ٤٦ كيلو مترًا. فيكون لبنان على كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتيه العلويتين اهـ.

قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر مربع يحده جنوبًا صيداء وأعمالها وشمالا طرابلس وكورتها، وشرقًا ولاية سورية وغربًا البحر المتوسط ومدينة بيروت، هذا هو حده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربي و الأصل في التسمية، ويطلقون اسم لبنان الشرقي على وادي التيم وجبل الشيخ (حرمون) أي على قضاءي حاصبيا وراشيا وما إليهما والبقاع فاصل بين اللبنانين وحدّه القدماء فقالوا: إنه جبل مطل على حمص يجيء من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل وما كان بالأردن فهو جبل الجليل وبدمشق سنير وبحلب وحماة وحمص لبنان، ويتصل بأنطاكية والمصيصة فيسمى هناك اللكام ثم يمتد إلى ملطية وسميساط وقاليقلا إلى بحر الخزر فيسمى هناك القبق قال وفي لبنان سبعون لسانًا لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلا بترجمان (؟) وفيه من جميع الفواكه والزروع من غير أن يزرعه أحد وفيه يكون الإبدال من الصالحين، وقال القلقشندي ثم يمتد لبنان إلى الشمال ويجاور دمشق وإذا صار في شماليها سمي جبل سنير.

وعلى ذكر الصالحين نقول إن لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس إلى العبادة فيه، قال ابن جبير في كلامه على العلم والمتعلمين في الشام في القرن السادس للهجرة ما نصه: وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع، فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة. ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى، أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء، وينصرف إلى حيث شاء، ومن العجب أن

النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وحسنوا إليهم، ويقولون هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فيجب مشاركتهم. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه، وفيه المياه المطردة، والظلال الوارفة، وقل ما يخلو من التبتل والعبادة وقال ابن بطوطة في القرن الثامن: إن جبل لبنان من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين، وهو شهير بذلك. ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه.

قلنا: ولذلك نرى المعروف اليوم بالإحصاء أن في لبنان نحو ألفي راهب وراهبة لهم ١١٨ ديرًا ما عدا الكنائس والبيع والصوامع التي لا تخلو قرية عن واحدة أو عدة منها ولا يقل دخل الرهبنات والأديار فيه عن مئة وخمسين ألف ليرة في السنة كما أكد بعض العارفين، وهو نحو ثلث إيراد لبنان وفيه المحابس التي ينقطع فيها إلى النسك بعض الرهبان فيقيمون في مغارة أو مكان منفرد يتعبدون في الخلاء، زرت أحدهم في مديرية القاطع فرأيته متوفرًا على كرم له هناك حتى جاد وأخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج ويصرف شطرًا من وقته في النسك والصلاة، ولو قام كل امريء بالواجب عليه فسعى للمعاش سعى هذا الحبيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقل احتياجنا للحكومات وقوانينها، وهذه المحابس [١] قديمة في لبنان ترد إلى عهد هيلاريون الناسك أو قبله وفي عدلون بين صيداء وصور على مقربة من صرفند عند الجسر صخر عال حفر فيه نحو مائتي كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم.

---

(١) تسيرح الأبصار.

وبالنظر لتوسط لبنان من سورية كان نافعًا بعمرانه لها بطبيعته فكأن علو قممه- وأعلاها ظهر القضيب علوه ٣٠٦٣ مترًا ثم في الوسط جبل صنين وعلوه ٢٨٠٦ مترًا وأعلى نقطة في جبل الشيخ ٢٨٦٠ مترًا- وتكاثر ضبابه وكثرة أشجاره وقربه من البحر كلها داعية إلى كثرة الثلوج والأمطار فيه فيتكون من عصارانها ومسايلها أنهار ذات شأن عظيم في عمران الشام، فمن سفوح لبنان تنبجس أعظم أنهار سورية فنهر العاصي الذي يروي أراضي وادي حمص وحماة وأنطاكية ينبجس من الهرمل في شمالي لبنان ونهر الليطاني الذي يروي بلاد صيداء وصور وتنتفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان ونهر طرابلس المسمى بنهر أبي علي ويعرف قديمًا بقاديشا يخرج من سفح لبنان ونهر الكلب وبيروت اللذان يسقيان مدينة بيروت وصاحينها ينبجسان من السفح الغربي من لبنان ونهر البردوني الذي يسقي زحلة وبعض البقاع هو لبناني المنبع أيضًا. ومن لبنان الشرقي ينبجس الأردن (الشريعة) كما ينبجس من غرب لبنان الغربي نهر إبراهيم.

فلبنان في فائدته لسورية أشبه بجبال الألب في سويسرا أو بنيل مصر من حيث امتداد المنافع، وللألب والنيل المثل الأعلى، وفي لبنان عدة ينابيع منها نبع الأربعين ونبع صنين وبقليع واللبن والعسل والباروك وعين زحلتا وقد زرت هاتين الأخيرتين.

وصلنا إلى الباروك في زهاء ساعتين من دير القمر مارين ببيت الدين مركز مصرفية لبنان الصيفي وكفر نبرخ وبعض المزارع وقرية الباروك في واد منفرج قليلًا تنبع عينها على قيد غلوة منها، أما المصطافون فيها فيختارون في الغالب النزول بالقرب من رأس العين في نزل هناك أو خيام لهم يضربونها وسط الحراج المبثوثة على آكام الباروك وجبالها، فتوفر لهم بذلك إلى جودة الماء التي ما بعدها جودة فيما أظن: طيب الهواء

ونسيم الأرز والصنوبر العليل البليل، ومن الباروك إلى عين زحلتا ساعة على الراكب، وفي هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين إليها للتمتع بنبع الصفا وقاع الريم اللذين ينعبان في ظاهرها ولتسريح عيونهم بجمال موقعها، وخصب واديها وحراجه الغبياء، وعين الباروك وعين زحلتا على مساماة واحدة في العلو. وماؤهما يكاد يكون متشابهًا والطريق من عين زحلتا إلى عين صوفر مارًّا بطريق السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة أو على الراكب وهذه العيون ينتفع بها كلها في سقي الحدائق في القرى البعيدة والقريبة.

ومن صوفر قصدت حمانا وقرناييل فصليما فعبدات فبحنس فبكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة. وهنا قضيت مع صديقي الابرامين أفندي ريحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير أياما رائقة ريثما ركبت البحر من بيروت قاصدًا القطر المصري فأوروبا. هذا وقد كان سبق لي منذ سنين أن زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحلة فأكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الأقضية الثلاثة الأخرى وهي جزين والشوف والمتن خليقًا بأن أتكلم على الجبل خصوصًا ولم ينقصني منه إلا قضاء الكورة فقط.

نبذة في تاريخ لبنان
٣

لم يخرج لبنان في دور من أدواره عن كونه معقلًا حصينًا كل من ساده يكون في الأعم من حالاته إلى الشدة والمضاء يتعب من يسودهم وقد يتعب به جيرانه من أهل البلدان الأخرى. ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالًا وخضوعًا للغريب ولكن أيام الاستقلال أكثر من غيرها في غيره من أقاليم الشام.

والغالب أن قاصيته خضعت للفينقيين كما خضعت سواحله واستولت عليه حكومة الأيتوريين العربية أو أهالي جيدور حوران في عهد الروم. والأيتوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب انكفأ من الجيدور واللجاه بلاده ونزل البقاع فانشأ له مدينة شالسيس أو عين جر (عنجر) جعلها عاصمة وأخذ يشن الغارات على لبنان ويتقدم إلى الأمام حتى تيسر له أن تسور قممه وأخضعه لسلطانه ثم انحدر إلى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزًا ثانيًا [١] وأكثر من كانوا يتأذون من بأس الأيتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لأنفسهم طولًا ولا حولًا.

نعم خضع هذا الجبل للفاتحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس أتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الأيتوريين فنزل المردة [٢] في الشمال أوائل القرن الأول للهجرة ثم جاء التنوخيون ونزلوا جنوبيه وتوالى عليه الأمراء المعنيون فآل عساف التركمان ومن سلالة المعنيين الأمير فخر الدين الذي عهد إليه السلطان سليم فاتح سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن أمرائهم الأمير بشير المالطي الثاني ومن أمراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذكر.

وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة يطيلون أيدي اعتدائهم على أبناء السبيل فيحفظون المسلمين ويبيعونهم من الأعداء فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين أو الظنينين كما سماهم أبو الفداء وجيوش التتار التي

---

(١) تسريح الأبصار.

(٢) هذه اللفظة فارسية ومعنى مرد الرجل.

انهالت على هذه البلاد كسيل العرم إن نجا المسلم من التتري لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الإسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة فلما لم ينجح النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالًا هائلًا بزعامة جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق. والغالب أن سكان كسروان كانوا إذ ذاك خليطًا من النصيرية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة.

وما زال نواب الشام [١] الأشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون النصيرية في كسروان حتى أخرجوهم وجعلوا بدلهم قومًا من التركمان في بعض النواحي وبقي كثير من المتاولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان. ولا سيما جبيل وأعمالها من أيدي الإفرنج سنة ٥٨٣ فرتب [٢] في جبيل قومًا من الأكراد لحفظها فبقيت على ذلك إلى سنة ٥٩٣ فباعها الأكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الإفرنج بعد صلاح الدين لأن الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال.

ولذلك أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق بأن تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الأفرم كما تقدم إذ قضى بقطع كرومهم وتخريب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرقوا في البلاد أيدي سبا.

---

(١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى.
(٢) معجم البلدان لياقوت.

ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ تداركوهم [١] بثلثمائة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس إلى مغارة الأسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستنكرونه أن يتعدى دربند نهر الكلب إلا بورقة طريق من المتولي أو من أمراء الغرب كما كانوا يفعلون بقطية [٢] على درب مصر وجعلوا التركمان ثلاثة أبدال كل بدل يقيم في الدرك شهرًا لحفظ المواني والدروب. وفي سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الأمراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور قلاوون إلى جمال الدين وزين الدين بن علي أنه إذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر إلى جهة كسروان والجردان يتوجها إليه بجموعهما وأسرتيهما وإن من سبى امرأة منهم كانت له جارية أو صبيًا كان له مملوكا ومن أحضر منهم رأسًا فله دينار وإن سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم. وهذه الفقرات على شدتها لم تصدر عن أمراء الشام إلا بعد أن طفح كأس صبرهم من تمرد الكسروانيين.

واختلف العلماء في أصول سكان لبنان والأرجح أنهم خليط من الفينيقيين والآراميين والروم والعرب مزجتهم بودقة واحدة فغدوا مزيجًا واحدًا كما هو حال معظم البلاد. فإنك ترى كثيرين من أسرات لبنان المشهورة نزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحوران في الداخلية ولا سيما في القرون الخمسة الأخيرة. ذكر المؤرخون أن معاوية نقل إلى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء قومًا من الفرس يسكنونها. وذكروا أيضًا أن أبا جعفر المنصور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المعرة الأمير أرسلان وأخوه الأمير منذر بجماعة من عشيرتهما فطابت

---

(١) تاريخ بيروت.

(٢) قرية في طريق مصر وسط الرمل كانت المجاز بين مصر والشام وقد مررت بها وأنا منهزم من وجه حكومة سورية في ربيع سنة ١٣٣٠هـ.

نفس الخليفة بهما فأمرهما أن يسكنا في جبال بيروت الخالية من السكان وأنعم عليهما بمقاطعات معلومة فسكنوا وبعضهم في كسروان وأخذوا يشنون الغارات على مجاوريهم. وفي بعضها أحرقت قرى من كسروان السفلى، وتقوى الامراء الأرسلانيون بعشائرهم وعمروا العمائر في الشويفات وجوارها.

أما الموازنة فكان أول منشأهم في شمالي سورية في الأغلب ينتسبون إلى قديس لهم اسمه مارون وهم طائفة كاثوليكية لا يكادون يختلفون عن الكثلكة في أمر جوهري في المعتقدات جاؤا شمالي لبنان أولًا ومازالوا يمتدون ويطردون سكان الجبال الأصليين أو ينصرونهم ويدمجونهم في جملتهم حتى بلغوا الجنوب واحتفظ الدروز ببلادهم بما فيهم من الشدة والإباء.

وزعم بعضهم أن الموازنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لأنه لا يوجد بين أديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر وأن جبيل والبترون كانتا على الحياد مع الصليبيين فلم تنحازا إليهم ولا للمسلمين أصحاب البلاد إلا أن هذا لم يمنع من الرواية الثانية من ممالأة الموارنة للصليبيين ودلالتهم على الطرق ونجدتهم [١] لهم وثباتهم معهم على العهد إلى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢م ومن أجل هذا اضطر حكام البلاد أن يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل اهدن وبقوفا وحصرون وكفر سارون والحدث.

وما برح لبنان ينقسم بين أمراء المقاطعات يحكمونه على النحو الذي كانت عليه صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات. يقوى

(١) تاريخ البطريرك الدويهي وتاريخ المقاطعة الكسروانية للحتوني.

اليمانيون تارة والقيسيون أخرى والناس معهم في أمر مربح ومن النحزبات القيسية واليمانية ما وقع في الربع الأول من القرن السادس عشر للميلاد بين الأمير فخر الدين المعني القيسي وجمال الدين الأرسلاني اليمني. قال المقريزي وعشير الشام فرقتان قيس ويمن لا يتفقان قط وفي كل قليل ينور بعضهم على بعض.

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكي نسبة إلى يزبك جد الشيخ عبد السلام العماد زعيمه والجنبلاطي نسبة إلى الشيخ علي جنبلاط زعيمه الآخر وذلك سنة ١٧٢٩-١٧٥٤ وامتد في لبنان ولم يزل له أثر كما نشأت أحزاب أخرى كالمعلوفي والمكاري ومثل هذه الأحزاب قد لا تخلو من حدوث فتن تهرق فيها الدماء وتكثر الأيامى والإماء كما فعل الحماديون وأحرقوا بلاد جبيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها إلى بلاد ابن معن وكانت العداوة بين بني سيفا وبني معن سببًا في تخريب الجبل أيضًا.

ومن الوقائع التي يتمت فيها الأطفال تلك الوقعة التي جرت في القرن العاشر عقيب أن نهب بعض أمراء لبنان الصرة السلطانية من جون عكا بينا كانت محمولة إلى الآستانة فجمع إبراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بها إلى مرج عرجموش قرب زحلة وأمسك طريق البحر والبقاع على الدروز فقتل نحو ستمائة منهم وأسر بعض الأمراء.

وما زالت حال الجبل في إقبال وإدبار تقع اليوم فتنة العاقورة وغدا وقعة مرحلاتا وبعده وقعة أرض خلدة ثم فتنة برج العلول وبعد ذلك وقعة عين دارة حتى أقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمر باشا النمسوي واليا فلم تطل مدته حتى منحت الدولة للجبل امتيازات وقسمته في السنة التالية

إلى مقاطعات. وتعرف الأولى [١] بقائممقامية النصارى وهي الشمالية تمتد من نهر البارد في عكا إلى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت تولاها الأمير حيدر إسماعيل اللمعي وتعرف الثانية بقائممقامية الدروز وهي الجنوبية تمتد من طريق الشام إلى منتهى جبل الريحان في الشمال مع قرى إقليم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الأمير أحمد عباس الأرسلاني أما قصة دير القمر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والي إيالة صيداء وكانت قائممقامية النصارى مؤلفة من المنن وكسروان والبترون والكورة وزحلة وقائمقامية الدروز تشمل فضاءى الشوف وجزين وفسما من غربي البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم في فضاء المتن وفرض على لبنان في كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس.

ودام الحال على ذلك إلى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشؤومة بين الدروز والنصارى في لبنان فمنحت الدولة هذا الجبل استقلالًا إداريًا بأن جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين أو تجدد انتخابه بمصادقة الدول. وجعل مال لبنان سبعة آلاف أو ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش وضعت على الأعناق.

ولحكومة لبنان موارد أخرى سنوية منها نحو أربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الأراضي الأميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات والعجلات وتعدل بثلاثة عشر ألف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئًا من مال الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع إليه العجز في ميزانيته وفي لبنان ألف جندي لبناني بإدارة أميرالاي لبناني وفي بيت

(١) دواني القطوف.

الدين فرقة من الجند العثماني المحافظ وعليها أميرالاي بإدارة حكومة لبنان.

وتحاول حكومة الجبل الآن أن تزيد الضرائب قليلًا ليتيسر لها القيام ببعض الإصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور إلا أن معظم الأهلين يقاومونها وفاتهم أن الليرة منذ خمسين سنة لا تعادلها اليوم إلا الثلاث ليرات أو أكثر لوفرة الذهب وغلاء الأسعار وهم يعتبرون أن هذا العمل إخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون أن يتدرج الأمر إلى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من أجل هذا أبى اللبنانيون أن يبعثوا إلى مجلس الأمة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم وما نظن وطنيتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين إرسال نواب عنهم حتى يشتركوا وسائر إخوانهم العثمانيين في الغنم والغرم فليس من الإنصاف أن يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياد وهو في وسط البلاد ويحسب جزءًا متممًا من أجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلبت الحال وتعددت المظاهر و الأشكال.

غابات لبنان

٤

ليس في لبنان أرض تبلغ مساحتها مائة كيلو متر مربع بل غاية ما فيه من الأراضي منحدرات ومنعرجات وأودية ضيقة ومسايل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم وأشجارهم وأكثر الأراضي مما يصلح للشجر أكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال الأرض في الأكثر وليس في الأيدي نص قديم يشير إلى أصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير ما نقلناه في نبذة سالفة عن مؤلفي العرب من أن فيه أصناف الفواكه والزروع

وأكثرها مما ينبت بنفسه وهو كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع. وإذ كانت طبيعة أرض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لا تناسبها أرضه ضعيفة فيه أو تكاد تكون معدومة. ولكن لم تخل أرض لبنان في زمان من أزمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الأشجار المثمرة والزان والسنديان والسرو والأرز من الأشجار غير المثمرة.

وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الأرز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بني قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في أيام زربايل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم. وقالوا إنه ثبت أن ملوك الأشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الأرز وأن المصريين أدخلوا من خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وأن الإسكندر المقدوني وضع من خشب الأرز في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين في سورية أدخلوا خشب الأرز في بناء دورهم.

وكل هذه الأخشاب قطعت من لبنان أو من الجبال المجاورة له وكانت تحمل في الغالب إلى طرابلس وصيداء وصور حيث كانت دور الصناعات وقد أنشأ بعض ملوك الإسلام أساطيل من خشب الأرز وقالوا إن بيروت [1] كانت دار صناعة دمشق (مسلحتها أو ترسانتها أو ورشتها) وبها عمر معاوية المراكب وجهز فيها الجيش إلى قبرص ومعهم أم حرام وأسماء العميصاء وقيل إنه عمر من الأرز ألفًا وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهز أسطولًا أضخم من الأرز نفسه وتبعه غيره من ملوك الإسلام في

(١) تاريخ بيروت.

اختيار الأخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الأرز ويحملون من غصونه قطعًا ينقلونها من قارة إلى قارة ومن مملكة إلى أخرى وهو عطر لرائحة إذا وضع في النار ويحسن في المشم إذا مسسته بيدك ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبث به الأرضة ولا يفعل فيه السوس ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله في أبنيتهم وقصورهم وبيعهم وهياكلهم وتماثيلهم ونصبهم.

والغالب أن الحكومة السالفة القديمة في لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها وهي السرو والعرعر والأرز والصنوبر وتسمح بقطع غيرها واحتطابه أو غرس غيره محله. وقد بدأ النقص في هذه الأشجار ولا سيما الأرز منها منذ خمسة قرون لأن اللبنانيين احتاجوا إلى الاحتطاب وأخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصًا وقد جرت عادة بعض حكام لبنان إذا غضبوا على أحد أن يقطعوا أشجاره ويخربوا داره وإلى اليوم لا يزال من الأمثال العامة السائرة في الجبل (الله يقطع رزقه) أي ما يملك من شجر و(الله يخرب رزقه) أي بيته- قاله في الدواني

مثال ذلك أن الأمير أحمد المعنى طرد المشايخ الحماديين المتاولة لما كثر بغيهم في كسروان ففروا إلى بلاد بعلبك فأحرق قراهم في القرن الحادي عشر وقطع أشجارهم وقد رسم مرة بيدمر -كما في تاريخ بيروت- نائب الشام لشهاب الدين بن زين الدين صالح من أمراء الغرب في لبنان وكان في دمشق أن يركب على خيل البريد ويتوجه إلى قرية عين زحلتا من شوف صيداء ليكشف عمًا فيها من أشجار التوت النافع لعمل النشاب فلم يجده موافقًا وربما أحب عدم تصديع أهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذاك العهد اجتهد أهل الشوف في قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه

واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته. قلنا ومثل ذلك ما نشاهده في أيامنا من أن بعض أهل القرى البعيدة عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع أشجارهم فرارًا من ظلم ملتزمي الأعشار واشتطاطهم في تقاضي العشور عليها أضعافًا مضاعفة.

ولم يبرح شجر الأرز موجودًا في عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الأبهل وأخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة النمو لكثرة الأمطار والثلوج والعواصف في تلك الأرجاء وثالثة فوق قرية عين زحلتا وكان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضا أيام حادثة سنة ستين لتجدد بخشبه بعض بيوت المنكوبين ورابعة بين أفقا والعاقورة في جرد جبيل من بلاد كسروان وخامسة بين قرية تنورين وبشرى صغيرة الشجر وعدد شجيراتها نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشرى على علو ١٩٢٥ مترًا عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الأرز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر مترًا وارتفاع أطولها خمسة وعشرون مترًا وقدروا عمرهما بثلاثة آلاف سنة. ولا أثر الآن في سورية لشجر الأرز إلا في أعالي سير ببلاد الضنية [1] في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند أهله تنوب.

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الأرز أو أي كان من شجر الاحتطاب في الأماكن الخالية ولا سيما في القمم والقنن لما

---

(١) تسريح الأبصار.

أتت عشرات من السنين إلا وقد زادت ثروة الجبل زيادة محمودة وكان مع طول الزمن لابن لبنان من أشجاره مورد آخر غير التوت والزيتون مثلًا لأن شجر الأرز لا يجود في الغالب إلا في مثل هذا العلو من الجبل بل من جبال سورية التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها.

وإذا زاد عدد الغابات في سورية زيادة كبرى وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتي القدس والزور بتكثير الغابات في الأماكن الخالية ولا سيما في المحال التي يعرف أنها كانت غابات غبياء نافعة يتحول مناخ سورية وتكثر فيها الأمطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذى بذلك العرب الرحالة في باديتم كما يتضرر ابن المعمورة بهم ويصبح منهم بين نكبتين سماوية بقلة الأمطار وأرضية بسطو ابن البادية على ما بقي لابن القرى من رزق.

وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض على كل لبناني أن يغرس عشر شجرات من أصناف الشجر عله تقتدى بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا يأتي علينا جيل إلا وتصبح سورية غنية بغاباتها كغنى سويسرا أو أكثر والأشجار في بلادنا أكثر نموًّا مما هي في أوربا لما عرف من اعتدال الفصول ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر فغرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة أن كثر اليوم تهطال الأمطار فيها على طريقة منظمة وسيكثر خيرها كلما زادت أشجارها وعسانا نقتدي في سورية بهذا المثال.

الهجرة من لبنان
٥

منذ أمن السكان في لبنان على أرزاقهم وانقطعت شأفة أرباب المقاطعات الذين طالما اشتطوا في مطالبهم وبطلت أو كادت السلطة الإفرادية الذوقية وقلت الأوبئة والزلازل التي كانت تحصد العمران والسكان حصدًا كالزلزال الذي عاود لبنان مرات سنة ١٧٥٩م وخرب القرى وأهلك الناس والطاعون الذي حدث سنة ١٧٨٩ وعم لبنان كله واستمر الموتان ثلاثين سنة- منذ خفت العوارض الطبيعية والأرضية أخذ كل فرد يحسن من حاله فنمت النفوس باستتباب أسباب الراحة وأخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون أبناء الجبل على المنازع الدينية ويلقنونهم شيئًا من اللغات الإفرنجية والعلوم العصرية كما أن الموارنة ما زالت لهم علائق مع الكرسي البابوي في رومية يختلف إليه أحبارهم منذ قرون وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد.

ثم إن طبيعة الجبل تقتضي التحسين والتنظيم. والمسيحيون على الجملة يميلون إلى الرفاهية ويقدرون طعم الحياة قدرها. ولم يكد يدخل القرن الثالث عشر للهجرة في دور العدم ويطلع القرن الرابع عشر حتى دخل جبل لبنان في طور جديد: فكثرت طرق عجلاته حتى أصبح لديه منها الآن نحو ألف كيلو متر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة وتهيئ سبل التنقل على المصطافين في ربوعه، وأكثر هذه الطرق في قضاء المتن. لأنه ظهر لبنان ونقطته الوسطى، ومقصد المصطافين. من البيروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم. وفيه الآن سبعون كيلو مترًا من

الخطوط الحديدية منها خمسون من طريق بيروت ودمشق وعشرون من تراموای شمالي لبنان.

وفي هذا الجبل ٢٥ مدرسة داخلية كبرى وصغرى و١٤ مدرسة إكليركية و٨ مستشفيات و٢٠٦ من الحراج والغابات و١٠٤٧ من معامل الحرير و٨١٩٧ من الدواليب وبلغت حاصلاته من الفبالج (الشرانق) سنة ١٩٠٦: ٢٠٢٧٠٣٠ أوقة ومن الزيت ٢٥٤٨٨ أقة وثمن الحرير الذي يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك في السنة وكثر سكانه حتى عدلوا أن في كل كيلو متر مربع ٦١ نفسًا ولا يفوق الجبل في ذلك غير ولاية الآستانة وجزيرة سيسام (ساموس) وسكانه الآن زهاء أربعمائة وثلاثون ألف نسمة منهم ٢٥٠ ألفًا من الموارنة و١٦٠ ألفًا من الروم و٣٦ ألفًا من الكاثوليك و٥٥ ألفًا من الدروز و٣٣ ألفًا من المسلمين (سنة وشيعة) و١٥٠٠ من البروتستانت والباقون أرمن وإسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه خمسمائة من أهل الوبر يعيشون في مضاربهم خارج القرى وأكثرهم فقراء يستوكفون الأكف وقد أحصى غليلموس الصورى في تاريخ الصليبيين عدد الموارنة في عصره فكانوا أربعين ألفًا وما زال عددهم يربو على عدد وفياتهم وإن هاجر كثيرون بعد ذلك إلى قبرص ورودس والقدس ومالطة ولا يبعد أن تكون اللغة العربية انتشرت في جزيرة مالطة بواسطتهم.

ولا يسعنا وقد وصلنا من بحثنا في شؤون الجبل إلى هذا الحد إلا أن نرسل جملة في شغف اللبنانيين بالهجرة إلى أميركا وغيرها من البلاد التي توهم ابن سورية أن المال فيها ملقى على الشوارع لا يحتاج إلا لمن يمد يده ليتناوله مع أن أولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف ما يصرفون من الوقت والقوة في بلاد المهجر على طول السنة وحسبوا ما صرفوه في ذهابهم وإيابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم لرأوا أن المعدل واحد والفرق قليل لا يساوي هذا النصب.

والذي ظهر من قرائن الأحوال أن ابن لبنان كان أول فلاح سوري هاجر إلى أميركا أو جرأ سائر السوريين على الهجرة محدوبًا بما اشتهر عن القارة الأميركية من الغنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبعدها ولأن ابن لبنان أكثر أهل جبال سورية تعلمًا ونورًا وأوفرهم نشاطًا ومضاءً وشمعًا وإدلالًا بل إن مجموع القارئين والكاتبين فيه أوفر من مجموع القارئين والكاتبين في مجموع مدن الشام.

وأول من دخل أميركا [١] من السوريين الخوري الياس بن القسيس حنا الموصلي الكلداني من سنة ١٦٦٨-١٦٨٣ وأول من دخل أميركا الشمالية في القرن الماضي الخوري فلابيانوس الكفوري سافر إليها سنة ١٨٤٨ وأخذ معه ناصيف الشدودي وأول من دخل الجنوبية المطران باسيليوس حجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الإحسان وأول من دخل أميركا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف إلى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا إلى بلادهم بثروة وافرة فاقتفى أثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالي لبنان وامتد في كل سورية ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد وأوستراليا وجزر البحر المحيط بل وفي إفريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها.

وقدر بعضهم أن ثلث المهاجرين يسكن أميركا وثلثهم يرجع إلى وطنه والثلث الآخر يموت. ونظن أن الثلث الأخير مبالغ فيه وإن كان عدد الهالكين في المهجر غير قليل. وأحصى عدد السوريين المهاجرين إلى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين ألفًا منهم ستون ألفًا في الولايات المتحدة وخمسون ألفًا في جمهوريات أميركا الجنوبية وخمسة وعشرون ألفًا في أميركا الوسطى وعشرة آلاف في أوستراليا وبعض الجزائر

(١) الدواني.

والباقون في إفريقية والهند والفليبين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون ألفًا نصفهم ذكور ونصفهم إناث وربما كان الذكور أكثر.

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان بأقدامهم وذكائهم المعهود فنزلوا في دار الهجرة بلادًا تحتاج إلى أبد عاملة ونفوس لا تعرف التعب فأنشأوا يعملون ويذخرون ويقترون على أنفسهم في النفقة على خلاف عادة معظم المهاجرين إلى أميركا من أهل أوربا مثلًا فآب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير صحته بمئات من الليرات فكان أول همه أن يعمر له دارًا قوراء بالحجر النحيت والقرميد على المثال الذي رآه في بيوت المهجر.

وكثر تقليد الناس بعضهم بعضًا ومنهم من اشترى له أرضًا في بلده وطفق الآخر ينجر بما نحاه من ذاك الراس المال القليل. أما الأفراد الذين اغتنوا فعدت ثروتهم بالألوف فقد استوطنوا البلاد التي هاجروها جريًا على المثل العامي (في المطرح الذي فيه ترزق الصق) وهم إن كانت تحدثهم أنفسهم بالرجوع لا يهنأ لهم بال متى عادوا إذ يتجلى لهم الفرق الكبير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرنسيسكو وبولس ايرس وسان باولو مثلًا وبين عشقوت وبسكنتا وعمشيت وعرنة ومعرونة أما أولادهم فينطبعون بطابع البلاد التي ولدوا فيها وأكثرهم لا يتعلمون اللغة العربية ولذلك لا يرجى البتة أن يعودوا إلى موطن آبائهم وهذا القسم ممن حسرتهم البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم أن بعضهم ذهب براس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم على جانب من الأخلاق والمعرفة لم يعمدوا إلى الطرق السافلة في تحصيل الثروة.

نفعت الهجرة لبنان وأضرته وعندي أن المضار أكثر من المنافع إذ لا يظهر إلى العيان في الغالب إلا الحسن. فقد يذهب ألف مهاجر مثلًا إلى

بلد كذا ولا ينجح منهم إلا واحد أو اثنان فيأخذ الناس يتحدثون في أمرهما وينسون أولئك المئات الذين يعملون أربع عشرة ساعة كل يوم في أشق الأعمال ولا يكادون بعد مرور سنين يوفون أجرة الطريق التي استلفوها من أحد المرابين في بلدهم أو باعوا في الحصول عليها أرضًا لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هلكوا بالأمراض وغيرها وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها.

فإن من نظر في الأمور نظرًا سطحيًا وشاهد تلك البيوت البديعة في قراه ومزارعه التي عمرت بمال أتى به المهاجرون من غير أرض لبنان وسمع بأن فلانا أصبح يملك كذا وكذا من الليرات وأن بلد كذا يدخل إليه كل شهر من تحاويل أميركا ما يقدر بكذا من الذهب- من شاهد ذلك وسمعه لا يعتم أن تعروه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد أن الحال إذا دام على هذا المنوال وأموال أميركا تتسرب إلى بلادنا نصبح بعد بضع سنين أغنى من الأميركان وننقل شطرًا عظيمًا مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية.

ليست السعادة بكثرة المال. السعادة شيء غير ما يتوهمه من همهم إنشاء البيوت وتزيينها من الظاهر وفي باطنها الشقاء والحسرة. قالت لي عجوز في صليما وقد سألتها أين رجالكم: (ذهبوا إلى أميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التي عمروها لتسرح فيها الفيران عادوا ليجمعوا كمية أكبر من المال لأن ما جمعوه لم يكفهم لإتمام هذه الدور على ما يحبون وفرشها ونقشها ثم إن حالة البلاد لم تعجبهم بعد أن شاهدوا مشاهد أميركا). وقول هذه العجوز الذي أحزنني مغزاه ولا تزال الأذن تردد صداه قد سمعت مثله من كثيرين من أهل لبنان رجال ونساء.

أي حسرة أعظم من أن تتوقع أم في كل اسبوع قدوم ابنها وقد تمضي الشهور ولا تتناول كتابًا منه أو زوجة تنتظر بعلها منذ سنين هي وأولادها وهو لا يكاد يبعث لهم بنفقتهم فتضطر تلك المراة المسكينة أن تعمل ليلها ونهارها لتطعم أولادها من كدها وما هي بمفلحة، وأي بلوى أكبر من أن تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس ينتظرن عروسًا لأن شبان الضيعة هاجروا وأكثرهم لا يريد أن يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة أميركية وزهد في أسرته وقريته لأنه تمدن بزعمه ولا يليق به أن يتزوج إلا من متمدنة. ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يدرك سر تعدد الزوجات في مثل هذه الحال ويسجل بأن أقل سيئة من سيئات الهجرة انقطاع الأهلين عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر أسباب الراحة فيه.

وإن دعوى من يدعون أن لبنان لولا الهجرة لأصبح خرابًا مردودة من وجوه أحدها أنهم يعتقدون أن تلك الأموال التي دخلت لبنان وهي تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هي غنى لبنان وما الثروة في الحقيقة إلا العمل ليس إلا. فقد رأينا أسبانيا على عهد شارلكان يتسرب المال إلى صناديقها بالبدر والسبائك من أقطار المعمور لأن هذا الملك كان يعتقد أن كثرة النقود والذهب في بلاد كاف وحده في غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنين حتى أمست أسبانيا أفقر بلاد أوربا لأن أهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والأخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرافعة من شأنهم.

إن انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين إلى نزول أميركا وإفريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على أمل العودة إلى مساقط رؤوسهم متى امتلأت أكياسهم وجيوبهم وعبابهم قد حال دون تعهد أرضهم واستثمار صناعاتهم ففي لبنان من الخيرات الطبيعية ما يكفي أهله إذا

زادوا ضعف ما هم الآن. ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لا يزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد ولا يشعر بذلك إلا أرباب الأملاك. مثال ذلك أن (كدنة) الفلاحة كانت تساوي منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشًا فأصبحت اليوم تساوي ستين على حين أن غلات اليوم مثلًا لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة أيدي العاملين وارتفاع أسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش في البلاد ولأن المهاجر اللبناني الذي كان فلاحًا حراثًا إلى عشرين أو ثلاثين جدًّا من أجداده إذا هاجر وقضى في هجرته ثلاث سنين ثم آب إلى بلاده تكبر نفسه فلا يعود يتنازل إلى معاناة الزراعة بل يفضل أن يعيش كما يعيش تجار أميركا وأرباب الأملاك في بلادنا وهو لا يملك رأس مال يكفيه سنة واحدة إذا ظل عطلًا من العمل.

في أمثال العامة (أنا أمير وأنت أمير فمن يسوق الحمير) حكمة لطيفة نافعة تصدق على كل لبناني مهاجر فإذا أحب كل فرد من المهاجرين أن يقلد الأعيان في عيشه ورفاهيته فمن يبقى لتعهد التوت والزيتون وغرس الصنوبر والأرز والسنديان والزان وحفر الأقنية والأحواض وتمهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الأقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وأنواع الزينة.

ولقد قال الاقتصاديون إن من جملة ما ساعد ألمانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية أنك تجد في رجالها أنواع العاملين ولا يستنكف كل عامل من عمله بل ولا يريد أن يعرف إلا به فالألمان أشبه بجيش منظم فيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم وكل واحد منصرف إلى عمله لا تحدثه نفسه أن يقلد رفيقه أو يعتدي عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه ما أمكنه الحال ولو جرى أهل بلادنا على هذا المثال لأصبحنا بعد جيل أمة راقية حقيقة ولما رأينا الصغير يشكو لأنه يريد تقليد الكبير وأسبابه لا تساعده.

نحن لا نجاري أولئك الذين يدعون أن لبنان كان خرابًا لولا الهجرة لأمور أقلها أن البلاد السورية واسعة وأهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون أن ينزلوا الأقاليم القليلة السكان المحتاجة إلى العناية ويستعمروها فان فتشوا ذات اليمين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعلبك والبقاع ومرجعيون وصيداء تتاخم جبلهم وتحصرهم فيه فإن لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام وبلاد حلب مثلًا ما يكفي لإغناء مئات الألوف من الناس فلو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدهم لأصبحت بعد سنين جنات زاهرة وأقل ما في ذلك من المنافع أن هذه البلاد منهم على أيام قليلة يستطيعون في استعمارها أن يقضوا معظم أيام السنة في جبلهم.

وقد كتب قائممقام سروج من أعمال حلب منذ مدة في جريدة المقتبس يقول إن خمسين قرية في قضائه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش فلو اشتراها بعض أرباب الأموال من اللبنانيين وأنفقوا عليها النفقات التي ترقى زراعتها وغرسوا فيها الأشجار وأقاموا البيوت لما أتت ثلاثون سنة إلا وهذا القضاء وحده من أعمر البقاع السورية فما بالك بما في غيره من الأقضية والألوية والولايات العثمانية من الخيرات.

لا نوافق القائلين بالاغتناء بسرعة فإن ما يأتي بدون عناء كبير قد يذهب في الأكثر كما جاء. وإنا لنؤثر أن بوجه اللبنانيون ولا سيما في عهد الدستور السعيد وجوههم قبل البلاد الداخلية من سوريا والعراق والأناضول ففيها متسع لهم وفيها لهم مغانم كثيرة لو صبروا على جنيها لكان لهم ولأبنائهم وأحفادهم منها مال خالد وملك لا يكاد يبلى.

وفي لبنان من الصناعات القديمة ما يرتقي لو سعوا إلى تحسينه كعمل الأقمشة والنجارة والحدادة [١] وغيرها وله مورد آخر للربح ينتفع منه الآن أكثر من سائر جبال سورية ونعني به موسم المصطافين فإن لبنان من سورية ومصر كسويسرا من أوروبا وأميركا يقصده الكثيرون كل سنة التماسًا للصحة والراحة فلو عني اللبنانيون أكثر مما يعنون براحة من ينزلون عليهم لأتاهم الصيف في كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة فقد حسب بعضهم عدد المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر الف نسمة أكثرهم من المصريين فلو فرضنا أن الواحد ينفق عشر ليرات لكان بذلك مبلغ لا يقل عن مائة وخمسين ألف ليرة فما الحال لو زاد هذا العدد ونحن نرى أن سويسرا وإيطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة ما لا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة وإذا زادت عناية حكومة لبنان وأهله بالمصطافين في قمم لبنان لا يعتم أن يجلب إليه أناسًا من المصطافين من أهل أوروبا نفسها خصوصًا إذا رأى السياح أن النفقة في الجبل أقل مما في جبال الألب وأنها لا تبلغ مع أجور النقل في البحر والبر المبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف.

وبعد فإنا لا نفتأ نكرر القول بأن من الأنفع لابن لبنان أن يوجه بعد الآن وجهته إلى الداخلية ليعتاش ويرتاش وأنه إذا استفاد المهاجر منا إلى أميركا من حيث ارتقاؤه في اقتباس بعض أصول التمدن في الملبس والمأكل والمسكن فإن الأنفع له اليوم أن يستعمر بلاده نفسها وهي تحتاج إلى أضعاف أضعافهم. وسوف يعلمون أن هذه النصيحة صادرة عن

---

(١) في قرية بنت شباب من مديرية المقاطع تصنع أجراس الكنائس وهذه الصناعة لا تعرف في بلاد العرب ولا في مصر وقد دخلت إليها في الغالب على عهد الصليبيين وكان المسيحيون من قبل في بلادنا يستعملون النواقيس من الخشب وما زالت هذه الصناعة محصورة في عائلة واحدة من عمال تلك القرية.

إخلاص لا يراد منها إلا نفع لبنان خاصة وسورية عامة. فإن ما يقاسيه اللبناني من ألم الغربة والمهانة في الأحايين واحتقار الغربي له مهما بلغ من مكانته جدير بأن لا ينسبه بلاده والعيش بين أهله وجيرته. وقدر أحد العارفين منذ ثلاث سنين أن ما حمله اللبنانيون المهاجرون إلى لبنان يبلغ خمسمائة ألف ليرة أي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا أن هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والأدبية.

حالة مصر

٦

هبطت مصر وعهدي بها ليس ببعيد غبت عنها أربعة عشر شهرًا وكنت صرفت فيها أربع سنين أيام الحكم الاستبدادي في المملكة العثمانية فلم أر اليوم وأنا عابر سبيل أن أمكث فيها أقل من أربعة عشر يومًا قضيتها في مشاهدة من خلفتهم فيها من الأصدقاء الكثيرين. والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الإفرنجية حوت ما في العواصم من ضروب الرقي والانحطاط مما تنفقه على غيرها طوعًا أو كرهًا ويأتي الناس من القاصية فيأخذونه عنها ويهتمون بتقليده وتأييده.

إن من ينظر إلى مصر نظرًا سطحيًا يأسف لها كثيرًا ويعدها كنزًا ضائعًا ودمًا ضيعه أهله. ومن يمعن النظر في مواردها ومصادرها ويدرس مساعيها ومقاصدها ويقيس النتائج بالمقدمات والماضي بما هو آت يدرك أن المستقبل المخبوء لمصر في حياتها الاجتماعية والسياسية لا يقل عمًا أحرزته في حاضرها من المنافع المادية والأدبية إذا ظلت عناية أهلها

متوفرة على التعليم والتربية وهم يتفننون سنة عن أخرى في تلقف ما ينفعهم من أنواع المعارف لقيام بناء مجدهم الجديد على أحسن نظام.

ليس في أقطار الشرق ولا في أقطار الغرب بلد عرف تاريخه كما عرف تاريخ مصر ولا بلد مثله أبقى على آثاره الخالدة واحتفظ بتراثه القديم فنفع العلم والعالم بما ادخره. فقد قال لنا التاريخ إن عهد بعض سلائل فراعنتها كان عهد ارتقاء ومدنية وإن مدنيتهم لا تقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية فكانت دولة فاتحة غازية مستعمرة كما كانت دولة فاضلة متحضرة. وأنه جاء زمن طويل على مدينة الإسكندرية أيام الروم كانت تفيض العلم النافع على العالم أجمع بمدرستها كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة أيام الخلفاء وكما تفيض كليات أوروبا وأميركا على آسيا وإفريقية اليوم.

أتى على مصر دور انحطاط بعد دولة الفاطميين اشتغلت فيه بنفسها وكان حظها من المعارف حظ سائر بلاد الإسلام وإن كانت لها الميزة أبدًا في هذا الباب على الأقطار المجاورة فقد كانت على عهد الأيوبيين والجراكسة والمماليك على انحطاطها موردًا تستقي منه البلاد الأخرى وكانت العلوم الإسلامية والأدبية خاصة مما يحمل من أزهارها إلى شمالي إفريقية وداخليتها وبلاد العرب والترك وسورية وغيرها، ولما جاء نابليون الأول ثم محمد علي الكبير دخلت فيها بواسطة علماء من الفرنسيس روح الحضارة الغربية وأسلوب التعاليم الأوربية وأخذت حكومتها ترسل بالبعثات العلمية بل بالبعوث السلمية إلى أوربا ليدرس النشء في كلياتها ثم يعودوا إلى مصرهم فينفعوها بما علمهم الله والبشر الراقي.

وما برحت هذه الإرساليات تكثر ومصر الحديثة تتكون على المناحي الغربية حتى جاء الخديوي إسماعيل وأسرف في مالها إسراف جنون وجهل حتى اضطرت إلى الاستدانة من الماليين الأوروبيين وأكثرهم إنكليز وفرنسيس ولما حدثت الفتنة العرابية وجدت إنكلترا مدخلًا لها بحجة أن أرباب الأموال يوجسون خيفة على أموالهم ورأت من فرنسا غفلة أو تغافلًا فعملت وحدها على إطفاء الفتنة فصدقت عليها كلمة نابوليون في قوله وقد أخرجته إنكلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين في القرن الماضي أنها لم تخرجنا منها إلا لتأخذها لنفسها في المستقبل.

دخلت إنكلترا مصر لإطفاء الفتنة أولًا ثم للمحافظة على ترعة السويس التي أصبحت أكثر أسهمها لجماعة من أبنائها. والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الأقرب ومادة حياة دولة البحار ومن حافظ على سلامته ومادة حياته يعذر.

ولقد كان ميدان الإصلاح فسيحًا أمام المحتلين لتوفر الأسباب الطبيعية لمصر وأن بلادًا لا ينقطع ماؤها ولا تغيب شمسها ولا تتعب تربتها ولا تتعاصى على الإنسان طبيعتها لأقرب البلاد إلى معالجة الإصلاح في مجاهلها ومعالمها.

ولما استتب الأمن في أنحاء القطر أقبل أرباب الأموال من الغربيين وغيرهم يتجرون ويزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية. فكانت تلك الحركة نافعة في نهضة القطر الأخيرة نهضة اقتصادية كبرى حسدتها عليها بلاد كثيرة.

تهيأ لمصر والحق يقال من رجال الاحتلال أناس عملوا بإخلاص لتحسين زراعتها وريها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معًا. وكان عميدهم الأكبر لورد كرومر الذي أدار دفة السياسة المصرية

أربعًا وعشرين سنة أرخى في خلالها عنان الحرية الفكرية والاجتماعية فهاجر إلى مصر كثيرون من المشارقة. عمل هذا وغيره من الأعمال النافعة ولكنه كان يحاول أن يقف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القليلة التي لا تسمح الحال إلا بإعطاءها للمصريين وما عدا ذلك من الارتقاء العقلي والسياسي فقد كان اللورد يقول لهم كل سنة تصريحًا وتلويحًا في تقاريره السنوية إنكم لا استعداد لكم معاشر المصريين لغير ذلك من الأعمال فهل نسيتم ماضيكم أيام كنتم تساقون إلى السحرة سوقًا وتستعبدون استعباد العبيد والأرقاء أيام الحكومات الماضية المدمرة فاحمدوا الله على أن أنجاكم مما كنتم فيه فحالكم الآن أحسن من ماضيكم مئة مرة فعليكم أن تقنعوا بما حزتموه.

ولكن نبهاء مصر لم يفتهم معنى هذه السياسة وكان الفصل الأكبر للجرائد في تنبيه شعور الأمة المصرية إلى أن وراء ما هم متمتعون به الآن مطلبًا أسمى وأنفع فقاموا يسعون إليه سعيهم وهم على اختلاف في الطرق الموصلة إليه لا يختلفون في كون بلوغه لا يتأتى إلا من طريق التعليم والتربية.

فبدل أهل الاقتدار المالي ما سمحت به نفوسهم من إنشاء الكتاتيب في الأرياف والمدن حتى أسفرت النتيجة بعد بضع سنين عن تكثير سواد القارئين والكاتبين ثم رأوا أن الأمة لا ترقى إلا إذا كان فيها أفراد يحسنون تعليم الأمة بلغتها ما يلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية فسعوا إلى إقناع الحكومة بجعل التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية باللغة العربية وكان أكثره بالإنكليزية من قبل ثم رأوا أنه إذا لم يكن لهم من أبنائهم من يعلم العلم العالي سبب ارتقاء الأمم لا يكون العلم إلا عقيمًا ناقصًا فأنشأوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية. وهم اليوم ينظمونها لتكون بعد سنين على مثال الجامعات الأوربية تدرس علوم

الجامعات الإفرنجية باللغة العربية وهي أول جامعة من هذا النوع لأمة لا يقل الناطقون بها عن ستين مليونًا من البشر.

نعم إن الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الإصلاح على الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة الهندسة والزراعة وسائر المدارس الأميرية والخصوصية هي التي تتألف منها اليوم طبقات رجال مصر الحديثة ولابد لهذا الأمر من آخر ولمساعيهم الحسنة من نتيجة إذا سلك القوم سبيل التؤدة وطبقوا أعمالهم على قانون العقل الصحيح واستفادوا بتجارب الأمم السالفة وإنصاع العامة للخاصة، ولم يبق المجال للغوغاء وحدهم وبذلك تصبح أسباب القوة المادية والمعنوية في بلادهم على مستوى ما هي عليه عند الأمم الحية حقيقة لا مجازًا.

لا جرم أن المصريين بما فيهم من الذكاء وما ورثوه من حضارتهم القديمة وتيسر لهم من الرقي المادي هم بمجموعهم أرقى من مجموع الشرقيين خل عنك اليابانيين وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العالمين والباحثين من ليسوا دون أبناء طبقتهم في الغرب وربما فاق الأتراك المصريين في الأمور السياسية والحربية.

ولا يعاب على مصر إلا فتور همة أبنائها في منتصف الطريق في الأغلب، وهذا الخلق يكاد يكون عامًا في القطر لا يقوى في التغلب عليه إلا التربية العملية وحبذا يوم نرى فيه مصر تقبل على تعلم العلوم الطبيعية والكيمياء والميكانيك والمعادن إقبالها على تعلم الحقوق مثلًا فقد نرى من ناشئتهم زهاء خمسمائة طالب في كليات أوربا وأميركا والقسم الأعظم منهم يدرسون الحقوق ليترشحوا منها إلى الوظائف لأنه وقر في النفوس إن فن المحاماة أكثر عائدة على صاحبه من غيره من الفنون

خصوصًا وهو متوقف بعد العلم النظري على طلاقة لسان وفضل بيان والمصريون أكثر العرب حظًّا من تينك المزيتين.

أصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من أوربا كما قال الخديوي إسماعيل ولكن أحبابها يريدون لها أن تكون كأوربا في صفاتها العالية وحضارتها الراقية حتى لا تخرج أملاكها بطيش الطائشين من أبنائها إلى أيدي الغريب فيعود المصري بعد بضع سنين والعياذ بالله كالغريب في بلده وما أصعبها من حالة.

إن مسألة الراية التي تخفق على أمة لا تهم بقدر ما تهم في الحقيقة مسألة الأملاك إذ إنه مهما بلغ من حيف أمة فاتحة أو مستعمرة لا تحدثها نفسها أن تنزع من المالك ملكه إلا برضاه. ومصر التي تتأذى اليوم بوطأة الرومي والطلياني والإنكليزي وغيره لا تنتقل بعض أملاكها منها إلا برضا أولئك الوارثين والمسرفين الذين لا يعرفون دخلهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم هذه هي الفئة الضالة المصلة في هذا القطر المحبوب ومنها يخشى على مستقبله فبقلة عقول المستهترين أصبحت نحو تسعة أعشار الأطيان والأملاك في مصر للغرباء وعليها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون منها نحو مئة مليون دين الحكومة ولا نعرف متى توفيه والباقي على عنق الفلاح الصغير والمزارع الكبير.

إن ما نخشاه على مصر هو الإسراف الزائد وتقليد الغربي على العمياء ولو كان لأهل وادي النيل شيء من الإمساك المحمود والاقتصاد المعقول لكانت حال مصر السعيدة أرقى مما هي اليوم ومن حاز الثروة وقانون الحكمة يدبرها والحنكة فائدها ورائدها وانتظر الفرص التي لا تزال الدهر يخبأوها للأفراد كما لا يبخل بها على الأمم لابد أن يتمتع يومًا بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل أمة حية في هذا الوجود.

مرسيليا
٧

في السابعة الرابعة بعد الظهر أقلعت بنا من الإسكندرية الباخرة إيكواتور (خط الاستواء) إحدى بواخر شركة الميساجري ماريتيم الفرنسوية فبلغنا ثغر مرسيليا أكبر موانى فرنسا على البحر المتوسط والمحيط والمانش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر ولم نر في طريقنا شيئًا يستحق الذكر سوى بعض سواحل إيطاليا وفرنسا وقد تجلت عن بعد وكان نظرنا يختلف إليها بقدر بعدنا أو قربنا منها ودام البحر رهوًا حتى إذا خرجنا من مضيق مسينا أصبحنا وأصبحت سفينتنا على كبرها وطولها وعرضها ألعوبة العواصف والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب في درجات السفينة الأربع إلا وقد أخذه الدوار أو كاد ولم نملك حواسنا إلا عند بلوغنا ساحل السلامة.

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصانًا ومحمولها ٣٨٤٨ طنًّا وتقطع في الساعة اثني عشر ميلًا وهي إحدى بواخر الشركة التي تغدو وتروح بين موانى البحر الأبيض والبحر الأسود والبحر الأحمر وبحر الأدرياتيك ولهذه الشركة التي جعلت رأس مالها خمسة وأربعين مليون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الأولين في الأغلب. ومن موانينا التي تقف عليها بواخر الميساجري ماريتيم خابيا وسلانيك والآستانة وجناق قلعة وأزمير ومدانيا وفاتى ولارنكا ومرسين والإسكندرونة واللاذقية وطرابلس الشام وبيروت ويافا وحيفا ورودس والإسكندرية وطرابلس الغرب وصمصون وطربزون وبور سعيد والسويس ولولا أمثال هذه البواخر الفرنسوية والنمسوية والروسية والإيطالية والإنكليزية والألمانية والرومانية لما بقيت لنا تجارة تصدر من

بلادنا وترد إليها ولتعذر التنقل إلا في السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمير أو في المركبات وبعض القطارات القليلة التي تربط أجزاء مملكتنا بعضها ببعض.

ولشركة الميساجري أيضًا اثنتان وعشرون باخرة تمخر العباب إلى الهند الصينية وتوابعها وخمس بواخر لخط الكوشنشين وست بواخر لخط أوستراليا وكليدونيا [1] الجديدة وخمس بواخر في المحيط الأطلانطيكي (الظلمات) وسبع اختصت بالبحر المحيط الهندي وذلك ما عدا السفن الصغرى التي جعلتها في بعض الموانى الكبرى وأشغال الشركة متوسطة مع أن حكومة فرنسا تدفع إليها إعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق و الغرب وخدمة الجمهورية فيما يلزمها.

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب أن البواخر الألمانية والإنكليزية والطليانية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسوية وأن الراكب يجد راحته في تلك أكثر من هذه مع أن الأجور واحدة. ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها إلى تخفيض الأجور في الصيف إلى نحو النصف لركاب الدرجة الأولى والثانية والثالثة. وأخذت تحسم خمسين في المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان

(١) لما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب تناولتها أقلام العلماء والأدباء بالتقريظ والنقد فنحن نشكر المقرظين ونزيد في الشكر لحضرات الناقدين أما العلامة الدكتور يعقوب صروف في مجلة المقتطف والأستاذ الأب لويس شيحو في مجلة المشرق والمستشرق المسيو كلمان هوار في المجلة الآسياوية Journal Asialque والمستشرق لوثر ماسيون في مجلة العالم الإسلامي Revue du Moude Musalam فإنهم أمله لما أوحي به علمهم الواسع فاستفدنا منه ووضعناه في المكان اللائق به من هذه الطبعة الثانية جزاهم الله عن التحقيق خيرًا.

القيمة المقررة. فإذا كانوا أربعة فأكثر تحسم للرابع فما بعده خمسة وسبعين في المئة. ولذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال أجوره.

ومن التسهيلات التي قامت بها هذه الشركة أن اتفقت مع شركات البواخر الإنكليزية والأميركية وشركات السكك الحديدية على أن تنقل الركاب إلى المواني التي تختلف إليها البواخر. وتلك الشركات تنقلهم على بواخرها بحيث يطوفون العالم ويجتازون من نصف الكرة الغربية إلى النصف الشرقي والأجرة في ذلك معتدلة فيسلك الراكب إن أحب أحد الطرق التي يجتازها في قطع البحور والبرور فالطريق الأولى عن مواني الصين واليابان وكندا مارًّا بفانكوفر وهو ويكلف في الدرجة الأولى أيضًا ٣٥٧٥ والطريق الثالثة إلى أوستراليا فمضيق توريس فاليابان ففانكوفر وأجرتها ٤٢٥٧ في الدرجة الأولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الخامسة إلى أوستراليا ومضيق توريس واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٤٢٥٧ فرنكا في الأولى فيركب الراكب من مرسيليا إلى هونغ كونغ على بواخر شركة الميساجري عن طريق السويس وجيبوتي أو عدن وكولومبو وسنغافور وسايغون ومن هونغ كونغ إلى شنغاي إلى كوبي فيوكوهاما على بواخر الشركة أو على بواخر شركة الباسيفيك الكنادية بحسب ما يختار الراكب ومن يوكوهاما إلى فانكوفر على بواخر الشركة الكنادية، ومن هنا يركب القطار إلى كيبك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون أو نيويورك ومن نيويورك إلى ليفربول أو سوسامتون على إحدى البواخر الإنكليزية أو الأميركية أو النمسوية أو من نيويورك إلى الهافر على بواخر التراسلانتيك ومن الهافر بالكسة الحديدية إلى باريز.

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الأرض ولو قال قائل هذا لأحد أجدادنا الأقدمين وذكر له أنني أريد السير للنزهة على

هذه الخطة لنسب إليه الجنون وقال: إن ذلك لن يكون ولكن إذا عرف سر الأسفار في هذه الأعصار يقول: سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار. يفعل ما يشاء ويختار.

وبعد فلم يتسع لي الوقت لأدرس جميع معالم المدنية في مرسيليا لأني لم أصرف فيها إلا ثلاثة أيام قضيت أكثرها في الراحة من وعثاء السفر الذي طال علينا إحدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لما صادفته الباخرة في طريقها من الأنواء ولطارئ طرأ على آلتها في عرض البحر فأصلحتها ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الإسكندرية ومرسيليا في خمسة أيام بلياليها لا تقف قرب اليابسة. ومن البواخر الإنكليزية ما يقطع المسافة بين بورسعيد ومرسيليا في أربعة أيام وهذه البواخر خاصة بالبريد الإنكليزي تنقله من أوستراليا والهند إلى الجزائر البريطانية في خمسة وثلاثين يومًا لا تكاد تستريح في طريقها إلا بقدر ما تحمل زادًا ووقودًا وركابًا والمسافة المعتادة بين أوستراليا وإنكلترا لا تجتازها الشركات المعتادة في أقل من سبعين يومًا.

قامت مرسيليا في منقطع وادي الرون الجميل، فكانت جملة الجمال الفرنسوي بما فيها من الجبال والسهول، وما أحرزته من مجد قديم وغنى حديث وأن محيطها الذي لا تقل مساحته عن مئة كيلو متر مربع لأحلى من العافية في بدن السقيم. أو النضارة في خدود الجواري -كما يقول بديع الزمان- استغفر الله بل كاد يكون أجمل من الحور الذي تقرأوه في عيون المرسيليات الدعج. ولعل جمال العيون في النساء هنا التي فاقت عيون البدويات الرعابيب، انتقلت إليهن من أجدادهن العرب. فقد قال ميشله المؤرخ إن أصل سكان مضايق الرون مختلط كثيرًا ففيه العنصر السلتي واليوناني والعربي وخليط من الطليان والغالب أن سكان جنوبي

أوربا يوصف نساؤهم بدعج العيون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقة العيون وشقرة الشعور.

وإلى اليوم يكثر في مرسيليا الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٥٠ ألفًا من السكان خمسهم من الطليان وبيدهم كثير من الصناعات والمعامل وهم عشر الأجانب في فرنسا وكان في مقاطعة مرسيليا سنة ١٩٠٦: ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٢٣٥٠٠ أجانب وفيها ٨١٧ مدرسة وفي مقاطعتها ٧١٧ كليو مترًا من الخطوط الحديدية و١٦٣ كيلو مترًا من الترام و٢٨٤ من الطرق الأهلية و٣٦٨٣ كيلو مترًا من طرق العجلات الموصلة بين أقاليمها.

وأهم صناعتها عمل الأقمشة وتحضير الأطعمة والمأكولات وصنع القرميد والصابون خل عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لا تختلف في الرقي عن زراعة عامة البلاد الفرنسوية وفيها دور صناعة للأساطيل والبواخر التجارية ولا سيما دار صناعة الميساجري ماريتيم.

قال من كتبوا عن مرسيليا من المؤرخين إن تاريخها من أقدم التواريخ وهي أول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد إنشائها إلى القرن السادس قبل المسيح وفي مقاطعتها اليوم ٤٩ ألف منزل منقسمة بين ألفي شارع وطريق ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة الملكية الثانية ومن أحسن منتزهاتها الكورنيش الذي انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التي دخلت مرفأها البالغ سطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧: ١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ ألفًا وقدروا ما يدخل إليها ويخرج منها في اليوم بسبعة وأربعين باخرة وبارجة وناهيك به من عدد.

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجلة وجريدة البتي مارسيلية (المرسيلي الصغير) أوسعها انتشارًا تطبع ١٨٠ ألفًا كل يوم وهو في حجم

الماتين والأيكودي باري كما يطبع البتي باريزيان (الباريزي الصغير) الذي يصدر في باريز مليونًا ومائتي ألف نسخة في اليوم والثاني أكثر جرائد فرنسا انتشارًا. فكأن لهذه الأسماء الصغيرة من حسن التوفيق ما لا يحالف الأعمال التي تبدأ بالألقاب الضخمة والأسماء الفخمة.

زرت إدارة البتي مارسيليه فرأيت النظام مستحكمًا في كل ما يتعلق بها وهي اليوم في السنة الثالثة والأربعين من عمرها وأقدم منها بل أقدم جرائد مرسيليا (الشيمافوردي مارسيل) أنشئت سنة ١٨٢٧ وهي من الجرائد الجدية المعتبرة إلا أنها أقل انتشارًا. وهذه الجريدة تباع في مقاطعة الرون وما إليها مثلًا فلو فرضنا أن ما يطبع من جرائد مرسيليا ومجلاتها يبلغ كل يوم مليوني نسخة لأصاب كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف على أقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التي ترد على مرسيليا وتباع في شوارعها بالألوف أيضًا.

ومن الأسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والإيرانية لا يبلغ بكمينه قدر ما تطبع كل يوم جريدة البتي مارسيليه إحدى جرائد ولايات فرنسا. وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيس وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولا سيما في الأمور العقلية.

ليون
٨

ماذا يصف القلم من مدنية الفرنسيس وكل فرع من فروعها المدهشة لو تعاورته الأقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما

كانت إلا إلى جانب القصور نعم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل وشاهد مدنية فرنسا فقط لحوقل واسترجع. وقال: هذه حضارة ليس لنا في وصفها مطمع ولو أنى المسعودي بقلمه وعلمه لعجز عن الوصف والتسطير ولو جيء بابن بطوطة لآب من رحلته الطويلة لا يحسن إملاء ما رأى وسمع، ولو قام ابن جبير لاعترف بقصور ذرعه وعدم نفاذ طبعه وقال إن هذا إلا حلم وخيال ونحن لا نسجل في رحلتنا إلا ما تقع عليه أبصارنا ويترامى إلى آذاننا وتمسه أيدينا.

وبعد فماذا يصف القلم في ليون أجمالها الطبيعي أم الصناعي، معاملها الحريرية أم مدارسها وكليتها. أم انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها أم غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها. ومخازنها وحوانيتها وتماثيلها وأنصابها، وخطوطها الحديدية والكهربائية. وجسورها الحديدية والحجرية وأرصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها، ونهريها العظيمين الرون وأنسون الذين يقطعانها شطرين، ويزيدان في بهجتها ما تقر به العين.

ماذا نذكر من ليون ثاني مدينة في فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية في كونها عاصمة دين كما هي عاصمة صناعة وعمل. وعلى جسر ليون مر الصليبيون في القرون الوسطى ذاهبين إلى المشرق لإنقاذ البيت المقدس من أيدي المسلمين نعم ماذا نعدد من ليون وبدائع صنع الإنسان فيها وما ضمت من معاهد قديمة وحديثة. ومشاهد بهيجة، وياالله ما أعجب معرض نموذج الأنسجة الذي حوى أربعمائة ألف نموذج. ليس لها نظير في العالم وعرضت على أنظار أهل البلاد والسائحين ينتفعون بالنظر إليها ويستدلون بها على تفنن يد الإنسان في كسوة الأبدان.

لئن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصنوعاتها بسرعة فإن البخار البري عوض عليها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية ففي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية ١٤٠ قطارًا جائية ذاهبة من أنحاء شتَّى ولا سيما من الشمال إلى الجنوب والمسافة بين باريز ومرسيليا ٨٥٠ كيلو مترًا ليس فيها شبر واحد لا أثر للعمران فيه بقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة، وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسيليا ثغرها. والحكومة اليوم شارعة بمد خط حديدي ثالث لتسيير القطارات لأن الخطين الموجودين لا يتأتى أن يجري عليهما في كل بضع دقائق أكثر من قطار واحد مخافة أن يحدث اصطدام بين القطارات وسيكلف الخط الجديد بين باريز ومرسيليا مئات الملايين من الفرنكات وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بضاعة وتأخذ كل جهة حظها من العمران.

لم تقف ليون عند حد الأعمال الصناعية والتجارية والمالية بأن كانت هي التي أسست مصرف الكريدي ليونيه مثلًا من أعظم مصارف العالم بل لها حظ كبير من النهضة العلمية، وأثر راسخ في الحضارة الفرنسوية. وناهيك بكليتها التي تحوي فروع العلم، ولا سيما الطبيعي والحقوق والطب والتجارة يختلف إليها ٢٥٠٠ طالب منهم الأجانب، وفيهم نحو خمسين مصريًّا أكثرهم يدرسون الحقوق وقليل منهم الطب وأقل في التجارة والمصريون حديث عهدهم بنزول ليون للتخريج في كليتها وقد كثر ورودهم عليها بعد أن ترك المسيو لامبر أحد أساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبه، فعينته حكومته في كلية ليون أستاذًا فكان من أثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له أن جذب عشرات منهم للتعلم في كليتها وهو يشرف عليهم إشراف الأب على أولاده. وكانت مصر تعتمد في تنشئة أولادها من قبل على كليات الولايات الفرنسوية، ولا سيما كلية

مونبليه وذلك على عهد الخديوي إسماعيل لأنه كان يعتقد أن أهل مونبليه أقل معاداة للملوك وأبعد الفرنساويين عن التطرف.

قضيت في ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقي محمد لطفي أفندي جمعة الكاتب الخطيب الغيور فرأيت فيها غاية الرقي الاجتماعي والتكافل الإنسائي والذوق الفرنسوي وفي مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيس لما يشاهده السائح فيها من السكون والانقطاع إلى الأعمال الشريفة فلا يسعون كأكثر سكان العواصم في الأغلب للمكاسب الدنيئة أو يرضون بأن يكونوا عالة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزانتها بالتوظف والاستخدام.

وياما أبهج ساحة بللكور يوم الأحد والرجال والنساء والأولاد غادون رائحون فيها لا تقرأ في وجوههم غير الأدب ولا في حركاتهم إلا التربية البيتية العالية. والتشبع بالنظام المدني المعقول، حتى إذا جن الليل يختلف القوم إلى دور التمثيل وأماكن اللهو والطرب وسماع الخطب والمحاضرات وهكذا ليلهم كنهارهم عمل وراحة واستفادة وإفادة أخذوا بحظ وافر من دنياهم ولم ينسوا لعهد آدابهم فليون بلد طيب أمين يسكنه المهذبون العاملون.

ولقد كنت كلما وقع نظري في ليون على شارع عظيم أو بناء جسيم تحدثني النفس بسورية فأقول متى يا ترى يكون فيها مثل ما في ليون على الأقل. ولو أن عمران ليون وحدها وهي إحدى مدن فرنسا وما فيها ما قوة مادية وأدبية وزعت على سورية من عريش مصر إلى الفرات ومن البحر المتوسط إلى أقصى بادية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سورية وهي واسعة جدًّا بمساحتها من حيث عمرانها أرقى مدن المعمور ولكن الرزق

لا يأتي بالتمني والوجود لا ينتفع به إلا من يحسنون استخدام ما فيه من القوى والعناصر.

تحية باريز
٩

سلام عليك مرضعة الحكمة وربيبة الرخاء والنعمة وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية ومحيية المدنية الأصلية في الأقطار الغربية والشرقية ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين وأنى يضرب على أيدي الرؤساء والنبلاء والمالكين، أنت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل أنت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بل تألبهه. فقضيت بالتقدم له على كل شيء في الوجود وبالغت في إكرام رحال العقول من أبنائك.

سلام عليك يا عشيقة الإبداع والاختراع، وسابقة الأقران في مضمار الانتفاع بما حوت الرباع والبقاع. استخدمت القوى المادية فأجدت استخدامها واستثمرت القوى العقلية فأبدعت في استثمارها وأحييت حضارات الأمم السالفة وأنشأت لك حضارة لا يزال يحسدك عليها أسبق الشعوب إلى الترقي مهما تقلبت بك الحال ويجدون في أوضاعك ما ليس يجدونه في أوضاعهم من المرونة والجمال.

سلام عليك يا واضعة حقوق الإنسان، وملقحة الأذهان بالتناغي بحب الأوطان والداعية إلى ثل عروش الجبارين والمخربين أنت لم ترهبك تقاليد أبطال القرون الوسطى، ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها، ولم تعلقي مسائلك على القضاء والقدر، بل أخذت بالأسباب

والمسببات فقتلت من أراد قتلك ووضعت من لم يهمه رفعك، وكنت للناهضين من الناس خير مثال.

سلام عليك يا معهد المعارف والصناعات بما أنشأتيه من مجامعك العلمية، ومدارسك الجامعة والكلية، ومجالسك العامية والخاصية، وجمعياتك ونقاباتك لخدمة المدنيةوالإنسانية، ودور تمثيلك ومعاهد أنسك وسماعك، ومتاحفك وحدائقك ومكاتبك ومعارضك، وكل ما أبدعته أفكار أبنائك وأيديهم. ودل على مجد طريف وتالد، وتاريخ على جبين الدهر خالد.

سلام عليك يا ملقنة الخلق معنى الإخاء والحرية والمساواة، ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع، حتى لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات، بين المختلفين في الموالد والديانات، وقطعت التفاضل إلا بالأعمال الصالحة والأحلام الراجحة.

سلام عليك يا متشبعة بأفكار الحكماء ارتضيتيها منهم قانونًا تجرين عليه لسعادتك، ولئن حاد بعض أبنائك بعض الشيء عنها، فذلك لأن سياسة المنافع والمصالح، قد تخالف ناموس الحق والعمل الصالح. ولأن نظام بقاء الأنسب لا قلب له، والتنازع في جهاد الحياة كثيرًا ما يدعو الإنسان إلى ركوب ما تحظره الشرائع الوضعية والسماوية ولا سيما في هذه العصور التي يفصل فيها كل عمل على قالب الماديات، وما ذلك إلا ليقر البشر بعجزهم ويعلموا أن الكمال الآن محال ولعله لا يفوتهم في مستقبل القرون والأجيال.

السلام على هذه العاصمة التي أحسنت إلى الشرق فيما مضى فعلمته حتى استمد منها النور. فإن قلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الأقرب أنا نأخذ عن المدنية الغربية، فإنما نعني المدنية الفرنسوية. وبعبارة

أصح المدنية التي تنبعث أشعتها من باريز، ومن طريقها وبلغتها وأسلوبها تيسر لنا أن نستطلع طلع سائر مدنيات الأرض.

سلام عليك علمت وعلّمت فما أحسن العلم والعمل إذا اجتمعا وما أحلى الإخلاص والشعور بالواجب.

سلام عليك سننت للغرب سنة التضامن والتكافل، من العطف على البائسين والمساكين والرفق بالضعفاء والعاجزين. والأخذ بأيدي المقهورين والعاثرين، والانتصار للمظلومين من الآدميين، خصوصًا إذا كانوا من طينة أوربية.

سلام عليك أنت العاصمة التي تركت القصور الفخمة التي عمرت بدماء الأمة مباحة للناس يدخلونها، وكانت بؤرة المظالم والمغارم، ومنبعث الشهوات والأهواء. ولطالما جأرت جوانبها بالدعاء: إلى السماء، من حيف الكبراء أيام كان يوقع أحد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعًا واحدًا يترك من الغد مئة ألف أسرة في هذه البلاد تبيت جائعة عريانة، ليعمر بما يجمع قصرًا له. أو يدفعه لمحبوبته صبرة واحدة، فلما أضناك الظلم والعنت قمت تجعلين من تلك القصور الفاسقة، متاحف عامة، ومن دور الظلم والظلمات، مجالس عدل وعلم ونور.

سلام عليك خلدت أعمال من خلفوا لك هذه المدنية، وأقمت تماثيلهم ونصبهم موقع الاحترام والإعظام، وتوفرت على تكرير أسمائهم على المسامع كل يوم ألوف الألوف من المرات. لتجعليهم مهمازًا لمن يأتي بعدهم من الأبناء والأحفاد.

سلام عليك يا بلد ديكارت وكونت وفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو وهوغو وباسكال ورنان ومئات أضرابهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك. فلم تنس أفضالهم عليك بعد مماتهم.

أنت إن خجلت من ذكرى الحروف الصليبية وديوان التفتيش الديني. ومذبحة القديس برتلماوس ومقتل الفيلسوف فيفاني، وجنون نابليون وغير ذلك من الأعمال البربرية في عصور الظلام فإن سكانك يفاخرون وحق لهم الفخر بأنهم أحفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الأعمال المشكورة في عصور النور ما ينسى الماضي إلا أقله إن الحسنات يذهبن السيئات.

السلام عليك باريز أجمل عواصم العالم. وأغنى البلاد ببدائعها الطبيعية والصناعية، وأجمعها لمرافق الراحة والرفاهية، لست أنت اليوم عاصمة مئة مليون من البشر: أربعون في أرضك وستون في المستعمرات بل أنت بما فيك من المزايا عاصمة معظم الخافقين، لأسباب هنائك وصفائك، ونعيمك ونعمائك. وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق، وسلامة الأبداع، ووفرة العلماء والباحثين والكاتبين والشاعرين والقصصيين فكل شيء في باريز مبذول حتى لتعافه النفوس من أقصى ما يتصور الفكر من الفصيلة إلى آخر ما يجول في خاطر أو يحوم حوله خيال.

فباريز ولأمراء جنة أرضية جمع فيها موحدوها -أستغفر الله- ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

باريز بعد الغروب

١٠

إن فاخرت باريز بمعارضها التي أقامتها في أوقات مختلفة لتلفت إليها الأنظار وتستفيد الفخار والنضار، فإن لها كل ليلة معارض لا تختلف عن السابقة إلا في كون البقعة التي تقوم عليها هذه أوسع مجالًا وأكثر جمالًا.

يصرف الباريزيون أو معظمهم نهارهم في الاستعداد لليلهم. وكثيرون لا يعلمون إلا في الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم، وادخار أحسن ما عندهم لما بعد النفق، فهم لا يجعلون الليل لباسًا والنهار معاشًا كما هي عادة معظم الأمم، بل إن الحركة عندهم تبدأ قبيل الظهر بطيئة ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس وتطلع بدلها شموس وأقمار.

ترى المدينة في النهار عابسة مظلمة على كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة على جانبيها بالأشجار غالبًا وطرقها وأزقتها وساحاتها العامة. وفي هذه الأماكن تشهد مجالي الحسن والإحسان. وما تفننت في إبداعه العوامل، وتلطفت في روائه الأفكار والأنامل.

على تلك الأرصفة تناجي النفس رب النجوى قائلة: اللهم هل خلقت باريز من معدن اللطف والظرف لتكون مثالًا من جنة أرضية فخصصت أهلها بالاستمتاع بنعمة الجمال حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقفته على الباريزيات، وشطر وزعته على سائر بنات حواء.

إن امتاز الفرنسيس بالإبداع في الصناعات فقد امتازوا أيضًا بنضرة الوجوه وإلى باريز تحمل هذه الأمة ولا سيما في فصل الشتاء أفضل ما عندها من مجالي الكمال والجمال. أيام نكون أم هذه القرى مقصد

السائحين والمتجرين. والطالبين والعالمين والسياسيين والخاطبين وتغص دواوينها وإداراتها وتلتئم مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية.

ويزيد الوجوه بهجة في باريزة تفنن القوم في الأزياء وتغاليهم في التبرج والزينة، تغاليًا مهما تقدم عند غيرهم لا يزالون مصدره ومورده وأساتذته وسدنته ومظاهر الأزياء تتجلى في باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات، وفي المركبات والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الأرض وتحتها وفي دور التمثيل ومسارح اللهو والطرب ومحال الفرج والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق ويزيدها فتنة للناظرين ما اعتاده الباريزيات إلا من عصم ربي من إبداء زينتهن لغير المحارم أكثر من إبدائها لبعولتهن وذوي قرباهن، ورنين أصواتهن في الكلام رنينًا تحسبه من مزامير داود وتستطيبه أكثر من تغريد العندليب وهناك الفتنة بعينها، والفتنة أشد من القتل. ونعوذ به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين.

ولعل هذه المجالي في الحرية المفرطة، حملت الكثير من الغرباء على نزول باريز ليشهدوا فيها ما لا يشهدونه في غيرها، وتربح منهم الليرات بالملايين والكرات. عملًا بما قاله أحد ملوك بروسيا وقد قيل له: ليس من اللائق أن تضرب ضريبة على محال الاطمئنان في الشوارع فقال: (الربح لا رائحة له) وأرسلها مثلًا ولذلك يقول الإفرنج أيضًا (الغاية تبرر الواسطة) فما دامت الغاية الكسب فلا بأس من الاحتيال لنيله، ومن أجل هذا تظهر باريز بعد الغروب أقصى الفضيلة وأقصى الرذيلة، والناس معهما وما يختارون.

بعد الغروب تعمر في باريز أندية الخطابة والمحاضرة والعلم، وتلقى فيها من الفوائد ما يبلغ الأذهان عفوًا صفوًا، ويفيض معين البيان، ويبدو

حذق يد الإنسان، ويسعى العالم إلى تعليم الجاهل. في ساعة ما تعب في إحضاره الأيام والأعوام فمائدة الخطب والمحاضرات معروضة، ودروس الفضائل عامة مورودة.

بعد الغروب يعمل معظم الكاتبين كتبهم، والشاعرين أشعارهم، والمؤلفين مؤلفاتهم، والمخترعين اختراعاتهم، والصانعين صناعاتهم كأن الأفكار لا تنطلق من عقالها، والأيدي لا تحذق أعمالها، إلا عند ما ترفد عيون البشر أو كأن الزهرة ربة الجمال، لا تحب أن تملي على من هم أحوج الناس إلى طلعتها، إلا من الليل ككوكب الزهرة لا يبدو في مطلع الأفلاك إلا مع الدجى، ولذا يحرص أهل باريز أن يجعلوها بعد غروب الشمس، مجمع الأنس وريحانة النفس.

وكأن الباريزيين، وهم العارفون بتقسيم الأعمال عز عليهم أن تمضي ساعة في بلدهم ينقطع فيها العاملون عن أعمالهم، فخصوا النهار ببعض الصناع والتجار. والعملة والعاملات والليل بالمفكرين والمفكرات والمؤنسين والمؤنسات والمغنين والمغنيات والممثلين والممثلات، حتى لا تنقطع حركة ولا يقف دولاب عمل، وكان بذلك الحظ الأوفر للغرباء، فلا يدخل على الغريب ملل من تغير المشاهد، ولا يفتأ من الفجر إلى الفجر إن أحب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتنزه.

يقول الباريزيون: إن بلدهم مبارك على الغريب أكثر منه عليهم، وإنهم مضطرون أن يواصلوا السير بالسرى، ويكدحوا الليل والنهار، ولكن هذا قول من ملك شيئًا فزهد فيه، والروح ترتاح إلى النقل، أما الشرقي الذي يرى أهل باريز ويغبطهم على أكثر ما دبروه لراحتهم ورفاهيتهم، فإنه يعجب لمن يساكنهم زمنًا، كيف ترضى نفسه أن يختار عن باريز بلدًا، كما يعجب لأهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياة أضعاف أضعاف ما

يأسف غيرهم عليها. ومن قال بأن دواعي الراحة تطيل حبال الآجال يستعظم على أهل باريز لم لم يعمروا أكثر من عامة الخلق، وعندهم النعيم المقيم، والخير العميم.

تاريخ عمران باريز
١١

لعل باريز كانت في الأصل إحدى تلك الضياع التي كان الغاليون ينشئونها في جزر الأنهار الكبرى أيام كان يسهل عليهم أن ينشؤا جسورًا يتخذونها مجارًا إلى طرق مهمة وأول ذكر ورد لها ولسكانها في التاريخ كان سنة ٥٣ق.م فدعا القيصر ساكنيها باريزيًّا كما دعا المدينة لوتينبا وضم إليها سنة ٥٣ نواب الأمم الخاضعة.

مضى زمن لم يمتد فيه عمران المدينة خارج الجزيرة الأصلية ثم استفاض عمرانها على الشاطئ الشمالي على عهد الإمبراطور كونستانس كلود الذي أنشأ فيها قصرًا تسمى بقاياه اليوم بقصر الترم و سكن فيه حولين لما نادى به جنده قيصرًا وكانت الجزيرة محاطة بمناريس وفيها قصر تفصل فيه الأمور البلدية ومذبح على اسم جوبيتر أقامه الملاحون الذين كانوا يغدون ويروحون في تجارة نهر السين وفي سنة ٢٥٠ غدت لوتيس مركز أسقفية وعلى ذاك العهد أطلق عليها اسم باريزي وهو اسم الشعب الذي يسكنها وكانت عاصمة بلاده.

فتحت باريز أبوابها للفرنك سنة ٤٩٧ فدخل قصر الترم كلوفيس ثم ماتت القديسة جنفياف حامية باريز ووقف العمران على عهد الأسرة الكارولیجيين بل تراجع فنقل الإمبراطور شارلمان عاصمة ملكه إلى أكس لاشبل وما كان يقيم في باريز إلا نادرًا.

وكانت القرى في شمالي المدينة وجنوبها تؤسس تحت حماية الأديار وكثيرًا ما كانت تخرب بأيدي أشقياء من السكان أو بغارات النور مانديين، وفي سنتي ٨٨٥-٨٨٦ جاء النورمانديون وعددهم ثلاثون ألفًا وعسكروا أمام جزيرة المدينة وحاصروها ثلاثة عشر شهرًا، وبهذا الحصار افتتحت باريز أيام سعادتها وأصبحت كما قالوا رأس فرنسا وقلبها.

وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر امتد عمران هذه القاعدة وأنشئت فيها أديار وبيع ومستشفيات ومدارس وأقيم لها في أيام لويس السادس عمدة ينظر في شؤونها وأمور ضبطها وربطها وبدأ فيها العمران المادي. وعلى عهد فيليب أغسطس وهو أهم دور من أدوار عمران هذه العاصمة كثرت الكنائس الكبرى وأسست الأديار والمدارس ودور المرضى والأسواق والمجاري وأحواض المياه والفساقي والمرافيء وفي سنة ١١٨٥ أخذوا يبلطون شوارع المدينة للمرة الأولى وفي سنة ١٢٠٤ أنشيء قصر اللوفر وبعد ذلك جمعت مدارس باريز وكان عدد طلبتها عشرين ألفًا وجعلت منها مدرسة جامعة أطلق عليه اسم الابنة الكبرى للملوك (اللوربون) وأخذ سكان المدينة ينمون حتى بلغ عددهم سنة ١٣٢٣: ٢٧٥ ألفًا وصرفت العناية منذ زمن شارل الخامس إلى لويس الثالث عشر في تزيين مدينة باريز وتطهيرها وأنشئت فيها فنادق جميلة.

ولقد كانت القرون الوسطى على باريز كما كانت على فرنسا قرون مصائب واضطراب فاستباح الإنكليز سنة ١٤٢٠ حمى باريز وحاولت الفتاة جان دارك على غير طائل أن تطردهم عنها فذهب سعيها عبثًا ومنذ سنة ١٤٠٨ إلى ١٤٢٠ أكثر الأرمنياكيون والبورغونيون من ذبح سكان باريز التي احتلها الإنكليز من سنة ١٤٢٠ إلى ١٤٣٦ وجاء طاعون جارف على الأثر أهلك الكثير من سكانها. ومع هذا لا تزداد عروس الغرب إلا عمرانًا.

وفي سنة ١٥٢٣ وضع الحجر الأول في أساس دائرة المجلس البلدي الذي هو مفخر من مفاخر البناء في هذه العاصمة كما أسس قصر التويلري المشهور على أيام شارل التاسع وعادت باريز فأصبحت ميدانًا لقتل من دانوا بالمذهب البرتستانتي من أهلها وانتشرت الفتن الدينية زمنًا، وأصبح القول الفصل فيها للمتعصبين والجامدين.

وفي خلال ذلك اشتد فيها القحط فأهلك من سكانها ثلاثة عشر ألفًا وكثرت الفتن على الملك وقتل بعض ملوكها وبدأ عهد لويس الثالث عشر بالارتقاء المادي والعقلي فجعلت باريز سنة ١٦٢٢ مقر رئيس أساقفة وكانت أسقفية صغرى وفي سنة ١٦٢٠ أنشئت مطبعة الأمة وسنة ١٦٢٦ أنشئت حديقة النباتات وسنة ١٦٣٥ أسس المجمع العلمي وأنشئت بعض الشوارع والساحات وغرست بالأشجار وكثرت الحارات والأحياء الجديدة واتصل العمران بالقرى المجاورة حتى تضاعفت مساحة المدينة وعلى عهد لويس الرابع عشر أخذوا يضيئون الشوارع بمصابيح يجعلون فيها شموعًا وذلك في الليالي غير القمراء.

ولقد نشط هذا الملك البحث في التاريخ والصناعات والعلوم بإنشاء المجامع الأثرية والصناعات النفيسة والعلوم وبترخيصه للناس أن يختلفوا إلى المكتبة وكانت من قبل خاصة بالملوك فقط. وكان عهد الوزير كولير عهد عمران هذه العاصمة الذي لم يسبق له نظير وزاد سكانها حتى بلغوا نحو ٥٦٠ ألفًا وعلى عهد لويس الخامس عشر، طبعوا أسماء الشوارع على صفائح من توتياء، وجعلوها في رأس كل شارع. واستعاضوا عن مصابيح الشموع القديمة بمصابيح الزيوت.

ولما جاءت ثورة سنة ١٧٨٩ كثر عمران باريز إذ أعقبت تخليص الأراضي من الكنائس والبيع لتنشأ فيها الشوارع والجادات وكثرت الأبنية

العامة والخاصة والمعاهد العلمية والصناعية والحدائق العامة والمدارس الكبرى ولئن كان من الثورات التي حدثت بعد ولا سيما فتنة سنة ١٨٤٨ ما نشأ عنه بعض الأضرار على العمران إلا أن الهمم كانت أعظم للتعمير منها للتخريب وقد جاء عشرون ألفًا من الألمان واحتلوا سنة ١٨٧١ بعض أحياء المدينة عقيب الحرب التي فشل فيها الفرنسيس في موقعة سدان وعاد الألمان من حيث أتوا بعد ثلاثة أيام.

وكان عهد عصابات الكومون بعد ذلك من أشأم أيام الخراب على عمران باريز فتقوض بها ٢٣٨ دارًا خاصة وعامة وقتل سبعة آلاف جندي وقتل وجرح خمسمائة ضابط وقدرت الخسائر بثمانمائة وستين مليونًا من الفرنكات وكثر بعد ذلك العمران باستتباب أسباب الراحة وكان من المعارض الخمسة التي أقامتها باريز ولا سيما معرض سنة ١٨٨٩ الذي أقيم تذكارًا لمرور مئة سنة على الثورة الفرنسوية الأولى أعظم مظهر من مظاهر الصناعة عند الفرنسيس وأول دليل على ارتقائهم التدريجي الذي لم يقف قط عن الجري.

إجماليات في عمران باريز
١٢

باريز واقعة في الدرجة ٤٨ و٥٠ و٤٩ من العرض يشقها نهر السين إلى قسمين غير متساويين من الشرق والجنوب الشرقي ويتحللها في وسطها عدة آكام وجبال مهدتها حتى غدت كأنها بعض أجزائها منها مايبلغ ارتفاعه ١٠١ متر ومنها ١٢٨ ومنها ١٣٦ ومنها أقل من ذلك. وتبلغ مساحتها ٧٨٠٢ هيكتار ومحيطها ٣٦ كيلو مترًا.

وطولها من الشرق إلى الغرب نحو ١٢ كيلو مترًا وعرضها من الشمال إلى الجنوب نحو تسعة كيلو مترات وطول طرقها العامة ٨٨٨٠٠٠ متر فيكون مجموع مساحتها السطحية ١٥٣٢ هكتارًا ولها ٧٠ بابًا أو منفذًا منها ٥٧ بابًا و٩ طرق للسكة الحديدية وطريقان لمجرى السين وطريقان لترعة سان ديني واورك وعدد سكانها بحسب الإحصاء الأخير ٢٧٦٣٣٩٣ وباريز بالنسبة لحجمها أكثر المدن ازدحامًا إذا قيست بالمدن الأوربية ومعدل الزواج فيها كل سنة ٢٥ ألفًا والولادات ٦٥٠٠٠ والوفيات ٥٠٠٠٠.

وتقسم من حيث أمورها الإدارية إلى عشرين قسمًا لكل واحد منها عمدة وثلاثة أو خمسة مساعدون ولباريز ٢٣٤٥ زقاقًا و٨٢ جادة كبرى و١١٥ شارعًا و١٦٦ ساحة و٤٠٦ طرق غير نافذة و٤٦٨ ممشى و١٥٤ قرية و٤٩ مصيفًا و٧١ مجرى عامًّا و٤٢ رصيفًا و٣١ جسرًا و٤٨٠٠٠ بيت وتمتد الطرق المغروسة بالأشجار وفيها ٨٧٠٠٠ شجرة على طول ٢٧٠٣٦٣ مترًا وفيها ٨١٠٣ مقاعد لجلوس الناس في الطرق والشوارع والساحات والحدائق.

تضاء باريز في الليل بنحو ٥٢٣١٣ ضوء غاز و١٥٧٥ مصباحًا كهربائيًّا وقوة القوى الكهربائية فيها للشركات الخاصة والعامة في باريز ٢٣٠٠٠٠٠٠ مصباح كل واحد ذو عشر شمعات ويجري ماء الشفة إلى مدينة باريز في قساطل من عدة ينابيع صافية نافعة خلافًا لما يدعيه بعض المتجرين بالخمور من أن ماءها مضر بالصحة حتى ينفقوا خمورهم ومعدل ما يجري منه إليها ٣١٠٠٠٠٠ متر مكعب يأتي إلى ٨٤ ألف محل من البيوت الخاصة و٧٤٣٣ مضخة للحريق و١١١٦٩٥ محلًّا لشرب المارة ويجري إليها ماء للاستعمال غير صالح للشرب وهو للصناعات وغيرها يجري في ٦٤٦٠٠ آلة عامة.

في باريز ١٦٠٠٠ عربة بالخيل وأكثرها بحصان واحد والمركبة ذات الحصانين هي في الأكثر عربات خاصة بالأعيان وأرباب الفنادق وفيها ١٣٠٠٠ أوتومبيل كبير تنقل زهاء ٣٠ مليونًا من الناس في السنة و١١٩ خطًّا من خطوط الحوافل (أومنيبوس) والترامواي وفيها ٢٥٠ عجلة أومنيبوس و١٩٠٠ مركبة كهربائية تنقل في السنة ما لا يقل عن ٣٠٠ مليون راكب وعشرة آلاف مركبة خاصة و١٢٠٠٠ سيارة (أوتومبيل) وقد كان في فرنسا في السنة الماضية ٤٤٧٦٧ أوتومبيلا و٤٠٠٠٠ مركبة نقل ولا تدخل فيها الكمبونات وفي باريز ١٦٠ ألفًا من الدراجات و١٠٦ مراكب نهرية تحمل نحو ٢٣ مليون راكب في السنة وسككها الحديدية المحدقة بها تحمل ٣١ مليونًا ويركب من الست محطات الكبرى فيها زهاء ٧٧ مليون راكب ومثلهم يأتون إليها.

ويلزم لباريز في السنة ٢٩٢ مليون كيلو من الخبز و١٥٩ مليون كيلو من اللحم و٣٦ مليون كيلو من السمك و٦٦٩ مليون بيضة و٣١ مليون كيلو من الطير والصيد و٦ ملايين هكنو لتر من الخمور و٦٩٢٠٠٠ من الجعة و١٢٠٠٠٠ هكتو لتر من سائر المشروبات الروحية.

وفيها ٣٠ ألف فندق وحانة وقهوة ومطعم يعيش منها مئة ألف نسمة ولتجارة الأطعمة ٢٤٥٠٠ محل يعيش منها ٩٠ ألف شخص ولتجارة الفرش والأثاث ٣٢٠٠ محل وعدد البيوت والمخازن التي تبيع الأمتعة والثياب والأزياء ٩٥٠٠ محل فيها ٧٢ ألف عامل وعاملة وعدد محال الأطعمة ومعاملها ٧٥ ألفًا فيها ٤٣ ألف مستخدم وخمسمائة ألف عامل وعاملة فيكون مجموعة من يعيشون من هذه المحال نحو مليون نسمة.

وأكبر وسائط النقل وأسرعها في مدينة باريز السكة الحديدية الكهربائية تحت الأرض التي يسمونها المتروبولينين وهي تدل على عظمة

العقل وآخر ما وصل إليه الإنسان من التفنن وليس لهذا الخط نظير في سعته وجدته في برلين ولافي لندرا افتتح الخط الأول منه سنة ١٩٠٠ وله الآن ستة خطوط منها ما طوله عشرة كيلو مترات ومنها أكثر وأقل إلى السبعة عشر كيلو مترًا يربط أجزاء المدينة بعضها ببعض وينقل الراكب إن أحب من فرع إلى فرع آخر بدون زيادة أجرة وقد تم الخط الرابع منه هذه الآونة وهو يسير تحت نهر السين ويكلف كل كيلو متر من هذا الخط ثلاثة ملايين فرنك وهو سريع نظيف رخيص يدفع الراكب في الدرجة الأولى ٢٥ سنتيما وفي الدرجة الثانية ١٥ وقد نقلت هذه السكة الحديدية سنة ١٩٠٩: ٢٥٤٤٥٩٩٢٠ راكبا وكان عدد من أقلتهم في السنة التي قبلها ٢٢٩,٧٠٠,٥١٩ وكانت أرباحها سنة ١٩٠٨ نحو أربعين مليار فرنك فأصبحت في السنة التالية زهاء أربعة وأربعين مليارًا وهم يعملون أبدًا على تهوينه على طريقه لا نخلبه من الهواء النقي ويذرون فيه المواد المضادة للتعفن وقد يتأذى بالركوب فيه بعض ضعاف المزاج ولكن ذلك من كثرة الازدحام فيه لا من شيء آخر.

علم المشرقيات

١٣

لا يتأتى لغريب عن أمة أن يعرفها حق المعرفة إلا إذا درس لغتها وتاريخها وآدابها. واللغة مفتاح باب كل معرفة ومقدمة بين يدي كل عمل. ولذلك كان من الراغبين في درس أحوال الشرق من أهل أوروبا أن يدرسوا لغاته ليحيطوا خبرًا بأهله وكان للغة العربية المقام الأول بين تلك اللغات لأنها لغة أمة ذات حضارة باهرة ودين دان به أهل الأقطار المعتدلة من صميم الشرق. فتوفروا على أحكام العربية وتنافسوا في تعلمها حتى نبغ منهم أناس لم يقلوا في فهم أسرارها عن خلص أبنائها

الذين نشؤا في حجرها وأحكموا ملكة نظمها ونثرها وكان لفرنسا من بين ممالك الغرب يد طولى في هذا المضمار. وكل مملكة من ممالك أوربا وأميركا لا تخلو من أفراد من أهلها أنفسهم يعانون معضلات لغة العرب وينسلون إلى تلقفها من كل حدب.

ولقد دعوا تعلم هذه اللغات وما ينبغي لها علم المشرقيات أو الاستشراق والمشتغلين بها علماء المشرقيات أو المستشرقين وقديمًا كان العارفون من أهل هذا الشأن من الفرنسيس أكثر من غيرهم وقد أصبحوا اليوم وأكثرهم من الألمان. والألمان أمهر الغربيين في النطق باللسان العربي وأكثرهم نبوغًا فيه وعند الألمان من علماء المشرقيات بقدر ما عند الفرنسيس والنمسويين والمجريين والإيطاليين والهولانديين والإنكليز والروس والأسبانيين والبرتقاليين والأميركيين والبلجيكيين كثرة عدد وحسن معرفة ولا عجب فالألمان نبغوا في كل شأن من شؤون الحياة والعلم والصناعة ودرس العربية كان له النصيب الأوفر من عنايتهم.

اشتهرت في فرنسا الجمعية الآسياوية ومدرسة اللغات الشرقية الحية وقد درست أحوالهما وزرتهما غير ما مرة وهاءنذا ألخص للقارئ ما عرفته عن الجمعية الآسياوية بواسطة صديقي المسيو لوسين بوفا أحد الأعضاء العاملين العالمين في الجمعية المشار إليها فقد كتب إلي ما تعريبه: إن فكر تأسيس جمعية علمية تعنى بدراسة الشرق قد جرى البحث فيه منذ أواسط القرن الثامن عشر ولكنه لم يتم إلا بعد زمن طويل. فقد أنشئت الجمعيات الأولى للباحثين في المشرقيات خارج أوربا مثل جمعية العلوم والفنون في باتافيا ١٧٧٨ والجمعية الآسياوية في البنغال ١٧٨٤ والجمعية الآسياوية في بومباي ١٨٠٥ ومنذ ذاك العهد أنشئت في أوربا وأميركا عدة جمعيات للمستشرقين ولكن أقدمها عهدًا الجمعية الآسياوية في باريز أسست سنة ١٨٢٢.

وعلى ذلك العهد رأى جماعة من مستشرقي الفرنسيس أن الحاجة ماسة إلى أن يجتمعوا أو يجمعوا مواد الدروس المختلفة الضرورية لهم وأن يصدروا مجلة تكون لسان حالهم وقائمة أعمالهم. وكان المسيو دي لاستي أنشط هؤلاء العلماء وبفضله أسست الجمعية الآسياوية التي ناب في رئاستها ما يقرب من ثلاثين سنة، وكان الرئيسس إذ ذاك سلفستر دي ساسي أحد أعضاء المجمع العلمي وأستاذ مدرسة فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية وهو أعظم من خدم اللغة العربية في فرنسا وربما كان أعظم مستشرق نبغ ونفع من الفرنسيس وكان من مؤسسي الجمعية أيضًا كوسان دي برسفال وكارسين دي فاسي ورموسا.

فبدأت الجمعية أعمالها لأول تأسيسها بنشر المجلة الآسياوية التي اختصت بالبحث في لغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره ولا تزال إلى اليوم نموذج العلم الراقي وسيدة المجلات الإخصائية في فرنسا.

وأنشأت الجمعية خزانة كتب جمعت فيها كل ما وصلت يدها إليه من الكتب والمخطوطات والرسوم وغيرها مما يفيد العلماء من أعضائها وجمعت أيضًا مجموعات من النقود القديمة والتحف البديعة. ونشرت مصنفات في تاريخ الشرق وأصول لغاته وفلسفته وأديانه وطبعت على نفقتها عدة مصنفات وساعدت كثيرين مساعدات أدبية ومادية على نشر الكتب النافعة وكان نشر المخطوطات وترجمتها من أهم الأعمال التي تعنى بها، وخصت جلساتها في سماع المراسلات والمناقشات العلمية النافعة كما عنيت بمراسلة العلماء الأجانب على الدوام والانتفاع بآرائهم وأعمالهم.

وإذ قد ظهرت منافع الجمعية الآسياوية سنة ١٨٢٨ عادت بعد أن ضعف أمرها بضع سنين إلى مكانتها الأولى ولم تلبث أن قويت عن ذي

قبل وانتشرت كلمتها فرأسها أمثال سلفستر دي ساسي ثم جوبرو ريمو وموهل و كارسان دي ناسي ورنيه ورنان وباربيه دي مينار وسيسار. ومن جملة رؤسائها الثانويين كوسين دي برسفال وبارتملي سان هيلير ودفرني وبوريه دي كورتيل وماسبرو وربنس دوفال وبين أمناء سرها أبيل ريمورا وجايمس ودار مستثير وشافان.

تنقلت الجمعية منذ تأسيسها في عدة أماكن ومنذ سنة ١٨٨٣ اتخذت لها مقرًا في بناء ملاصق للمجمع العلمي وذلك بفضل رئيسها إذ ذاك رنان الفيلسوف المعروف ونالت من الحكومة الفرنسوية عدة معونات رسمية ومنحت الجمعية مكتبة الأمة الكبرى عدة كتب ومخطوطات وغيرها من النفائس. ولا سيما المخطوطات التي أتت بها من الهند والمجموعة التبتية وكتب الديانة البوذية.

وما عدا المجلة الآسياوية التي تصدرها الجمعية في نحو مائتي صفحة كل شهرين ويتألف منها مجلدان كل سنة فقد نشرت على نفقتها ٢١ مصنفًا تتألف من نحو ٤٠ مجلدًا وبعض هذه المصنفات طويلة الذيل مثل مروج الذهب للمسعودي نشرته بنصه العربي وترجمته إلى الفرنساوية وهو في تسع مجلدات، ونشرت رحلة ابن بطوطة في أربع مجلدات وكتاب الماهافاستو في ثلاث مجلدات.

وهذه الجمعية تمنح كل سنة معونات لبعض المؤلفين في الموضوعات العلمية وأعضاؤها اليوم ٢٥٠ عضوًا منهم ٢٦ من الأجانب وهي تبعث بمجلتها إلى نحو مئة جمعية علمية ومدرسة جامعة أو مجلة دورية وإلى ثمانين مكتبة من مكاتب العالم على يد نظارة المعارف الفرنسوية وللمجلة ١٣٠ مشتركًا ليسوا من الداخلين في الجمعية، وقد بلغت وارداتها سنة ١٩٠٨: ٢٥٦٣١ فرنكًا و٦٦ سنتيما . وفي مكتبتها

نحو اثني عشر ألف مجلد من الكتب و١٥٠٠ صفحة و٢٠٠ كتاب مخطوط وفيها مجموعة من النقود القديمة اهـ.

هذا إجمال حال الجمعية الآسياوية وفيها من الأعضاء من لا فائدة منهم ولا رابطة بينهم وبين الغرض الذي ترمي إليه إلا أنهم يؤدون الراتب السنوي المضروب عليهم ويتناولون المجلة مقابل ذلك وكثير منهم لا يعرفون من أحوال الشرق ولغاته وأصول سكانه أكثر مما نعرف نحن عن الصين والتبت.

أما مدرسة اللغات الشرقية الحية وهي التي تقرئ مبادئ اللغات الشرقية وهي مخرج لأعضاء هذه الجمعية وغيرهم ممن يتولون القنصليات والترجمة والسفارة عن حكومتهم في بلاد الشرق فاسمها فيما أرى أكثر من نفعها وما دامت فرنسا تراعي الخواطر في توسيد وظائف التدريس لغير الأكفاء فإن تعليم اللغات الشرقية يبقى صوريًّا لا حقيقيًّا. وهيهات أن ينشأ لفرنسا وهي على هذه الحال أمثال المستشرقين الأول من أبنائها الذين باهت بهم الأمم ما دامت سوق الشفاعات رائجة عندها.

درس من سلانيك
١٤

بينا كنت مأخوذًا بما أشاهده من مظاهر عظمة الأمة الفرنسوية وأقرأ مثالًا مجسمًا من الارتقاء الغربي ولا أفرغ ليلى ولا نهاري من زيارة المعاهد العلمية وحضور الدروس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأغوص في مكاتب باريز ولا سيما مكتبة الأمة ومكتبة السوربون وبينا تكاثرت علي المواد وأنا لا أعرف بأي لسان أعبر ولا بأي قلم أحبر وبينا أنا أفكر في بلادي وما يجب علي أن أكتب لها مما تأثرت به عواطفي

وأخذ بمجامع قلبي حمل إلى البريد من سلانيك كراسة باللغة الإفرنسية من قلم صموئيل سام أفندي ليفي رئيس تحرير جريدة سلانيك الفرنسوية وهي محاضرة ألقاها في نادي الاتحاد الرياضي في ذاك الثغر أواخر الشهر الماضي عقيب عودته مع جماعة العثمانيين الذين ذهبوا لزيارة بلاد النمسا والمجر منذ مدة فرأيت أن ألخصها للقراء ليعلموا أن تأثر العثمانيين واحد عند زيارتهم الديار الأوربية وأن ابن سورية إذا أقامه ما شاهده في غربي أوربا وأقعده بما فيها من آثار العمل والجد فإن ابن مكدونية لاينقص عنه تأثرًا في ما شاهده من أواسط أوربا وشعور ابناء الوطن واحد. قال الكاتب السلانيكي:

في ستة وعشرين يومًا ساح مائتان وخمسون رجلًا من أهالي الآستانة وسلانيك وأزمير وغيرها من مدن الداخلية سياحة كبرى قطعوا فيها ٤٥٠٠ كيلو متر في السكك الحديدية و١٥٠٠ في البواخر والعجلات والسيارات وعلى الأرجل فوقفنا في خمس وعشرين مدينة كبرى وصغرى وزرنا نحنو ١٥٠ دارًا صناعية ومعهدًا علميًا أو مدرسيًا وفنيًا وإداريًا ومتحفًا وغيره وحضرنا مئة دعوة وغيرها أقامتها لنا ١٥ جمعية و٢٥ غرفة تجارة وحكومة النمسا والمجر فلم يبق من تلك الرحلة التي تذكرنا السائحين جول فرن وما بن ريد إلا أن نذكر شيئًا من ذلك الحلم الذي مر علينا في رحلتنا ونتثبت من تلك الأشباح لنحسن الانتفاع بها في مادياتنا وتكون لنا علمًا ودرسًا نافعًا ولقد كانت غايتنا من رحلتنا اقتصادية لندرس دور الصناعات والأوضاع التجارية والمدرسية والإدارية عن أمم ولكن المسائل الاقتصادية والاجتماعية كما قال البارون هلوموتسكي فيما خطبنا به لها مساس كلي بالمسائل السياسية وبينها روابط ولوازم ولا سبيل إلى البحث في الأولى مع إغفال الثانية.

ولقد كنا نقضي بالعجب من كل ما يقع نظرنا عليه حتى كنا نتساءل عمَّا إذا كان ما تقع عليه أنظارنا من مدهش الأعمال هو من صنع أيدي البشر وهم الذين قاموا بهذه العجائب وبحق ما قاله النائب الدكتور رضا توفيق رئيس جماعتنا السائحين عندما غادر النمسا إن أغنى اللغات عاجزة عن بيان الشعور الذي نتأثر به كلنا كما ينبغي لما لقيناه من الحفاوة الخارقة للعادة مدة مقامنا في بلد بلغ هذه الدرجة من الرقي. نعم لقد تجلت لنا بلاد النمسا والمجر مملكة دخل إليها التجديد من كل أطرافها وتناول كل فرع من فروع أعمالها الخاصة والعامة.

وكثيرًا ما اتفق لنا أن زرنا معهدين أو ثلاثة في فرع من فروع الصناعة وفي أقاليم مختلفة فكنا نجد في كل منها ما عدا أساليب العمل التي يقضي بوجودها العلم أعمالًا كمالية تابعة وتحسينات خاصة ومحلية تدل على الإقدام الذاتي وقوة إرادة شخصية وحب في البحث وكلها ظواهر محسوسة لعمل عام ونشوء متواصل كنا نشاهد ذلك في كل الفروع الصناعية والفنية والمدرسية والإنسانية. ولكثرة عنايتنا بالسؤال عن معاهد الإحسان ومعونة العملة تراءى لنا أن النمسا في مقدمة الأمم في هذا الباب ومن ذلك أن ٤٢٠٠ من العملة العاجزين يعيشون في لاينز بالقرب من فينا لا على قدر الكفاية فقط بل يعيشون كما يعيش الملوك وما ننس لا ننس ملجأ المرضى العصبيين في شنهوف وفيه ٣٦٠٠ عامل يعاملون كما لو كانوا في قصور ملكية وهم موزعون على ٦٤ بناية في مسافة من الأرض تتجاوز مساحة مدينة سلانيك وقد صرفت عليها حكومة النمسا السفلى ستين مليون كورون فقط لا غير.

وبينا كان رفقائي في رحلتي يدهشون من زيارة المعامل والمصانع ودور الصناعات على اختلاف أنواعها في بلاد المجر والنمسا وموراقيا وبوهيميا وستيريا وغيرها كان يلفت نظري خاصة منظر اتفقوا على تسميته

باسم مملكة هابسبورغ فإن هذه المملكة هي في الحقيقة رقعة شطرنج فيها غرائب الفسيفساء من العناصر المختلفة والوطنيات غير المتجانسة ولكن هذه الجماعات على اختلاف أصولها، قد اجتمعت ليكون مجموعها مثال جمال ولطف وتنوع وما كانت وحدة هذا المزيج إلا نتيجة نظام الحكومة المركزية وحسن مأتاها وبعد نظرها فرأت أن تترك لكل قوم استقلالًا إداريًا كان غاية الغايات في إبداعه، وبذلك توقت الصدمات الهائلة ولم يحدث حتى الآن ما يكدر صفو الراحة. وهذا الرأي في توسيع سلطة الأقاليم لم يكن منه الوحدة الجوهرية فقط لما فيه من احترام القوميات بل نتج منه ارتقاء خارق للعادة في جميع فروع العمل. وذلك أن كل قطر له من نفسه غنى طبيعي غزير، ورجال نوابغ أذكياء هم خيرة رجاله. فاستطاعوا الانتفاع بما حوت بقاعهم وكان من ذلك أن استمتع كل جماعة بما لهم من الحقوق فنشأت المنافسة بين العناصر المختلفة وأخذت كل واحدة منها تضاعف عنايتها وتكثر من جهادها، فأوجدوا بذلك مجموعة من بدائع الأعمال منوعة الأساليب تمت في عامة فروع الجهاد الإنساني. وكان ذلك من أهم المشاهد وأجملها التي وقع نظرنا عليها في رحلتنا وأحسن معلم لنا معاشر العثمانيين.

تألفت مملكة هابسبورغ من زواج أمراء بعضهم من بعض على حين كانت الانقسامات الداخلية سببًا لضعف تلك المملكة ولطالما طحنتها مطامع جيرانها واعتداؤهم. ولكن لما عزمت الحكومة أن تمنح العناصر المختلفة التي يتكون منها جسم المملكة دستورًا قائمًا على المبادئ الحرة في مراعاة الحق العام الحديث بدأ نهوضها وارتقاؤها إلى الأمام.

فعلى نواب العثمانيين في مجلسنا النيابي أن ينظروا في أمر العناصر العثمانية ويحلوها كما حلتها النمسا والمجر التي كانت في حالة أشبه بحالتنا اليوم منذ نصف قرن فأحسنت حلها على ما يجب فهي سابقتنا في

هذا الباب وما علينا إلا أن نأخذ عنها وبذلك نأمن العثرات ولا نسير على غير هدى.

وهنا ألتفت إلى رفاقي في الرحلة الذين دخل عليهم اليأس من ارتقائنا مما شاهدوه من الشوط البعيد الذي قطعه جيراننا فأقول لهم إن ما شاهدناه عندهم ليس إلا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وإرادة قوية وأساس راسخ وإذا أحببنا أن نبلغ بأمتنا مبلغهم فما علينا إلا أن نمد نحن يد مساعدتنا للدستور ونستخدم جميع القوى الحية في الأمة وأن تعمل الحكومة عملًا فعالًا لما فيه إنهاض الشعب كما على الشعب أن يعمل لمعاضدة الحكومة الصالحة، وبالجملة أن يعمل كلاهما بل يعمل الكل للواحد والواحد للكل ويعرف كل الواجب عليه ونكران النفس والمفاداة.

نهوض العثمانيين موقوف على التعليم ولا ننجح إلا إذا حذونا على الأقل حذو البلاد التي كانت تابعة لنا بالأمس كممالك البلقان مثلًا وأرسلنا من شبابنا من يتعلمون العلوم الكاملة في كليات الغرب، فمن أعظم نجاح تلك الإمارات أنها ما زالت منذ زهاء ربع قرن ترسل بشبانها إلى كليات العلم حتى لا تكاد تدخل كلية في أوربا إلا وتجد منهم كثيرين وهؤلاء هم الذين استلموا زمام الأعمال في بلادهم ونفخوا فيها من أرواحهم ولسنا نضطر إلى الأجانب لتعليم أولادنا في بلادهم بل يجب أن نجلب رجال الصناعات والعلم منهم يؤسسون في بلادنا مدارس ودور صناعات كما نحن في حاجة إلى رؤوس أموال الأجانب لاستخدامها في أعمالنا ومشاريعنا وأن تكون في سياستنا الاقتصادية كما قال أرنست لافيس المؤرخ الفرنسوي في تعريف السياسة أنها علم خديعة غيرك من الناس، وأنت تظهر بأنك تحملهم على الاعتقاد بأننا لم ندرك بأنهم خدعونا أو أنهم يحاولون خداعنا.

دار معونة العلماء
١٥

هي الدار التي أنشأتها الآنسة دوسن شقيقة العقيلة تير امرأة تير العالم المؤرخ أول رئيس للجمهورية الثالثة فقد نفع هذا الرجل فرنسا بحياته فأحبت امرأته أن تخلد ذكره بعد مماته فأوصت بمال يصرف على تأسيس دار تؤوي خمسة عشر رجلًا من شبان العلماء يكفون فيها مؤونة الحياة المادية ويتفرغون للبحث والدرس ليكونوا صلة بين الكليات التي تخرجوا فيها والمجامع العلمية التي يراد إجلاسهم في قاعاتها. ماتت العقيلة تير على حين فجأة فنفذت وصيتها شقيقتها ووقفت مالًا بلغ ريعه مئة وخمسين ألف فرنك.

إن من يزور هذه الدار المباركة ويطلع على أعمالها ورجالها يوقن كل الإيقان بالمثل الإفرنجي القائل بأن (فرنسا تخترع وألمانيا تعمل) الفرنسيس يبتكرون في كل شيء، وهذه الدار هي من مبتكراتهم وما أظن لها مثيلًا عند الألمان والإنكليز والأميركان سادة العالم في العلم وقادة الإبداع والاختراع.

زرت هذه الدار مرتين وتشرفت بالتعرف إلى مديرها أحد كبار فلاسفة فرنسا وعلمائهم المعاصرين المسيو أميل بوترو- ومشاهير الفلاسفة المعاصرين من الفرنسيس اليوم هم بوترو وفوليه وريبو وبرجسون. ولم أتمن في حياتي أن أكون فرنسوي الأصل والجنس إلا لما رأيت هذه الدار وعلمت أنها لا تقبل في حجرها إلا الفرنسويين، تمنيت أن أعيش فيها المدة المحددة لكل طالب اتفرغ لدرس أبحاث تجول في الصدر ويعوق الزمان والمكان الآن عن إتمامها.

هذه الدار سميت باسم تير La Fondation Chiers والأولى أن تسمى دار معونة العلماء لأنها ليست مدرسة كالمدارس ولا كلية كالكليات ولا مدرسة إكليريكية كالمدارس الدينية بل هي دار يقبل فيها كل سنة خمسة [١] من شبان العلماء من نابغي الكليات يحملون شهادة (الليسانس) أو (الدكتوراه) في الآداب أو العلوم أو ممن نالوا جائزة من جوائز المجمع العلمي في الأبحاث التي تجري فيها المسابقة بين أرباب الأفكار والأقلام تحت نظارة المجامع العلمية الخمسة في باريز فيقضون ثلاث سنين في هذا المعهد ينصرفون فيها إلى الفن الذي يريدون الإخصاء فيه فيبحثون بأنفسهم لأنفسهم تحت رعاية مدير المعهد فيلسوف فرنسا المسيو أميل بوترو الذي يعيش وإياهم في المعهد كما يعيش الأب مع بنيه ويمدهم بآرائه ويهديهم إلى أقرب الطرق للانتفاع بمعارفهم، ووضع مؤلف أو مؤلفات نافعة في الفنون التي هي أحب من غيرها إلى قلوبهم ولا ينشرونها إلا إذا نظرهو فيها وأقرهم عليها، وأي عالم لا يحب أن ينتفع في عمله برأي عالم كالمسيو بوترو بلغ السبعين أو كاد من عمره وهو يفني لياليه وأيامه في العلم والفلسفة.

يشترط فيما يدخل دار معونة العلماء أن يكون ممتازًا بعقله وأخلاقه ويفضل من يرتضي أساتذته أخلاقه ونبوغه. ويشهدون فيه شهادة حسنة. وأن يكون دون السادسة والعشرين من عمره غير متزوج. وقد قضى الخدمة العسكرية، ويعطيه المعهد ستين ليرة في السنة لنفقته الخاصة، وثلاثين ليرة ليسيح بها سياحة علمية وتعطيه غرفتين فسيحتين فيهما أسباب الراحة والرفاهية إحداهما لنومه والثانية لعمله بحيث يكون الشبان العلماء الخمسة عشر وهو عدد الموجود منهم في المعهد أبدًا موسعًا

(١) اعتمدنا في هذه المقالة على ما كتبه المسيو اميل بوترو بشأن معهد تبر العلمي في مجلة الأفكار الحديثة والمجلة الدولية الألمانية وغيرهما من الفهارس والقوائم.

عليهم لا يطلب منهم إلا أن يؤلفوا ويبحثوا أبحاثًا علمية تنفعهم وتنفع أمتهم وبلادهم ويقسم عدد من كانوا فيها سنة ١٩٠٨ ١٩٠٩ من شبان العلماء إلى رياضيين ومؤرخين ومتشرع في السياسة والاجتماع وعالم في اليونانيات وحقوقيين وفيلسوفين ومؤرخ وموسيقار وعالمين في الجرمانيات ومؤرخ في الآداب الفرنسوية وجغرافي وقد أنشئ هذا المعهد في سنة ١٨٩٣ فيكون عدد من أعانتهم على الإخصاء في العلم حتى الآن ٨٠ عالمًا وكلهم وضعوا المؤلفات الممتعة النافعة للعلم عامة ولبلادهم خاصة وقد بلغت واردات هذا المعهد مئة وخمسين ألف فرنك في السنة يتناول منها المدير عشرة آلاف فرنك.

قام معهد تير العلمي في أجمل حي من أحياء باريز في حي الأشراف والنبلاء بالقرب من غابة بولونيا الغناء غربي مدينة باريز في الحي الذي تؤجر الدار فيه اليوم بثلثمائة ألف فرنك مسانهة وسط حديقة أنيقة تحيط بها الحدائق في مكان يجمع إلى السكون المطلوب للعلماء والمؤلفين ولا يبعد عن سائر أحياء العاصمة وما يلزم لهم من المواد المفرقة في مكاتب باريز المختلفة ودور العلم والمستودعات والمجامع والمتاحف وغيرها بحيث هم بعيدون قريبون عن الحركة العلمية والسياسية والاجتماعية وليس في المعهد مكتبة كبرى لأنها على اتساع مساحتها لا يتسع صدرها لكل ما يلزم المؤلفين فيها من المواد بل فيها فقط كتب الفهارس والمعاجم والمراجعة والأمهات التي لا غنية لكل عالم عنها وما عدا ذلك فمكاتب باريز وعلماؤها ودور سجلاتها ومتاحفها على قيد غلوة من سكان هذه الرحبة الشريفة يأخذون منها ما راقهم كل ساعة.

وليست هذه الوسائط هي كل ما في معهد تير من المعونات لعلمائها بل إن لهم بفضل الشيخ الرئيس مديرهم الحكيم الكبير أهم الأسباب التي تربطهم بعلماء العالم ومجامعه وكلياته فهم كسكان الجنان توفرت لهم

كل الوسائط فلم يبق عليهم إلا أن يقطفوا من ثمار يحبونها كل قريب ودان.

يعيش هؤلاء العلماء عيشة مشتركة فيتناولون طعامهم معًا ويلعبون ويتنزهون معًا ويبحثون عن العلوم التي يمتون بها معًا ويظلون هكذا يعيشون عيشة الأتراب العاملين على ما تعلموا في طفوليتهم في المدارس والكليات ويستفيد بعضهم من بعض في العلوم المختلفة ويعاون بعضهم بعضًا معاونة الإخوان ويترفهون رفاهية لا يتمتع بها إلا عقلاء الأغنياء.

قام هذا المعهد المفيد تحت رعاية العلماء من أهل المجمع العلمي وحققت فيه مؤسستاه العقيلة تير وشقيقتها ما رسمه النظار على ذاك المعهد أمثال جول سيمون ومنيه وبارتلمي سان هيلير فكان تير الذي عد من نوابغ القرن التاسع عشر الذين خدموا بلادهم خدمة تذكر على الدهر فتشكر نافعًا لأمته في حياته بعقله وفي مماته بماله فمتى يصل الشرق يا ترى إلى هذه الدرجة في العقل والإحسان ومتى يكون علماؤه من أهل السعة واليسار إلى هذا الحد ليحسنوا الانتفاع بأموالهم كما أحسنوها بعلومهم.

إن شبان العلماء في هذه الدار بعد أن تعلموا ورأوا العلماء كيف يعملون محتاجون لهضم ما تعلموه أن يعانوا لينشأ منهم أفراد متفردون في العلم فيتحولون بهذه الواسطة من تلامذة إلى أساتذة أكفاء أن يكفوا أنفسهم وأن يوجدوا ويخترعوا وهذا موقوف على أن يستجمعوا قواهم ويتمتعوا بحريتهم وأوقاتهم على ما يشاءون فالعمل كما قال أميل بوترو هو السرور على شرط أن لا يكون صاحبه مستعبدًا فيه لأحد ولا لمؤثر بل يقوم به مدفوعًا فقط بعامل نتائجه الطبيعية وهي الإيجاد والإبداع، وما التربية إلا أن تخرج كل إنسان على ما ينفع فيه، ويتيسر له النبوغ في

فروعه، التربية هي تخريج المرء أولًا في مجموع المبادئ العامة التي هي وقف خلفه لنا أسلافنا بتجاربهم وسموا ذلك العقل ثم تخريجه ثانيًا في أن يكون مخصصا متفردًا في علم واحد يكون فيه على بصيرة على نحو ما يتطلب ذلك العلم الحاضر والمجتمع الحديث ثم ينشأ ثالثًا ممن دخل في هذين الطورين في التربية فيلسوف يدرك قيم الأمور ويعرف الصلات المتبادلة فيما ينصرف إليه العالمون على اختلاف معارفهم ويبحث في أن يوفق توفيقًا حسمًا بين الحياة الخاصة والحياة العامة وكل هذا لا يفهم مغزاه شرقنا التعس الآن.

تآخي الغربيين
١٦

كل فكر ومذهب في الوجود نتيجة الدعوة إليه وتحبيبه إلى النفوس، عرف الغربيون هذه القاعدة فجروا عليها في كثير من أعمالهم وكان من ثمرات الدعوات السياسية والدينية تأليف الوحدة السويسرية والألمانية والأميركية وتوحيد كلمة الجزائر البريطانية وانتشار المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والفوضوية وكثرة من يدينون بالمذاهب البرتستانتية والفلسفية.

وقد قام هذا الشهر في فرنسا جماعة ممن يفكرون لخيرها رأوا أن بلادهم تنتفع كثيرًا من تحسين صلاتها مع أميركا فألفوا جمعية دعوها (جمعية فرنسا أميركا) مؤلفة من علماء وسياسيين وقواد واجتماعيين ومعلمين وفي رأسها المسيو جبرائيل هانوتو أحد أعضاء المجمع العلمي وصاحب التآليف الكثيرة في التاريخ والسياسة ووزير خارجية فرنسا الأسبق، وقد أنشاوا لبث هذه الدعوة مجلة شهرية باسم جمعيتهم تدعو

إلى هذا الغرض استفتحها رئيس الجمعية بمقالة في الغرض الذي يرمون إليه وكتب في المجلة الأسبوعية مقالة طويلة الذيل في هذا الشأن فرأيت أن ألخص للمشارقة لباب هاتين المقالتين دلالة على ما يأتيه المغاربة من الأعمال النافعة لمستقبلهم لننعي على أنفسنا نومنا عن النظر في مستقبلنا.

قال هانوتو- إن النجاح معقود بناصية من يعمل في الوقت اللازم، ولو وجهنا وجهتنا منذ سنة ١٨٦٠ إلى أميركا الشمالية والجنوبية لما احتجنا اليوم إلى دعوة أمتنا لتعريفها بما نعرفها به. هبت علينا الزعازع السياسية والاقتصادية منذ ذاك الحين وإذ قد سكنت الآن وجب علينا أن نعمل عملًا يحمل في مطاويه أحسن الفوائد.

تبدلت الأرض غير الأرض في خمسين سنة حتى صح أن نقول إن قارتي آسيا وإفريقية كأنهما اكتشفتا حديثًا فكثرت مواصلاتهما وحملت إليهما المدنية والحضارة وجرى تعليمهما واستعمارهما وكان لفرنسا من هذا التحول الغريب حصة موفورة، فقد غير دلسبس بتفحه ترعة السويس شكل الأرض كما أن جول فري بموافقته على السياسة الاستعمارية قد حاز لنا قسمًا كافيًا من قسمة الأراضي الجديدة.

وبينا كان الشرق يستدعينا غدا الغرب ينكرنا، ويستغني عنا، فإن مسألة باناما المشئومة التي جاءت بعد مسألة المكسيك قد أثرت في علاقاتنا مع أميركا الشمالية والجنوبية واستغرقت التدابير الأوربية الكبرى التي اضطررنا إلي مجاراتها فكرنا وقوتنا المادية. وانحطت بحريتنا التجارية فضعفت بضعفها أسبابنا في العمل واختفظنا بأساليبنا القديمة التجارية فسبقتنا شعوب أكثر منا فتاء وأكثر مضاء وأقل مطالب.

نعم تقدمنا وتأثلنا ولكننا لم نبرح كما كنا في قوتنا على عهد نابليون على حين كانت أميركا بثروتها وقوتها وعظمتها تتقدم تقدمًا لا يوصف

فقد كان سكان الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠: ٣٦ مليونًا أي ما يقرب من سكان فرنسا على التقريب فأصبحوا سنة ١٨٩٠: ٦٣ مليونًا وها هم يتجاوزون اليوم الثمانين مليونًا. وفي كندا اليوم زهاء ٦ ملايين من السكان وفي الجمهوريات الوسطى والمكسيك ٢٢ مليونًا وأصبحت أميركا الجنوبية ٤٥ مليونًا وكان فيها سنة ١٨٩٠: ٣٥ مليونًا.

وكان مجموع تجارة الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ خمسة مليارات ونصف فرنك فأصبحت اليوم زهاء ١٦ مليارًا وكان مجموع تجارة كندا سنة ١٨٧٨: ٧٥٠٧٩ مليونًا فأصبحت سنة ١٩٠٥-١٩٠٦ مليارين ونصفًا. ومجموع تجارة أميركا الوسطى والمكسيك مليارين ونصف وجمهوريات الجنوب أكثر من أربعة مليارات منها ملياران ونصف للبرازيل ومليار للجمهورية الفضية.

وعلى الجملة فقد بلغ مجموع ما هناك من نفوس ١٦٠ مليونًا من البشر ومجموع التجارة أكثر من ٢٥ مليار فرنك وأحدثت أميركا حركة كبرى في العالم بدخولها مضمار الاتجار فأثرت في فرنسا تأثيرًا غير قليل وكانت هذه إلى ذاك التاريخ قريبة بتجارتها من إنكلترا أي لها المقام الثاني في التجارة فأصبحت اليوم في الدرجة الرابعة بعد إنكلترا والولايات المتحدة وألمانيا. أي أننا فقدنا ما كان لنا من المكانة قديمًا فنحن اليوم نريد أن نستعيد منزلتنا الأولى أو أن نغتنم الوقت الضائع فالمسألة ليست متعذرة ولكن تقتضي لها الإرادة والتفكر والعمل على طريقة منظمة والعودة إلى تقاليدنا والانتفاع من أسبابنا.

أما الولايات المتحدة بما لها من المركز الذي أحاط بطرفي البحرين المحيطين فهي المهمينة على أعمال العالم فإن عدلت الحالة بين اليابان وروسيا فلا يبعد أن يجيء زمن تتداخل فيه في السياسة الأوروبية وإن

الفرنسويين في كندا ليبلغون مليونين ونصفًا ومثل هذا العدد من الفرنسيس منتشر في جمهورية الولايات المتحدة ولا سيما في الجنوب واللغة الفرنسوية في هايتي هي اللغة الرسمية فإذا حسبنا المستعمرات الفرنسوية في كويان وجزائر الأنتيل يصبح عدد الفرنسيس ومن يتكلمون باللغة الفرنسوية من الأميركان ليس بقليل.

وإن ما لنا من الأيادي في أميركا ولا سيما وقد قرن فيها اسم لافاييت الفرنسوي باسم واشنطون الأميركي الذين ساعدا على استقلال الولايات المتحدة وما وضعناه فيها من أموالنا وقمنا به في جمهوريات الجنوب من البعثات العلمية والعسكرية والمشاريع الاقتصادية والمالية كل ذلك يدعونا بلسان الحال إلى أن نصل الحاضر بالغابر وإن لم تكن سلسلة الصلات قد قطعت كل القطع.

والناس مهما تقلبت بهم الحال لا يزالون يذكرون لفرنسا بيض أياديها على المدنية وإذا نسوها فإنهم لا ينسون باريز التي تنشر أنوارها على العالم وإليها يحج الألوف من الأميركيين كل سنة للتنزه والارتياض والاستفادة وكلما كثرت الرفاهية في ديارهم تدعوهم الدواعي إلى نزول باريز وما في أراضي فرنسا من المصايف والضواحي ككوت دازور فإن مجموع الأميركيين الذين يختلفون كل سنة إلى ديارنا لا يقلون عن مليون سائح. فعقد الصلاة بين فرنسا وأميركا فيها كل ما نحتاجه من الأسباب القوية فإن كانت أميركا الشمالية تدعونا إليها بما فيها من القوة والعظمة فأميركا الجنوبية تنادينا إليها القرابة لأن عناصرها لاتينية وتربتها لاتينية فمن كندا إلى مضيق ماجللان مارين بالمكسيك والجمهوريات الوسطى ترى الدم اللاتيني ممزوجًا في شرايين العناصر الجديدة وعلى أميركا الجنوبية يصح إطلاق المثل القائل (هذا دم لا ماء).

ومثل هذه الجمعيات نفعتنا في القارات والأقطار الأخرى فقد كانت جمعية (إفريقية الفرنسوية) أعظم معاون للحكومة في أعمالها الاستعمارية وجمعية (آسيا الفرنسوية) أخذت على عاتقها مثل هذه المهمة (وجمعية مراكش) تعمل على نشر الأفكار الفرنسوية في الغرب الأقصى فنحن بجمعيتنا هذه لا نأخذ إلى أميركا من معارفنا بقدر ما نأخذ عنها. فلا نرمي إلى الدخول فيها ونشر كلمتنا بين أبنائها بل نود أن نعاونها ونحالفها نريد أن نتعلم عليها ونحن أبناء المدنية القديمة درسًا في النشاط والمضاء فإن كان لمدننا القديمة كنائسها وبيعها فللمدن الحديثة معاملها ومصانعها فنحن نقنع بامتصاص التاريخ أما هم فينشقون ارج المستقبل.

قام في واشنطون مثل عملنا هذا يرمي إلى التقرب بين جميع العناصر في العالم الجديد سموه مكتب الجمهوريات الأميركية أنشأته الولايات المتحدة بمعونة الحكومات الأخرى ومنحه المستر كارنجي مبلغًا جسيمًا من المال وهو يفتح قاعات لإلقاء المحاضرات والاجتماع ومكاتب لأخذ المواد والتعليمات وخزانة كتب ومجلات كبرى وينشر مجلة للدعوة إلى هذا الغرض وذلك على صورة رسمية كما أن إسبانيا أنشأت مثل ذلك للتوفيق بين إسبانيا وأميركا وبمثل ذلك قامت البرتقال للتوفيق بينها وبين البرازيل. وفي ألمانيا اتحدت الكليات وأعمال الرجال على جلب أبناء الأميركان وتلقينهم التربية الجرمانية أما شعار جمعيتنا فهو أن نحبب فرنسا إلى نفوس أميركا ونعرفهم بها ونحبب أميركا إلى نفوس الفرنسويين ونعرفهم بها.

ولا بأس هنا بذكر شيء من تلك العظمة الأميركية التي أدهشت العالمين المدني والوحشي. فإن مدائن نيويورك وشيكاغو وسان لوي وسان فرنسيسكو قد امتازت بغناها في زراعتها ومعادنها وصناعتها وأعمالها التجارية الخارقة للعادة فقد كان في الثماني والأربعين ولاية

ومقاطعة كولومبيا والأرض الهندية والأسكا وجزائر هافاي ومنها تتألف الولايات المتحدة ٥٧٣٩٦٨٧ مزرعة سنة ١٩٠٠ ومعدل سعة كل واحدة منها ١٤٦ فدانًا (آكر) وثمنها ٢٠ مليارًا ونصف مليار دولار أي ١٠٦ مليارات من الفرنكات وكان مجموع محاصيل هذه المزارع سنة ١٩٠٨: ٨ مليارات دولار منها ٢٦٦٨ مليون مكيال من الذرة و٦٦٤ من الحنطة و٨٠٧ من القرطمان و٣١ من الجاودار و١٦٦ مليونًا من الشعير و١٣ مليون بالة قطن و٧٠ مليون طن من العلف و٧١٨ مليون ليبرة من التبغ و٢٧٨ مليون مكيال من البطاطا و١٣٥ مليون ليبرة من الصوف النقي.

وكانت مساحة الغابات الأهلية ١٦٨ مليون فدان تغل كل سنة ٦٦٦ مليون دولار دع عنك الصيد في بحار أميركا وأنهارها وهو يباع بعشرات الملايين من الدولارات.

وبلغ سنة ١٩٠٥ مجموعة ما في الولايات المتحدة من المعامل ٢١٦ ألف معمل رأس مالها ١٢٦٨٦ مليون دولار يعمل فيها ٥٤٧٠٠٠٠ يتقاضون أجورًا يبلغ مقدارها ٢٦١١ مليون ريال وتبتاع بثمانية مليارات ونصف من المواد الأولية وتبيع بما قيمته خمسة عشر مليارًا. وفي سنة ١٩٠٨ أعطت الحكومة ١٦٣ ألف رخصة لإنشاء محال وأماكن قيمتها ٥٤٦ مليون ريال.

وبلغ طول الخطوط الحديدية في هذه الولايات سنة ١٩٠٧=٢٣٧ ألف ميل أي ٣٨١ ألف كيلو متر لها ٥٥٣٨٨ قاطرة و٢,١٢٦٠٠ مركبة فيها من المستخدمين ١٦٧٢,٠٠٠ يقبضون ١٠٧٢ مليون دولار مشاهرات وبلغ عدد من نقلتهم تلك الخطوط من الركاب ٨٧٤ مليونًا وثقل البضائع ١٧٩٦ مليون طن وثقل الطنات الألفية (الألف ١٦٠٨ أمتار) ٢٣٦ مليارًا ورأس مال شركات السكك الحديدية ١٦ مليارًا دولار وصافي ريعها

أربعة في المئة. وفيها ما عدا هذه السكك الحديدية ٣٨٨١٢ ميلًا من الخطوط الكهربائية. وبلغت صادرات الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨: ١١٩٤ مليون دولار والواردات ١٨٦٠ ومجموع تجارة أميركا الخارجية ٣٣١٥ مليونًا.

وكل هذه القوة الاقتصادية ليست بشيء لو لم تكن الأخلاق أساس عظمتها الاقتصادية وقد أخذ مقام المفكرين والعالمين يعظم في أميركا كما عظمت منزلة رجال المال والأعمال والصناعة والتجارة. وكثير من سكان المدن يعنون بالموضوعات الأدبية والفنية والعلمية وأصبحت بعض المدن مثل بوسطون التي هي مقر الحركة العقلية منذ زمن طويل ميدان الآداب والعلوم. وإن كثيرًا من الأسر لينزلون مدينة واشنطون عاصمة الولايات المتحدة في سياستها ويعيشون فيها بعيدين عن اضطرابات نيويورك وسان لوي وشيكاغو. وليس للأمير كان مثل فرنسا بلاد يغترفون منها مادة علم ولا يجدون بلدًا مثل فرنسا تتلقاهم بقبول حسن وتوفر الإرادات على حبهم. وفرنسا تتعلم كذلك من نشاط رجالهم فكما أن طلابهم يجدون في بلادنا ما يتعلمونه كذلك أولادنا يستفيدون من تعلمهم في كليات أميركا فينشأون بين شبان يشعرون منذ صغرهم باستقلال الفكر وأنهم حاملون تبعة أعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

لما وصل النقل إلى هذا الحد وقف القلم فذكرت شيئًا من حال الشرق. ذكرت حال العثمانيين والإيرانيين وأنهم وإن كانوا من أمم مختلفة فجامعتهم الكبرى وهي الإسلام لا تقول بجنس ولا عنصر فلو كنا وكانوا على شيء من العلم الحقيقي لما كنا ندعو إلى إنشاء جمعية عثمانية إيرانية كما ينشئ هانوتو اليوم جمعية فرنسوية أميركية.

ولكن ضعف عقول رجالنا ورجالهم وتعصبنا وتعصبهم وجهلنا وجهلهم لا تلبث أن تنفجر براكينها إذ ذاك ويتذرع بعضهم بالسياسة يتوكأون على عكازها لينافروا بين القلوب ويفرقوا بين أبناء الأب الواحد وهناك تدخل الدول ذوات الشأن والغايات في البلادين وينفخن في أبواق الشقاق مستعينات ببعضنا على البعض الآخر. وإن العاقل ليربط على قلبه بيده عندما يفكر في عاقبة سعي الجهلاء لإبقاء سوء التفاهم بين العثماني والعثماني فكيف يتمنى هذه الأمنية البعيدة اليوم من ربط العثماني بالإيراني. فاللهم علمنا علمًا نحسن به التفاهم حتى يتآخى الشرقيون كما يتآخى الغربيون.

محاضرتنا في نهضة العربية ١٧

في باريز ثلاث جمعيات شرقية الأولى جمعية شبان الأتراك العثمانيين والثانية جمعية الجامعة الإسلامية والثالثة جمعية الإخاء المصرية. اتخذت كل جمعية لها ناديًا وأخذت تعمل على ما فيه غايتها وقد كلفتنا جمعية الإخاء المصرية أن نلقي عليها محاضرة في نهضة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرة فألقينا عليهم المحاضرة الآتية في ناديهم في قهوة فولتير أمام دار تمثيل الأوديون:

سادتي الإخوان

سألتموني سعدت بكم أوطانكم أن أحدثكم بطرف من تاريخ نهضة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرى وما منكم إلا من أستفيد منه وأتشرف بالأخذ عنه. أنتم من أهل الفئة الفاضلة في وطنكم يتوقع منكم أن تنيروا آفاق جهله بأنوار معارفكم وأن تعمروا أكناف معالمه ومجاهله بما

ثقفتموه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صحيح وآداب رافعة. فأنى لي وأنا نازل بينكم متعلمًا لا معلمًا أن أفوه في حضرتكم بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مصاقع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء وما حالي وحالكم لو أنصفتكم وأنصفت نفسي إلا حال من يحمل التمر إلى هجر أو المسك إلى أرض الترك أستغفر الله بل إن حال من يلقي محاضرة على جمعية الإخاء المصرية في باريز أعجب وأغرب

إخواني: تعلمون قرت بكم عيون مصر أنه أتت على اللغة العربية أدوار وأطوار وعرض لها ما يعرض لكل كائن في الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وإن أتعس أيام ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة وهو عهد الفتور في جسم الأمة الإسلامية عامة والأمة العربية خاصة. ثلاثة قرون بل أكثر مضت في مرض مستحكم كانت تكفي لموت هذه اللغة الشريفة التي تعقد اليوم على أمثالكم خناصرها وترجو بمساعيكم أن يكون مستقبلها خيرًا من حاضرها وغابرها بيد أن لغة يفرض على زهاء مائتي مليون من المسلمين أن يتعلموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال ما دام في الأرض مسلم يوحد الله.

لابد لكل حركة من سبب. وسبب ما عرا العربية من الضعف في تلك القرون انقطاع الملوك عن الأخذ بيدها فأصبحت الأمور العلمية صورية ينظر فيها إلى الأشكال لا إلى الحقائق واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد وعدوا ما عداها من العلوم فضولًا لا غناء فيه وساعد على انتشار هذا الرأي السخيف ما أصاب البلاد من ضعف الأحكام وفساد النظام ولا علم حيث يفقد الأمن وفي النادر أن يهتم جاهل بتعليم أو يربي من لم يترب.

وكأن قدرة المولى تعلقت بأن هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من أبنائها أن تأتيها الصحة على أيدي غيرهم. وربما يعجب بعضهم الآن إذا قلنا له أن مبدأ نهوض اللغة العربية كان في مصر أيام محمد علي وقد صحت عزيمته على خدمتها مسوقًا بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من أهل العلم من الفرنسيس فكان من أعماله الجليلة ما خلد له الفخر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم لا من حيث منازعه السياسية من أعاجيب الحكام في الشرق. والشرق أبو المعجزات والكرامات.

ليس من يجهل أن محمد علي كان أميًا أو يقرب من درجة الأمية. مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لأنه كان أرناؤديًا ولم يخط سطرًا واحدًا لأنه تعلم في الكهولة مبادئ طفيفة من حسن الخط والقراءة فقط. ومع هذا فقد عني بما لم يعن به أحد من الملوك المتأخرين وشرع منذ استقام له أمر مصر يختار الأذكياء من أبنائها ممن قرءوا الدروس الوسطى فيبعث بهم على نفقة الحكومة إلى أوربا ليخضوا في العلوم التي أولعوا بها حتى إذا عاد أحدهم وأتم تحصيله يحبسه عنده في قلعة الجبل ويخرج له كتابًا بالإفرنجية في الفن الذي أتقنه ويوعز إليه بأن لا يخرج من القلعة قبل أن يترجمه بالعربية ويأمر له بأسباب الراحة والمعينات على الترجمة والتأليف فإذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على أمير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس أو إلى لجنة كانت معروفة إذ ذاك بلجنة الامتحان فبعد أن تنظر فيه ترخص بطبعه في المطبعة الأميرية ويغدق الأمير على المترجم أنواع الهبات ويشرع في ترقيته في المراتب إن كان ممن استعدوا للإدارة أو الجندية أو البحرية وإذا كان من الأساتذة يوسد إليه التدريس في بيوت العلم موسعًا عليه في الرزق ليتخرج به أبناء مصر. وهو عمل يذكرنا بما كان يأتيه المأمون العباسي من الإنعام على

المترجمين ولكن ما يصدر عن المأمون وهو أعلم خليفة في الإسلام لا يستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الأمة بقدر ما يستكثر ما تم على يد محمد علي الأمي الألباني وعصره عصر شيخوخة الإسلام والمسلمين.

قال لي صديقي الدكتور عثمان باشا غالب أحد حسنات مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي أختطها محمد علي لمن يجيء بعده وشاهد تلك الحركات العلمية في إبانها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشهدها الآن في تجددها. لقد ظلت نهضتنا العلمية سائرة أحسن سير إلى سنة ١٨٨٢ فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من أبناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد سيء منه لإحلال اللغة الإنكليزية محل اللغة العربية في المدارس الأميرية زاعمًا بأن الواجب على المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لا يتأتى إلا إذا أتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف في أيامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لأبناء إنكلترا وقطعت الإرساليات العلمية إلى أوربا حتى لم يكد يبقى اليوم من أولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل إذا عادوا إلى منابر التعليم لا يسدون حاجة مصر وأخذت المعارف في عهد المبارك تطهر المدارس بأمثال دنلوب وارتين من كل ما ينفع اللغة أو كان من آثار النهضة الأولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة أكداسًا في مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجل العار على من عقوا لغتهم وأمهم كما عق إخوة يوسف ابن أبيهم على حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التآليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرهما من مصنفاته.

قال غالب باشا كان أكثر أساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضتها الأولى من الفرنسويين المستعربين يكتب الأستاذ درسه

بالفرنسوية والمترجم معه ينقله إلى العربية فيلقي على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الأستاذ بروجر بك الفرنسوي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية إلى خديوي مصر في عهده يقول له في تقريره السنوي إن الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين إذ قد أصبح فيهم الكفاة الآن وإن مهمة فرنسا في تربية أبناء مصر في هذه الفروع العلمية قد انتهت أو كادت.

نعم في ذاك العهد تم للعربية ما تريد من تعريب المصنفات العلمية والأدبية على اختلاف أنواعها وعادت فأضحت لغة علم بعد أن انقطع سد العلوم منها قرونًا وأحيا أولئك المصريون أمثال الطهطاوي والرشيدي والتباسي والههياوي والبحراوي وحماد وبهجت والفلكي وندى والبراوي والبقلي ألفاظًا من لغتنا كانت في حكم الدارس هجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية في بغداد والأموية في قرطبة والفاطمية في مصر وأضافوا إلى تلك الألفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التي سلك عليها أجدادنا المعربون غالبًا حتى إن الأتراك والفرس لما شرعوا يعلمون العلوم في البلاد العثمانية والإيرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا أمامهم كنزًا حاضرًا ينتفع به في الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة في الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وأدمجوها في تضاعيف لغتهم.

كان الطلبة الذين أرسلهم محمد علي إلى التخرج في أوربا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حملة لواء العلم لا في القطر المصري فقط بل في البلاد العربية كافة وأصبحت مصر ببيض

أياديهم من هذه البلاد بمثابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتهز أعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التي ترجمت في فنون مختلفة من الإفرنجية زهاء ألفي مجلد. والأثر الأكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ من ألف وترجم في عهده بما خلفه من قلمه أو عرب في قلم الترجمة برئاسته وما بثه من المبادىء في مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس. وكلها أعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جزيل. خل عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الأثناء ومنها جريدة وادي النيل لأبي السعود ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك.

ورب معترض يقول أي علاقة لتعلم العلوم الجديدة ونقلها إلى العربية بحياة اللغة التي يراد منها آدابها المنثورة والمنظومة ليس إلا والجواب أنه لا أدب لمن خلت لغته من أمثال هذه المعارف فكما أن للعلوم ارتباطًا كليًا بعضها ببعض هكذا للغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها بل إن لغة مهما حوت من أنواع البديع والمعاني والبيان لا تعد من اللغات الحية إن لم تكن لغة علم قبل كل شيء.

وهنا مسألة مهمة لا أحب أن أمر بها وأنا منطلق لأن لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الأدبية وهي أنا إذا تدبرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لا نلبث أن نشبهه من ملوك الإفرنج بالإمبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية وشارلمان كما لا يعزب عن عملكم كان من أعظم ملوك دهره وله صلة بملوك المسلمين وهو الذي أنفذ إليه الرشيد العباسي رسولًا من قبله سنة ٨٠١م يحمل إليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهذا الذي كان يحمي الملتجئين إليه من أمراء المسلمين الهاربين من الخلفاء في قرطبة. كان شارلمان لأول أمره أميًا تعلم الكتابة البسيطة على كبر مثل محمد علي إلا أن تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروسًا فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستنيرين

والمتعلمين الذين كان يستعين بهم على نشر المعارف بما أنشأه من المدارس بإشارة الكوين والمشهور أستاذه وأمين سره وباذر الجراثيم الأولى من المعارف في هذه الأرض الفرنسوية وبمساعيه أنشئت المدارس في أكس لاشبل عاصمة البلاد إذ ذاك وتور واورليان وليون واستنسخت الكتب الوافرة لينتفع بها الطلاب.

ومن العجيب أنه حدث لنهضة شارلمان ما حدث لنهضة محمد علي حذو القذة بالقذة وذلك أنه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ريحها جملة واحدة لأن من خلفوه على سرير الإمبراطورية لم يكونوا على قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولأن الأعمال العظيمة في البلاد المنحطة قد تقوم بالفرد أكثر من قيامها بالأفراد وعلى العكس منها في البلاد الراقية أتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم أو كاد ولم تدب روح التجديد فيها إلا بانتباه عقول الأمة وعلى يد أناس من أبنائها كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تجدد حياة آدابها بيدها بعد محمد علي بنحو خمسين سنة متكلة في مهمتها على نفسها لا على الحكومة وبذلك جار لنا الاستنباط بأن كل إصلاح يقوم بالأمة في هذا الوجود يكون الأمل في بقائه أكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الاستبدادية التي تجد فيها تمييزًا بين الأمة والحكومة. والحكومات قد تعرض لها عوارض تنسى معها الترغيب في العلم ومنها إلى اليوم من يفضل الجهل على العلم. ولهذه المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الأمة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى في برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لا يرجع إلى عقل ولا إلى نقل.

كان الأدب العربي قبل دور النهضة الأخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهان طول بلا طول ولا طائل وجمل باردة سمجة وشعر ركيك أكثره

في الأماديح والأهاجي وإن ارتقى الشاعر انفتق لسانه في وصف الخد والخال وذات النطاق والخلخال من ربات الحجال أو الذكران من الرجال وما أظنكم اعز الله بكم دولة الأدب إلا قد وقع لكم شيء كثير من أمثال هذه الركاكات والسخافات فضربتم بها عرض الحائط وحمدتم الله على أن خلقكم في زمن قام فيه من الكتاب أمثال [١] محمد عبده وعشرات غيرهم لا تحضرني الآن أسماؤهم من شيوخنا وكهولنا وشباننا. وقام من الشعراء محمود سامي وغيرهم ممن هم عمدة العربية في نهضتها الأخيرة عملوا لخيرها في مصر والشام والعراق وتونس أعمالًا وخلف أكثرهم من مآثر فضله ما يطرس المأدبون عليه وينسحون على منواله.

وبينا كانت اللغة العربية تزهر في مصر في الإمارة العلوية عز على الشام أن تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الأفراد والجمعيات وذلك في أواسط القرن الماضي وكانت مدينة بيروت وهي ثغر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها أناس من مرسلي الفرنسيس والأميركان وأنشأوا فيها مدارس جعلوا لغتها الأولى اللغة العربية وأتقنها كثيرون من أهل لبنان فحمد مسعاهم وكانت اليد الطولى في تنشيط لغة قريش للدكتور كرنيليوس فانديك ويوحنا ورتبات وهما من أعظم مؤسسي الكلية الأميركية الإنجيلية في بيروت تعلما العربية وأتقناها وألفا بها التآليف العلمية النافعة والأول أميركي والثاني أرمني ودرسا بها مع أقرانهما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرتهما عليها أن عمدة المدرسة لما عمدت أن تجعل لغة التعليم في الكلية اللغة الإنكليزية بدل العربية قاوما ما وسعتهما المقاومة ولما أخفقا استقالا من

(١) حذفنا في هذه الطبعة ما كنا أثبتناه من أسماء الكتاب والشعراء والخطباء في الطبعة الأولى لحكمة لا تخفى على الناقد.

وظيفتيهما لانهما أبت مروءتهما إلا أن يمحصا النصح للبلاد وللغتها. والدكتور كرنيليوس فانديك لامير كاني في سورية بفضله على اللغة العربية وما عرب لها من كتب العلم أشبه بالشيخ رفاعة الطهطاوي في مصر ووجه العجب في فانديك أعظم لأنه أميركي الجنس والمنشأ غار على لغة العرب أكثر من أهلها ومن الغضاضة على مصر والشام أنهما لم تعرفا لهما حقهما على ما يجب وكان على القطرين أن يرفعا لهما تمثالين كما رفعت باريز لهوغو وروسو أو كما رفعت مصر لمحمد علي وإبراهيم. والعلماء إن لم يكونوا أحق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا أقل من أن يكونوا على مستواهم.

ولقد كان من أعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت على ذاك الدور أيضًا بطرس البستاني وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من أصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الأسير وإبراهيم الأحدب وناصيف اليازجي وأسرته وغيرهم فهؤلاء كلهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في أقطار الشام ومصر وأميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء. ولم تحرم الآستانة - والعواصم مرزوقة منذ خلقها الله- من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبحثه وأعني به أحمد فارس الشدياق الذي اقترح علي صديقي سيد أفندي كامل من رجال الجامعة المصرية أن أتوسع في الكلام عليه.

أصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مسيحية خرج من بلاده مغاضبًا فقضى زمنًا طويلًا في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وإنكلترا وتعلم في خلال ذلك الإنكليزية والإفرنسية ثم دان بالإسلام وألف بعض الكتب ومنها اللفيف في كل معنى طريف طبع في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتبه

في أوربا كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق أو أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠هـ. وضمنه ترجمة حياته وشؤونًا وشحونًا على أسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر أن تعده من الإنشاء المعروف عند الإفرنج بالأمورستيك (الجد في الهزل) أو الريالبست (الحقيقي) الذي حدث في عهد فلوبر أو الناتور اليست (الطبيعي) الذي تم على يد رولا وإنك لتدهش من قدرته فيه على التعبير ورشاقته في التصوير ومتانته في التحرير والتحبير فكأن اللغة التي كان من جملة محفوظات أحمد فارس فيها قاموس الفيروزابادي الذي ألف كتابًا مهمًّا في نقده وسماه الجاسوس على القاموس. كانت نصب عينه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء ويستحضر في دقيقة ما يصعب الإتيان به في ساعة ويتفنن ما شاء بيانه وتبيانه. ولفظ الفارياق مقتطع من أول اسمه (فارس) وآخر اسم أسرته (الشدياق) وقد حمل في كتابه على رؤساء الدين حملة منكرة لأن بعضهم قتلوا أخاه ظلمًا وتعصبًا جعلوه في بناء لهم وبنوا فوقه لأنه دان بالمذهب البرتستانتي[1].

هبط أحمد فارس مدينة الآستانة بعد أن خبر حال أوربا خبرة زائدة وأنشأ جريدة الجوائب التي طار صيتها في الآفاق ورزق الحظوة بعلمه فكان ملوك الأطراف يهادونه ويمنحونه المنائح وممن كان يساعده خديوي مصر وباي تونس وملك بهوبال في الهند حسن صديق خان الذي طبعت له مطبعة الجوائب معظم تآليفه العربية وكان هذا الملك أعلم الملوك المتأخرين بل أشبه بأبي الفداء صاحب حماة في جمعه حكم الناس إلى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب في فهم أسرار الكتاب والسنة.

---

(١) هنا قرئت نموذجات من شعر أحمد فارس ونثره من كتابه الفارياق.

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الإنشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا التي أسست بعدها على نسقها وقل إن نشأت لنا جريدة في صحتها وديباجتها العربية اللهم إلا أن تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصباح الشرق لإبراهيم بك المويلحي والبرهان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لأن جريدته كانت كهاته أسبوعية وله فيها مساعدون في الأقطار كان يهاديهم ويهادي علماء عصره حتى كثر أحبابه من العلماء في شمالي إفريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذي يتولى النظر في كل ما ينشر فينمقه ويزوقه وناهيك بكلام تصقله الأنامل الفارسية فأحمد فارس هذا لو أنصفنا هو واضع أساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من آثاره. ومن أراد أن يطلع على شيء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع إلى كنز الرغائب في منتخبات الجوائب وهو مطبوع متداول وإن أحب الاطلاع على الجوائب برمتها في حجمها ووضعها فليرجع إليها في خزائن الكتب في أوربا ومصر والآستانة.

ولم يقف عمل أحمد فارس عند حد نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب سر الليال ورحلة له إلى أوربا جدية محضة وكتاب نحو اللغة الإنكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الأدب واللغة والشعر ككتب الثعالبي والتوحيدي والطغرائي والبديع وغيرهم من أئمة الادب نشرها على أحسن أسلوب راق في طول البلاد وعرضها بأثمان بخسة فعمت بها الفائدة وأنشأ طلاب الآداب يتحدونها في أسلوبها. وما برحت مطبوعات الجوائب إلى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفع بها الأحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون.

ابتلي أحمد فارس بأناس حسدوه وأي عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره وينقدون جريدته وكتبه ولكن تلك

المناقشات اللغوية الأدبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم يزد فارسنا إلا جرأة على الجري في مضماره وقبولًا بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان بنقده بعض كتاب العربية أشبه بسانت بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسويين فاستفاد أرباب الأقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد ممَّا دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك أخذ من يعانون صناعة القلم يتأنون قليلًا فيما يكتبونه وأخذت تخف أغلاط الكاتبين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلمَّا نقل الناقلون عن اللغات الإفرنجية ونحا المؤلفون مناحي قدماء الكتاب في ترك التكلف والتعسف حتى صح لنا أن نقول اليوم إن أسلوب الكتابة العربية لا ينقص عن اللغات الإفرنجية الراقية بإيجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصرين وأفكارهم.

نعم عادت للغة العربية ولا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة نضرتها الأولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذاك السجع المتكلف الذي أتانا به العماد الكاتب الأصفهاني من فارس- وفارس مورد بدع كثيرة في الإسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب- ونقله إلى العربية فأجاد في أكثره إلا أن ما جاءوا بعده قد أفسدوا به علينا لغتنا لأنهم لم يتقنوه.

وإني لا أزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعي بالأدب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليميني للعتبي ومقامات الزمخشري ومقامات الأصفهاني وقلائد العقيان وذيله مطمح الأنفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الأدب لابن حجة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت أطرب لتلاوتها ولا أكاد أفارقها في خلوتي وجلوتي. ولما كتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسوية والتركية وأنشأت أبحث عن

كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هارون وأبي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب الأصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين غدوت أعجب من نفسي كيف أضاعت وقتها في تلقف تلك الأسفار المسجعة وفي اللغة مثل نهج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والإحياء وغيرها مما لا يتسع المجال لتعداده وهو في الحقيقة ونفس الأمر مادة أدب كما هو مادة علم لا تبلى على الدهر جدتها ولا تخلق دباجتها كما كنت أعجب من أفيالي أيام الطلب على تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفي الحلي وابن منجك وابن مليك والجندي من شعراء المتأخرين وعند العرب من أهل هذا الشأن أمثال أبي تمام وأبي الطيب وأبي عبادة وأبي نواس والشريف الرضي وابن حمديس الصقلي وأبي فراس الحمداني.

يرجع الفضل الأكبر في انتشار دواوين الأدب والتاريخ واللغة من كتبنا لعلماء المشارقة من الغربيين أمثال دوزي ودساسي ووستنفيلد وعشرات غيرهم من أهل أوربا ولبعض ما نشره اليسوعيون في مطبعتهم المنقبة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي ألفت في أوقات مختلفة في مصر لإحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجميعة التي طبعت لنا المخصص لابن سيده أحسن كتاب عني بطبعه في شرقنا ولما طبعته المطبعة الأميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس. كل هذه الأعمال أعانت العربية على تحسين آدابها وترقيها. ولا ننسى غيرة أولئك الذين نسجوا في منظومهم ومنثورهم على مناحي الأوربيين من حيث قلة الكلفة ومجاراة الطبع ومحاكاة الطبيعة ووصف عواطف النفس بإيجاز وإعجاز وأولئك الذين وقفوا أنفسهم منذ عشرات من السنين يعربون لنا كل يوم في جرائدهم ومجلاتهم أفكار الغربيين في

سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكونوا مجتمعنا الأدبي على ما ترونه وجددوا للغة شبابها بحيث أمنا بفضلهم عليها من العفاء وأصبحنا نرجو لها دوام النماء والارتقاء.

أنا لا أقدم لكم مثالًا من أمثلة ارتقاء لغتنا أكثر من أن أجلكم على مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة في سورية والفلاح والمحروسة في مصر وأن ترجعوا إلى كتابة الدواوين في مصر في منتصف القرن الماضي مثلًا وترجعوا إليها اليوم وإن كانت إلى الآن عشيقة الركاكة بعض الشيء. قابلوا المنشورات التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما كان يصدر من أمثالها منذ مئة سنة مما أورد الجبرتي في تاريخه نموذجًا صالحًا منه بنصه وفصه. عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما نفيض به ألسن المحامين وأقلامهم في مصر من التفنن في أساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب المحاماة طرفًا صالحًا منه يتجلى لكم كيف ارتقت لغة القضاء. استمعوا للخطباء اليوم ممن درسوا الدروس النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقابلوها بأكثر ما يحفظه خطباء الجوامع أو يقرأونه من السجعات في دواوين الخطب القديمة. تدبروا لغة التمثيل اليوم وإن كنا فيه دون سائر فروع الآداب تأخرًا واسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسماجة اقرأوا المحاضرات التي تتلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في مصر الخالية من التعقيد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تتلى زمن الثورة العرابية وتعدها مثلًا تدركون كيف وفقنا الله إلى قيام بناء آدابنا على هذا الأسلوب الرائق والإبداع في الأداء والإلقاء.

أليس مما يعد من نهوض اللغة ما نراه من أحكام ملكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة أحداثًا تخرجوا من دار

العلوم فكانوا والله أعرف بالعربية وفنونها من أكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الأخير على غير حق أما من تمحض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفاخر العربية في هذا العصر استحكمت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء وأحاطوا بعلوم الوقت إحاطة نبهاء الغربيين.

وإليكم أيضًا مثالًا صغيرًا أذكره لكم دليلًا على ما أتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة فقد شاهدت في وادي النيل بعض العمد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلطف في التعبير مما لا تتلوه في عسلطات المحشين والمهمشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك إلا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد على مسامع الناس وأنظارهم كل يوم من فصح العربية وشواردها وتتفنن فيه من أساليب التعليم. نعم إن مطالعة الجرائد والمجلات أعانت على ؟؟ الآداب وأدخلت الغيرة على التعلم في ؟؟ أرباب الاستعداد.

ولذا رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الأصول الحديثة ولم يولع أهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم ما زال أهلها إلى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراكش فإن مدينة فاس منذ القديم ما خلت من أفراد يعانون الآداب على الأصول القديمة ولكنهم في الجملة خير من أهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فردًا يعد في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت وما ذلك إلا لأن اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الأدوار سوق نافقة ولأن حكومتها تحاول منذ القديم أن تجعل أهلها فرنسيسًا في لغتهم وأفكارهم ومنازعهم.

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثها فيها خير الدين باشا التونسي وأشياعه فإن الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة الأذكياء من الخلدونيين وغيرهم. أما طرابلس الغرب وبرقة والصحراء والسودان فهي من أخوات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها ولكن هناك في صحراء مراكش بلد غريب في تلقف ملكة العربية وأعني به شنقيط بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطي الحافظ المشهور في عصرنا. وطريقة أهلها طريقة الأقدمين في التلقي والاستظهار وقد شوهدت في شنقيط بعض البنات الشنقيطيات إلى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم وأظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الأزهر.

أما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في أحياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الأخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضرموت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق إلا أن ذلك لم يحل دون نبوغ بعض أفراد شاركوا أتم المشاركة في حياة العربية وتعنى بهم بعض أولئك العراقيين النوابغ الذين ألفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجر على الأفكار الذي داء في البلاد العثمانية إلى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لا نغالي إذا قلنا إن ثلاثة أرباع ما تم للعربية من الارتقاء في القرن الأخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس. ومن الأسف أنا لا نزال ترى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربي منها يكاد يكون أشبه بالمالطية والكرشونية منه بالعربية الحجازية فتسقط فيها من الأغلاط في التركيب والتأليف والألفاظ والوضع ما تسأل الله معه السلامة وأقل من ذلك غلطًا تلك الجرائد التي صدرت مؤخرًا في طرابلس الغرب وبعض مدن سورية

الصغرى وبغداد والبصرة والموصل وأحسن منها جرائد مهاجري سورية في أميركا الشمالية والجنوبية وهي لا تقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد الرشيق. ومع هذا فإن الآمال قويت بأن لا ينتصف هذا القرن الرابع عشر للهجرة إلا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها بالضاد بل بالصاد والحاء والخاء والعين والغين والثاء والذال والظاء ورقيت لغتنا بمساعي المنورين من أبنائها أمثالكم درجة عالية خصوصًا في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث أنوارها وأريد بها الحجاز واليمن ونجدًا فإن فيها بقايا من أرباب الذكاء النادر إلى الآن من لو تمرنوا على العمل إذا تهيأت لهم الأسباب لأتي على أيديهم خير كثير للأمة ولا يرجى ذلك إلا متى انقطعت شافة الفتن من تلك الأقطار وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم ليتفرغوا أو أفراد منهم للدرس والاستنارة.

هذا ما حضرني في موضوع نهضة العربية الأخيرة ألقيته في هذه المحاضرة وربما خرجت عن البحث بعض الشيء وساحة عفوكم تسعني وأنتم تعلمون أني على أوفاز أستودعكم الله والسلام عليكم

كلية باريز
١٨

كلية باريز من أقدم كليات العالم في التاريخ إن لم نكن أول كلية أنشئت وقد كانت في القرون الوسطى بلا مراء أشهر كلية وأكثرها إيواء للطلبة فكان علماء الوقت كما قال أحد الفضلاء ينظرون إليها بأنها صاحبة الحق في استخراج كنوز العلوم ملكت إرثًا شرعيًا صحيحًا وكانت أول كلية أنشئت في العالم كلية بابل أسسها نينوس مؤسس بينوي والمملكة الأشورية الأولى وخلفتها كلية منفيس المصرية وخلفت كلية

منفيس كلية آثينا وبعد هذه أنشئت كلية رومية وبعدها قامت كلية باريز واشتهرت كلية بولونيا في تعليم الحقوق كما سبقت كلية باريز غيرها في الآداب المقدسة والعالمية وكان في جوارها عشر مدارس تحيط بها كأنها أم القرى وتلك من أعمالها مثل مدرسة الإنكليز ومدرسة الأيكوسيين والألمانيين واللومبارديين واليونانيين ولطالما بعث الملوك إليها بأولادهم ليتخرجوا في المنطق ويتعلموا رقة الجانب وحسن الأدب والعشرة.

ظلت هذه الكلية منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر تربي معظم الرجال الذين يختلفون إلى التعلم فيها وفيهم الشعراء والعلماء والفلاسفة . ومن مشاهير من تخرجوا فيها غليوم أوكام ورابمون لول وتوما داكين وبنوا دانانيي وبونبفاس الثامن وبرونوتو لاتيني ودانتي وتوما موروس وإيراسم وغيرهم وجميع طلابهم على اختلاف أصقاعهم كانوا يرتاحون في حماها وكان مطمح أنظارهم حب الحقيقة وهي القاعدة الأصلية فيها وكل منهم يتمتع بحقوقه ولقد جاء زمن كانت الحياة العقلية محصورة في جدران المدارس إلا أن كلية باريز أعظم منبعث لبث الدعوة إلى الأفكار الفرنسوية وكانت وحدها تكفي لإنارة العالم إلا قليلًا وكان رجال تلك الأزمان ينسبون العلوم إلى مواطنها ويرجعون الأمور إلى مصادرها فيقولون إن رومية مقر البابوية وألمانيا مقر السلطة وباريز مهد العلم.

وكانت الأفكار الفرنسوية -كما قال أحدهم في المجلة الباريزية- هي أكبر معين في القرون الوسطى عصدت إلى النهاية الصليبيين في نشاطهم وهيأت أسباب الحماسة الدينية وفتحت لأمم المغرب ونشاطهم طرقًا جديدة في العمل ومن الأفكار الفرنسوية نشأت بعد نزاع قديم فكرة الوطنية متجلية في صورة مؤثرة ذات بأس ومضاء بحيث خضعت السياسة لسلطانها ووضعت أسس الوحدة الوطنية. والأفكار الفرنسوية هي التي

طهرت رياح الإصلاح والنهضة وقادت الأفكار القديمة إلى التجديد وأنارت العالم بقبس أنوارها. والأفكار الفرنسوية هي التي حملت إلى العالم في عهد فولتير ومونتسكيو أفكار التسامح الديني والعدل الاجتماعي والحق والإنسانية. والفكر الفرنسوي هو الذي سن المبادئ الخالدة في دساتير الأمم المتمدنة بأسرها. فمن فرنسا نشأت حرية البلجيك وحرية اليونان وحرية إيطاليا وحرية العثمانية، وفرنسا مهد الأدب تنشر أنواره فتتناوله الأجانب وتتقبله بقبول حسن وهي البلاد التي اشتهرت بعلمائها وصناعها

ومن كلية باريز اخترع أمبير اختراعاته التي لولاها لما اخترع التلغراف اللاسلكي والسلكي والتلفون ولم تتم عجائب الكهربائية الصناعية. وفي كلية باريز أحدث باستور انقلابه العظيم في علم الحياة الذي جعله المحسن إلى الإنسانية في العالم أجمع وفي كلية باريز حقق برتلو الطريقة الصناعية في المواد العضوية فنشأت منها الكيمياء الحديثة وفي كلية باريز اخترع كوري وقرينته الراديوم واهتزت في أيديهما ذراته. وفي معامل كلية باريز أوقد موسان للمرة الاولى التنور الكهربائي كما اخترع غيره التصوير الشمسي بالألوان.

كانت هذه الكلية كما قلنا أعظم كليات القرون الوسطى فجعلوها سنة ١٨٩٦ كلية تليق بعظمتها الماضية بحيث لم تفقد مكانتها العلمية وفيها اليوم زهاء ثلاثمائة أستاذ يفيضون كما أفاض أسلافهم على العالم من علومهم ولا سيما على أميركا الجنوبية وبوهيميا والبلاد المصرية والعثمانية وكانت هذه الدار رسول السلام بين الأنام ومعلمة الناس كيف يكون التجانس الروحي والإخاء العام. ولكم كان أساتذتها يسيحون في بث ما علمهم الله في البلاد التي يقل فيها العالمون ولكم أنشئت في حجر هذه الدار جمعيات تريد التقريب بين الشعوب وتعليم الجاهل منهم ولكم

رنت في غرفها وقاعاتها أصوات الخطباء من علماء الأرض أتوها يحملون إليها نتائج أبحاثهم ودروسهم. فإن كانت كلية باريز أم كليات براغ والآستانة ومصر وغيرها من كليات البلاد اللاتينية وأميركا اللاتينية فهي تفاخر بأنها أم كليات إنكلترا وأيكوسيا.

ويؤخذ من إحصاء سنة ١٩٠٧-١٩٠٨ أنه كان في هذه الكلية ١٧٣٠٣ طلاب منهم ٣٣٦١ من الأجانب فتيان وفتيات. ومن هؤلاء ٩٢٦ يدرسون الحقوق و٥٢٠ يدرسون الطب و٧٧٣ العلوم و١٠٦٢ الآداب.

ولم تقصر كليات الولايات. وعددها اثنتان وعشرون كلية في بث روح التكافل الأخلاقي والعقلي فأنشأت كلية تولوز جمعية اجتماع الطلاب الفرنسويين في أسبانيا وأنشأت كلية بوردو مدرسة الدروس الأسبانية العالية في مدريد وأنشأت كلية كرنوبل المجمع العلمي في فلورنسة وكلية نانسي وهي على الحدود الألمانية تعلم قاصديها احترام فرنسا وخدمتها للعلم، وهكذا الحال في كلية مونبليه وليل وليون فكليات فرنسا تعلم في السنة سبعة آلاف طالب وهو عدد ليس بقليل يدل على تفردها في هذا الشأن من بين أكثر الممالك الراقية.

هذه شذرة صغيرة في وصف كلية باريز التي ما زالت الحكومة الفرنسوية تنفق عليها النفقات الطائلة والمحسنون لا ينفكون عن إعطائها المنائح الكبيرة فقد وهبها كارنجي المحسن الأميركي كثيرًا كما إن بعض الروسيين منحوها مالًا جزيلًا والفرنسيس يعطونها عن سعة. فحيا الله يومًا تقام لكل قطر من أقطار البلاد العربية كلية مثل هذه تدرس أبناءها علوم البشر بلغتهم وتكون مجتمعنا بالوطنية الصحيحة كما تكونها كليات الممالك الصغرى في الغرب. كالبلجيك وهولاندة والدانيمرك والسويد ونروج وسويسرا والمجر وبولونيا وفنلندا والبرتقال.

حدائق باريز ومتاحفها
١٩

يطول بنا نفس الكلام إذا أردنا الإفاضة في كل فرع من فروع العمران بباريز وكلها مما يحتاج إلى صفحات كبيرة وربما مل القارىء قبل أن يمل الكاتب. ولقد عنيت مدة مقامي في هذه العاصمة أن لا أضيع ساعة من وقتي إلا في البحث عن جمعية أو إنسان وزيارة معهد فيه نموذج من ارتقاء العقول ووفرة العلم وحذق الأيدي وبسطة العيش وفضل الرفاهية ومما جعلته لأوقات الفراغ غشيان الحدائق والمتاحف ودور التمثيل والسماع.

في باريز حدائق كثيرة عامة ومنها الصغير الخاص بحي أو شارع صغير ويسمونها (سكار) وهي كلمة إنكليزية معناها ساحة مربعة أو حديقة يحيط بها حاجز من قضبان حديد وتكون في ميدان عام وعددها ٣٦ حديقة تتمنى كل حاضرة من حواضر البلاد العثمانية أن يكون لها من نوعها واحدة فقط بانتظامها وحسن تعهدها أما الحدائق الكبرى فعددها تسع تصرف في كل واحدة الساعات وأنت تسرح طرفك فيما خصتها به يد الصانع وأيدي البشر من مجالي الظرف والجمال.

زرت منها حديقة الحيوانات وحديقة كلوني وحديقة لوكسمبورغ وعجبت لمن يزور هذه الحدائق مرات لم لا يكون عارفًا بالنبات والحيوان وتاريخ مشاهير فرنسا أحسن معرفة فمثل هذه الحدائق التي يتنزه فيها المتنزهون هي في الحقيقة مدارس عملية يدرس فيها المتنزه كبيرًا كان أو صغيرًا ما ينبغي له من هذه العلوم درسًا عمليًا لا يحتاج فيه

إلا إلى انتباه فكر قليل حتى إذا أسعده الحظ ونظر في المدرسة أو خارجها في كتب هذه العلوم يصبح وهو مطبق العلم على العمل.

ولقد رأيت في حديقتي الحيوان والنبات أشياء كنت أقرأها ولا أعرف أعيانها فلما وقع النظر عليها تبينت فصل عرضها وأن العلم النظري إذا لم يشفعه علم عملي يبقى كالسيف في غمده أو البندقية في معملها أو الكهربائية قبل توليدها وليس في البلاد العثمانية أو المصرية ما يشبه هذه الحدائق اللهم إلا أن تكون حديقة الجيزة والجزيرة والقناطر الخيرية في مصر وحديقة الأمة وغيرها في الآستانة ولكن أين الثريا من يد المتناول وما ينظمه الباريريون لأنفسهم وينظمه الإنكليز أو الطليان والنمسويون لنا. وما حك جسمك مثل ظفرك.

وإنك لترى في بعض الحدائق العامة تماثيل مشاهير رجال فرنسا في السياسة والعلم مجسمة من رخام مجزع أو حديد مصنع كأن ساحات باريز وشوارعها العظمى لم تستوعب وحدها كبار رجالهم حتى هرعوا إلى الحدائق يضعون فيها التماثيل والنصب لمن أحسنوا للأمة أو سادوها زمنًا وأصبح لهم في تاريخها ذكر يردد، ففي ساحات باريز وشوارعها ٦٨ مشهدًا Monument لمشاهير علمائهم ورجال سياستهم ومنهم أوغست كونت والفرد دي موسه وشاركو وكورنيل ودانتون وغامبتاوكي دي موباسان وجول سبمون ولافاييت وواشنطون ولافواريه وباستور وفيكتور هوغو وغيرهم وفيها ٦٨ تمثالًا اثنان منها لإسكندر دوماس الابن والأب وواحد لبالزاك وبوفون وبرانجيه وشارلمان وكلود برنار وكوندورسه ودانتي وديدرو وغار مبالدي وجورج ساند وجان جاك روسو. وجان دارك ولامارتين ومارات ومولبير وباسكال وشاكسبير وفولتير وتمثال الحرية والقانون والجمهورية.

هذا داخل العاصمة أما خارجها فلها من عامي فنسين وبولونيا أعظم فسحة ونزهة وغابة فنسين في شرقي باريز على بضعة كيلو مترات من نقطة دائرتها ومساحتها ٩٢٧ هكتارًا وفيها من أنواع الراحة وتنويع المناظر المفيدة ما هو العجب العجاب واعجب منها عامة بولونيا في غربي باريز ومساحتها ٨٧٣ هكتارًا زرتها ثلاث مرات وإن كانت في الشتاء ليست منهما في الصف على أنها ما خلت من الأنبس والجليس وكان أحد تلك الأيام يوم عيد رأس السنة والسماء مصحبة والشمس طالعة مربضة صحيحة والعيون المراض الصحاح خرجت من كياسها تستنشق الهواء النقي. وهناك مطر من بحيرات بولونيا وطرقها لا أدري كيف يصوره الشاعر إذا كان الوقت ربيعًا أو صيفًا أو خريفًا. ولو كنت شاعرًا لحبرت في وصفه القصيد وإن زرتها في الفصل الميت كما يقول الفرنسيس.

أما المتاحف الباريزية فهي أيضًا قصور نزهة وحدائق صفاء وعددها ٣١ متحفًا يحتوي كل منها على أقصى ما يتصوره العقل من ارتقاء البشر في الصناعات والفنون على اختلاف الأعصار زرت بعضها وقضيت أوقاتًا طويلة في متحف اللوفر العظيم بالقرب من نهر السين ومتحف فرسال على ثلاثة أرباع الساعة من باريز. أما متحف اللوفر فهو من أجمل قصور العالم وأوسعها عرف سنة ١٢٠٤ على عهد فيليب أغسطس وما زالت أيدي الملوك تنعاوره بالإصلاح أو التدمير حتى إذا كان عهد فرنسيس الأول أصبح اللوفر متحفًا يقسم اليوم إلى سبعة متاحف في متحف بحسب أصول آثارها وزمنها وطبيعتها وهي متحف التصوير ومتحف الرسوم ومتحف النقش ومتحف النحت القديم ومتحف النحت في القرون الوسطى وعلى عهد النهضة ومتحف النحت الحديث ومتحف العاديات الأسياوية ومتحف العاديات المصرية ومتحف العاديات الإفريقية ومتحف العاديات النصرانية ومتحف الفخار والأواني الخزفية

القديمة ومتحف الفلز والحلي والرخام القديم ومتحف عاديات القرون الوسطى والنهضة والقرون الحديثة، ومتحف تير ومتحف البحرية ومتحف الشرق الأقصى.

وكل متحف تصرف فيه الساعات الطويلة ولا تستوفي النظر، فتأخذك الدهشة من رؤية المكان ورؤية المكين وتقضي بالعجب من كل ما يقع عليه بصرك إذ تتمثل لك عظمة الإنسان وتفننه فيما تصنعه يده وعينه وذوقه.

أما متحف فرسال فهو في مدينة فرسال. وكانت في القرن الحادي عشر للميلاد قرية فأصبحت بعناية لويز الثالث عشر مدينة صغرى لأنه أقام فيها قصرًا للراحة أثناء الصيد وأراد لويز الرابع عشر أن يجعل فرسال مركز حكومة فرنسا فأنشأ فيها أبنية ومصانع عظيمة وكذلك فعل لويز الخامس عشر حتى أصبح عدد سكانها ثمانين ألفًا على عهد الثورة، وهكذا إذا أراد الملوك أن يعمروا بلدًا أحيوه وإذا شاءوا أن يخربوه أماتوه. واشتغل في إقامة قصر فرسال الذي جعل المتحف فيه اليوم ثلاثون الف رجل وستة آلاف دابة في اليوم مدة سنين طويلة. وقد فتحت أبواب المتحف سنة ١٨٣٧ وفيه اليوم ٥٦٠٠ أثر تاريخي.

أما مجموعة الصور البديعة التي فيه فعددها ٢٤٠٠ صورة ليس لها نظير في العالم ومن يمعن النظر فيها كثيرًا يخرج من المتحف وقد درس تاريخ فرنسا ووقائعها الحربية بالعمل والنظر.

ومن جملة ما حواه أسلحة بيوت الشرف التي اشترك فرد أو أفراد منها في الحروب الصليبية. ومنها أبواب مستشفى فرسان رودس الذي أهداه السلطان محمود العثماني سنة ١٨٣٦ إلى لويز فيليب صاحب فرنسا. وفيه صور كثير من مشاهير الشرق كأنك تراهم عيانًا وفيه صورة تمثل القائد

كليبر الفرنسوي وسليمان الحلبي يقتله في حديقته في القاهرة زمن الاحتلال الفرنسوي في مصر.

أطلت الروية في كل هذا وأنعمت النظر في النفقات الطائلة التي أنفقت على هذه القصور المزخرفة والمصانع العظيمة فأعطيت بعدها الحق لمن قاموا بالثورات الفرنسوية يريدون إنزال الملوك عن عروشهم وفصم عرى السلطة الفردية لتنقل إلى أيدي الأمة. نعم إن أقل نظرة إلى هذه القصور يستغرب معها المرء كيف لم تحدث تلك الثورات قبل حدوثها بزمن طويل ولكن الحوادث كالحبالى لا تلد إلا بعد إتمام مدة الحمل أو كالثمر لا ينضج قبل إبانه.

ولم أتمكن يوم زيارتي لفرسال من رؤية كل حدائقها ومرافقها لنزول الثلج بكثرة ولكني على الجملة أخذت منها صورة إجمالية كافية. شأني في كل ما زرته من المعاهد ورأيته من المشاهد فلم يتيسر لي ان ألقي عليه سوى نظرة واحدة لضيق الوقت وكثرة ما يجب أن يدرس من آثار هذه الحضارة الغربية الغريبة.

وبعد كل هذا صرت أرى الاشتراكيين على حق فيما يطالبون به المجتمعات الحديثة في الغرب وهم يرون مئات الفدادين من الأرض تجعل حدائق قد لا يختلف إليها إلا أفراد في حين يهلك مئات الألوف من المحاويج والفقراء ولا من يرحم ضعفهم المادي والصحي أو يرثى لبكائهم وتُسبل على النظر هذه التحف والعاديات التي لا تقدر بثمن وحكومة الجمهورية تقترض مئات الملايين من الفرنكات لسد العجز في ميزانيتها. وهكذا نظام المجتمع الغربي ولعل عقول أهله المفكرة تحرر في الأجيال المقبلة الفقير من فقره أو تقوى على الأقل على تعديل هذا

النظام الجائر الذي يسلب من كثيرين السبد واللبد ليعمر به قصر البلد ويلعب في حدائقه وساحاته الوالد والوالدة والولد.

مكاتب باريز ومكتباتها
٢٠

لو لم يكن في باريز إلا مكتبة الأمة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومئة ألف كتاب مخطوط ومليونين ونصف مليون صورة مختومة وألوفًا من الأيقونات والأنواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات لكفاها جالبًا للسائحين ولافتًا لأنظار أهل العالمين من العالمين.

مكتبة أسست منذ نحو ستة قرون وملوك فرنسا وعلماؤها وأشرافها يتبارون في أن يجعلوا في كل فرع من فروع العلم واللغات صنوف المخطوطات والمطبوعات حتى إذا جاء القرن العشرون أصبحت مكتبة الأمة أكبر مكاتب العالم وأهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها ففيها من نوادر المخطوطات والمطبوعات العربية ألوف.

اختلفت إليها غير ما مرة ولم أتمكن من مطالعة كل ما أريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين في قاعات المطالعة. وبلغني إن الكتب التي أهديت إلى مكتبة الأمة في العهد الأخير لم يتيسر إدخالها في قوائم الكتب على كثرة موظفي المكتبة وكادت مطبعة الأمة الأميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن ولا غرو فإن ما رأيته منها مطبوعًا إلى عهد ليس ببعيد يبلغ وحده مكتبة برأسها ويقضي فيه المرء الساعات ولا يستطيع أن يستوفي النظر الإجمالي.

ولو صرف طالب عمره كله يبحث في مخطوطات مكتبة الأمة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسر له أن يأتي إلا على قسم ضئيل جدًّا ممَّا حوته في بطنها من معارف البشر ولا تعد المكتبة الخديوية في مصر ومكاتب الآستانة التي تتجاوز الأربعين مكتبة ومكتبة المجلس البلدي في الإسكندرية ومكاتب دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الأدنى إذا جمعت كلها في صعيد واحد وجعلت لها فهارس وقوائم منظمة إلا جزءًا صغيرًا من ذاك الجسم الكبير. وعلى تلك النسبة قس المطالعين والمراجعين في مكتبة الأمة بالنسبة لأمثالهم في البلاد العثمانية والمصرية فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالًا ونساءً شيوخًا وعجائز شبانًا وشابات كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة وربما جاوز الألف أحيانًا وتجد فيهم الغرباء من أمم أوربا وآسيا وأميركا وإفريقية ممن تجمع بينهم كلمة العلم الجامعة وكلهم يتنافسون في البحث والدرس ويستخرجون من ركاز تلك الكنوز ما يصوغونه عقودًا ثمينة وتعاويذ محلاة تقي البشر شر الجهل والخرافة.

ولعله يخطر ببال بعضهم أن هذه المكتبة هي كل ما في فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيس فيها قواهم وجمعوا لها من أقطار الأرض كل غال ونفيس على عادة الإفرنج في التغالي بفخامة مصانعهم وضم شتيت متفرقهم وحرصهم على الاجتماع للانتفاع ولكن في باريز وحدها من المكاتب العامة ما لو جمع أيضًا لكان منه مكتبة كمكتبة الأمة بكثرة أسفارها إلا أن هذه تفوقها بالنوادر من المخطوطات.

ولباريز عشر مكاتب أخرى في كل واحدة منها عشرات الألوف من المخطوطات والمطبوعات دع خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكليات والمجامع فإن لكل واحدة منها ما يقتضي للمطالع من أسفار

المراجعة وغيرها أما خزائن كتب الأفراد فهذه لا يحيط بها إلا علام الغيوب أو من يدعي أنه يعرف ما حوت باريز من علم وأدب وذهب ونشب.

ويقول العارفون إن قواعد بلاد الإنكليز السكسونيين كألمانيا وإنكلترا والولايات المتحدة تحسن استخدام أسفارها أكثر من الجنس التوتوني اللاتيني كالفرنسيس والطليان والأسبان وغيرهم إذ ثبت أن تلك الأمم العظمى الراقية أكثر إحسانًا للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية على أسلوب حديث لم يخطر ببال الفرنسويين الذين جروا في أوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شؤونهم على تقاليد لهم قديمة وإن عرف عنهم أنهم أسبق الأمم إلى التجديد ولكن تجديدهم في أمور دون أخرى.

والانتفاع من الكتب أيضًا لم يخرج عن هذا النظام حتى قالوا إن نفائس المخطوطات والمطبوعات الموجودة في مكتبة الأمة في عاصمة الفرنسيس أو نقلت إلى ليبسيك أو مونيخ أو برلين أو فينا أو إكسفورد أو مانشستر أو لندرا أو نيويورك أو شيكاغو لانتفع بها وتيسر سبيل الوصول إليها لأنها تكون هناك فهرسة مبوبة على طريقة فيها روح القرون الوسطى وقد جعلت هنا على أسلوب قريب المأخذ سهل التناول خال من القيود التي تقيد المطالع والمراجع. فإن كانت فرنسا في مقدمة شعوب الأرض من وجوه كثيرة ولا سيما في الأمور الدوقية وبدائع الصناعات والإصلاحات الدستورية والإنسانية فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع فعرفوا كيف يطبقون أنفسهم على الذوق العصري.

مثال ذلك صناعة الوراقة أو بيع الكتب فأنا نجد ألمانيا أرقى من فرنسا فيها مع كثرة تفنن الفرنسيس فيما يدل على سلامة الذوق حتى إن

ليبسيك في ألمانيا تبيع وحدها من الكتب قدر ما تصدر فرنسا كلها ومن الغريب أن الكتبية الألمان في نفس باريز تجدهم أمهر في تصريف كتبهم فيبيعون كمية أوفر من كتبية الباريزيين.

جاء في كتاب (ألمانيا الحديثة) أن ألمانيا أعظم البلاد إصدارًا للكتب فقد كانت أوائل القرن الماضي لا تخرج في السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب فأصدرت سنة ١٩٠٥: ٢٨٨٨٦ كتابًا في حين أن فرنسا التي هي في الدرجة الثانية بكتبها لم تصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتابًا فإذا قدر أنه يطبع في كل كتاب في ألمانيا ألف نسخة فيصيب كل شخص فيها على أقل تعديل مجلد واحد فصناعة الكتب في ألمانيا رابحة جدًا. وقد كان عدد المحال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥: ٧١٥٢ محلًا تصدر إلى الخارج فقط ما قيمته ٢٩٠ مليون مارك.

زرت في جملة الكتبية الذين زرتهم أو ابتعت منهم بعض الكتب مكتبة هاشيت المشهورة في جادة سان جرمان وهي ثلاثة طوابق وفيها نحو ألف وخمسمائة موظف ومستخدم وتطبع فيها بضع جرائد ومجلات كما تطبع الكتب المدرسية والأدبية والتقاويم السنوية المشهورة في العالم وهي مؤسسة منذ نحو ثلاثة أرباع قرن ويعد هاشيت من أعظم كتبية العالم إن لم يكن أعظمهم ومع هذا يقول العارفون إن مكتبته على حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الألمان أو الأميركان لأدهشوا العالم بنظامهم وأرباحهم. فكأن دم الفرنسيس الذي غلى زمنًا قد برد اليوم وأصبح الدم الجديد غيره الآن يغلي فيدهش بحرارته. ومن مكتبات باريز المشهورة مكتبة فلاماريون ولمكتبته فروع كثيرة في مدينة باريز وبلاد فرنسا وهذه المكتبة فيما رأيت أقرب إلى التجديد منها إلى الجمود على القديم.

مجامع باريز العلمية
٢١

على الشاطئ الأيسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخم قام قصر عظيم عمر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بمال أوصى به السياسي مازارين الذي جمع بطمعه وجشعه ثروة لا تقل عن خمسين مليون فرنك على عادة عظماء القرون الوسطى. وأراد أن تنفق بعده في الخيرات وحسن الأثر ومن جملة خيراته هذا القصر الذي أوصى له بمليوني فرنك فضة وخمسة وأربعين ألف ليرة دخلًا سنويًّا ليكون منه مدرسة عالية يتعلم فيها ستون طالبًا من أبناء الولايات الأربع التي أضيفت إلى فرنسا بموجب معاهدة البيرنيه وروسيللون.

وهذا القصر هو الذي نقل إليه مجمع فرنسا العلمي سنة ١٨٠٦ ذاك المجمع الذي أسس سنة ١٧٩٥ فكان مفخرًا من مفاخر الفرنسيس وحق لهم أن يفاخروا به وهو مجلس أو ديوان مؤلف من خمسة مجامع فالأول المجمع العلمي الفرنسوي المعروف بالأكاديمي أسسه ريشليو سنة ١٦٣٥ وهو يشتغل خاصة بتأليف معجم اللغة الفرنسوية وإدخال المفردات الجديدة ونبذ القديمة أو إصلاحها وأعضاؤه أربعون رجلًا ويقال لهم المخلدون على سبيل الدعابة لأنهم إذا خلا موضع واحد بالموت ينتخب سائر الأعضاء في الحال من يخلفه والمجمع الثاني مجمع الصناعات النفيسة أسسه مازارين سنة ١٦٤٨ باسم مجمع التصوير والنقش والمجمع الثالث مجمع الخطوط والآداب أنشأه الوزير كولير سنة ١٦٦٤ ومجمع العلوم أسسه كولير أيضًا سنة ١٦٦٦ ومجمع العلوم الأخلاقية والسياسة أنشئ سنة ١٨٣٢ وجميع هذه المجامع ينتخب أعضاؤها بعضهم بعضًا مدى العمر وينظرون في العلوم الآنف بيانها ويعطون جوائز للمحسنين

من المؤلفين والعاملين وبعضها لايستهان به. وفي باريز مجامع علمية كثيرة غير هذه منها مجمع باستور العلمي مكتشف الميكروب والمجمع الكيماوي ومجمع فتيان العميان ومجمع الزراعة ومجمع البحار ومجمع العيون ومجمع الصم والبكم ولكل منها أنظمة وقوانين وأعمال يطول شرحها وأكتفي فقط بوصف جلسة عامة حضرتها [١] من جلسات مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية.

في اليوم الرابع من كانون الأول سنة ١٩٠٩ عقد هذا المجمع جلسته السنوية تحت قبة المجمع وهي القبة التي تجتمع فيها المجامع الخمسة المعدودة فيما تقدم اجتماعها السنوي وقدر الجمع بأربعمائة نسمة رجال ونساء. جلسوا على مقاعد من المخمل على ترتيب بديع بحيث يسمع كل واحد منهم ويرى وكان أكثر أعضاء هذا الجمع بلباسهم الرسمي فجلس على كرسي الرئاسة المسيو رني ستورم وتلا كما هي عادة هذا المجمع منذ القديم أو منذ إنشائه قائمة بأعمال المجمع منذ اثني عشر شهرًا وصفق الحضور لمن نالوا جوائز على كتب ألفوها وأعمال قاموا بها لخدمة الإنسانية وتعليم البائسات وإطعام الجائعات واليتامى والعمي وبين من نالوا الجوائز أربع عقائل عدا من

(١) هنا أرى من الواجب علي أن أشكر لصديقي العالم المسيو الفرد لشانليه أستاذ علم الاجتماع الإسلامي في كوليج دي فرانس ومدير مجلة العالم الإسلامي ومجلة السجلات المراكسية ومجلة الأفكار الحديثة لتفضله بتعريفي إلى كثير من أصدقائه من رجال العلم والأدب والسياسة في باريز وبهم تيسر لي أن أطلع من مدنية هذه الأمة في شهرين ما يتعذر على غيري أن يراه إلا في شهور وأشكر خاصة أمين سره الكاتب المسيو لوسين موري الناقد الأدبي في المجلة الزرقاء وأحد كتاب هذه العاصمة المجيدين الذي تفضل وأضاع من وقته كثيرًا ليقدمني إلى معارفه ومعارف المسيو لشالميه المشار إليه.

أثنى الرئيس على أياديهن البيضاء كالأم أرنستين التي أنشأت معملًا وملجأ في مدينة روان والعقيلة بيكوين التي أنشات في باريز ملجأ سمته معمل الجهاز والآنسة دي رشمون التي أنشأت في مدينة كرنيل منذ أربع وعشرين سنة ملجأ للبنات تأوي إليه أربعمائة ابنة من بنات العملة وأنفقت عليه ثروتها. ومن المعاهد التي أخذ هذا المجمع النظر فيه معهد كارنو وهو الذي منحته العقيلة كارنو امراة أحد رؤساء الجمهورية رأس مال يأتي بثمانية عشر ألف فرنك دخلًا سنويًا وقضت بأن تقسم إلى ٩٠ إعانة كل واحدة بمائتي فرنك توزع كل سنة يوم ٢٤ حزيران وهو يوم مقتل كارنو على تسعين امرأة من نساء العملة ممن لهن أولاد، ومن جملة الجوائز التي منحها المجمع للمؤلفين جائزة الإجادة لمن ألف كتاب (إفريقية للأوربيين) وكتبا (أوروبا والمملكة العثمانية).

ثم قرأ المسيو دي نوفيل أمين سر المجمع الجديد ترجمة حياة صديقه وسلفه في هذه الوظيفة جورج بيكوفاثر في السامعين وأبكاهم، وتفنن ما شاء وشاء البيان في وصف حسنات المتوفي واقتداره. وكانت الخطب يتلوها أولئك الشيوخ في الورق بنغمة تأخذ بمجامع القلوب ويطرب لها العالمون العاملون طربهم بنغمات الأوتار وتغريد الأطيار في الأسحار.

وهكذا انصرف القوم ونصفهم من النساء يرددون محامد أعضاء المجمع أما أنا فتمثلت لي أرواح أولئك العلماء العاملين الذين سنوا لمعاصرينا أخلافهم سنن الارتقاء وخدمة العلم والحق والفضيلة والآداب والفنون، وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية وقلت هل يكتب لها في المستقبل تأليف مثل هذه المجامع فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين أو نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين ونكتفي بالتفاخر بأجدادنا

نجعله عدتنا في شدتنا ومثالنا في نهضتنا، ونحن عن اقتصاص آثارهم غافلون.

كنائس باريز ومعابدها
٢٢

من المعاهد التي يقضى على من يزور باريز أن يختلف إليها ولو مرة بيعها وكنائسها فإنها من الأماكن التي يقرأ فيها أنموذجًا من أنموذجات البناء في القرون الوسطى، ويطلع فيها على فلسفة الفرنسيس الروحية خصوصًا والمأثور عنهم في الشرق أنهم أمة لا تقيم لغير العقل وزنًا تجردت من العواطف الدينية حتى لم يبق فيها سوى العجائز من النساء يختلفن إلى المعابد للإنابة إلى الله وتقديس يسوع وأمه عليهما السلام.

بيد أن من تعمق في البحث عن حال الفرنسويين الروحية يتجلى له أن جمهورًا عظيمًا لم يبرح متشبثًا بدينه متشبعًا بصحة يقينه، ولا سيما في القرى والبلدان الصغرى فأغلب الخاصة والطبقة العليا عندهم نزعوا كل نحلة حتى لم يعودوا يعرفون غير المادة دينًا وأغلب الطبقة السفلى يغلب عليها التدين، أما العامة في المدن كالسائمة لا تعرف غير الأكل والشرب واللهو واللذائذ وأكثر أهل طبقتهم في القرى متعصبون لدينهم والسواد الأعظم من النساء متدينات. وتساوى متدينهم والمنحل من كل دين منهم أو الخاصة والعامة بالتظاهر في مراعاة الشعائر الدينية ولا تختل هذه القاعدة قليلًا إلا في المدن والحواضر. ولا أثر للتعليم الديني في المدارس الأميرية وهو على أشده في مدارس الرهبنات وغيرها من المدارس الخاصة على أن نزعة التعصب التي عرفت بها فرنسا منذ صبأت عن الوثنية لتنتحل النصرانية في القرن الثالث للمسيح ما برحت لها في

نفوس أبنائها حتى في هذا القرن العشرين آثار راسخة وإن عبثت حكومتهم بقانون الحرية الشخصية غير ما مرة ودمرت بيوت الرهبان والنسك وجردت الكنائس والبيع والمدارس الإكليركية من كل ما يدخل في حوزتها.

يحتفل الفرنسيس يوم ١٤ تموز بعيد الجمهورية احتفالًا يقدسونه ويمجدونه وفي ذاك اليوم تشهد في كل أرض فيها بضعة منهم أو رفع لهم فيها علم نموذجًا من وطنيتهم وكيف يرى جمهورهم بالجمهورية حياته ولكن احتفال هذه الأمة بأعيادها الدينية لا يقل عن احتفالها ذاك اليوم. وأعيادها كثيرة هي صورة من صورتها في القرون الوسطى بل في القرون الحديثة قبل أن تنادي فرنسا بتأليه العقل وتعلن الحكومة علنًا نزعها ربقة الدين.

نعم إن زائر كنائس باريز تتجلى له فلسفة القوم النفسية. ومما زرته من كنائس باريز كنيسة نوتردام والمادلين وعدد الكنائس الباريزية سبعون كنيسة أسقفية للكاثوليك ما عدا بيع الروم والبروتستانت ومعابد اليهود الأربعة وما عدا المصليات والبيع الصغرى ونوتردام هي من أعظم الكنائس. وهي أجمل أنموذجات البنايات القديمة تجيء بمكانتها بعد كنيسة مدن شارتر وريمس وأمين وبورج وتفوقها بآثارها التاريخية وكفى بأنها أنشئت في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر ولم تزل تتعاورها الأيدي بالنقش والتزيين والترخيم والتعريق حتى يوم الناس هذا وفيها من بدائع ما صنعت الأيدي وتفننت فيه العقول ما يدهش ويبهر.

زرتها قبيل صلاة المساء مع صديقي عثمان غالب باشا. ووقفنا نستمع لوعظ الواعظ على جمهور المصلين وأكثرهم من النساء: يعظهن واصفًا لهن غرور الحياة الدنيا بالقياس مع الآخرة ومنهن من تغرورق عيناها

بالدموع أو تجهش بالبكاء خصوصًا عندما يذم بلسان بليغ غرور أهل باريز. فهو داخل الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو لناس إلى الزهادة ويحبب إليهم العبادة ووراء سور الكنيسة تجري كل ساعة شؤون وأعمال دنيوية هائلة كلها ما كانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواعظ وآثروا الباقية على الفانية.

إن ما رأيته من انتظام البيع الباريزية، وتفنن البانين في إبداعها وتفانيهم في توفير قسطها من الجمال دلني بلسان حاله على أن مدنية القرون الوسطى قامت باسم الدين ولذلك جاءت المعابد أجمل مصانع تلك القرون، وكان أكثرها إلى الزوال لو لم تتدارك في القرون الحديثة ببلسم من إنارة العقول بالفلسفة والعلم المادي أما مدنية هذا العصر فلا أدل عليها إلا بما ينفع الناس في دنياهم كالسكك الحديدية والبوارج والبواخر والمرافئ والمعامل والثكن والمستشفيات والمدارس والكليات ودور البائسين والحقول الأنموذجية والمتاحف وحير الوحوش والمكاتب ودور التمثيل.

فهل يأتي على البشر عصر يا ترى يكون فيه ما ينم عن مدنيتهم غير ما ذكرنا قديمًا في الدين واليوم في الدنيا ويخف تكالبهم على مظاهر هذا العالم وينسون بتاتًا تعظيم ما خلفته عصور التدين من المصانع والعبادات. التي انتقلت إلى أكثرهم بالعادة أو يمزجون القديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن في تصور ماضيهم وحاضرهم، هذه أسئلة ليس غير الزمان كفيلًا بالإجابة عنها والله أعلم بمصير عباده.

قصور باريز وسراياها
٢٣

من القصور العامة وأملاك الحكومة في هذه الحاضرة: مصرف فرنسا قصر الأليزة حيث يقيم رئيس الجمهورية وقصر الانفاليد والتويلري وقصر العدلية وقصر ساحة المريخ وقصر التروكاديرو والقصر الملكي، وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانتيون مدفن العظماء وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البلدي.

ونتكلم هنا على القصور الثلاثة الأخيرة فقد كتبت لي زيارة مجلس نواب الأمة الفرنسوية ومجلس أعيانها خلال انعقاد المجلسين، فلم أسر بمشهد أجمل ولا أفخم وقلمًا تمثل لي معنى النيابة عن الأمة إلا ذاك اليوم، ومجلسا النواب والأعيان هما مفخر من مفاخر هذه الأمة ونموذج تقدمها ودليل أخلاقها السياسية ففي مجلس الأمة الحركة والمضاء وفي مجلس الشيوخ التؤدة والروية فالأول يقيم في قصر البوربون والثاني في قصر اللوكسمبورغ وكلا القصرين من أجمل قصور الحكومة في هذه العاصمة العظيمة. وعدد النواب خمسمائة تغلب عليهم همة الشباب وعدد الأعيان ثلثمائة تقرأ في وجوههم المغضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة.

وما أنس لا أنس يوم كانت المناقشة في مجلس النواب في وضع ضريبة على العملة وقد تدفقت أقوال بلابل المجلس على المنبر وما فيهم إلا الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والسياسي والإداري.

وإن ما تلي في تلك الجلسة فقط من الخطب وجرى الحوار فيه بين الأعضاء لو جمع في كتاب برأسه لجاء منه أحسن كتاب اجتماعي اقتصادي عن فرنسا ومن أراد أن يعرف ما هو البيان الحقيقي والعلم الذي تشربته أجزاء النفس فليزر مجلس النواب الفرنسوي في فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سر الشورى.

أما المجلس البلدي فهو معيار العمران وبيده أسعار باريز وأشقاؤها يزار كما تزار أكثر المعاهد الكبرى في باريز بطلب من الزائر يقدمه إلى أمين سر المعهد فيرسل هذا إليه ورقة يعين له فيها الميعاد الذي يأتي فيه.

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسم في نظره الذوق الفرنسوي وعظمة هذه الأمة لكثة ما يقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف وكلها مزدانة بنقوش وصور ورسوم من أجمل ما خطته أنامل النقاشين والمصورين وتدل كلها على الذوق والمعاني اللطيفة والإشارات الحسنة.

فمن رسم يمثل الغناء والعشرة وآخر يمثل الزهور والثمار وغيره يصور أغاني شواطئ السين وآخر يمثل التجارة والصناعة فالأشهر الجمهورية ومناظر كثيرة لأجمل قصور باريز ومعاهدها وأصقاعها وهناك صور رسمت على الحيطان والسقوف في القاعات التي تستقبل بها مدينة باريز في العادة من يزورها من ملوك الأرض وأمرائها ومنها ما يمثل أفراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم وغيرها يريك الطبيعة الملهمة المربية فالرياضات الطبيعية فالرياضات العقلية وآخر يمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم وفيها ما يمثل المساء في باريز والخيال والولادة فيها والجهاد والنهضة والشعر والفلسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة وذكرى عيد وطني وعيد الخلاء في ضاحية باريز. وبعضها يمثل أبولون وعرائس الشعر والتصوير والأدب والموسيقى

والنقش والهندسة ومنها رمز القصائد الغنائية والأنغام والكدر والتأمل ومن التماثيل ما يرسم التمثيل بالإيماء والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والألعاب ومنها ما يصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيد وتعاطي الشراب. ومنها الموسيقى على اختلاف العصور والطيوب والعطور ومدينة باريز تدعو العالم إلى أفراحها والزهور والرقص في كل عصر من أعصار التاريخ وصور تمثل أهم أقاليم فرنسا مثل الفلاندر وبيكارديا والجزائر وليون ولانكدوك وغاسكونيا والبروفانس وكوسين وبري وشامبانيا وبرتانيا وبورغونيا ووافرن واللورين ونورماندیا وكونتية نيس. ومن صورها ما يمثل الصيف ومنها الشتاء ومنها ما يمثل آسيا وأوربا وأميركا وإفريقية ومنها ما يصور تأليه العلوم وهو رمز لعلم الأحداث الجوية والكهربائية وتعليم العلم وتمجيد العلم وأربع أيقونات تمثل علم الطبيعة والنبات في شخص أراغو وامبر وكوفيه ولافوازيه. ومنها رمز إلى ساعات الليل والنهار ومشاهد الأفراح والأعياد.

وفي ردهة الآداب صور ترسم لك عرائس الشعر والإلهام والتفكر وتاريخ الكتابة وأعظم الأعمال الأدبية وأربع أيقونات لأربعة أدباء وهم موليير وديكارت وفيكتور هوغو وميشله ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ وهناك رمز بديع يشير إلى أن التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تحرر الأفكار من قيودها وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان نائمان وهما يمثلان الأدب.

وفي سقف ردهة الفنون صور كثيرة منها ما يمثل تغلب الفنون وخيال الكمال والحقيقة والرقص والفنون والنقش والموسيقى والهندسة والرسم وغير ذلك من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتماثيل التي تشير كل واحدة منها إلى معنى من المعاني وفائدة من الفوائد وكلها من حفر أو رسم أو نقش أعظم رجال هذا الشأن في العالم ولا سيما من أهل

فرنسا جلعت هناك نموذجًا مما خصوا به من المزايا وسعة العلم وبعد النظر وحسن الذوق.

وعلى الجملة فإن الشرقي الذي يزور قصر المجلس البلدي في باريز تصغر بلاده في عينه ويكاد ييأس من ارتقائها ونهضة أبنائها.

أما أعمال هذا المجلس الذي تبلغ ميزانيته مئات الملايين فلا أقول فيها إلا أنها عظيمة جدًّا ويكفي أن المجلس طلب من الحكومة هذه الأيام أن تسمح له بعقد قرض قدره تسعمائة مليون فرنك ليطهر بعض أحياء باريز فأذنت لأنه ثبت أن بعض الأمراض تكثر في حي دون آخر فالواجب العناية بها حتى لا تسطو يد الفناء عليها أما أنا فلم أر على كثرة تجوالي راكبًا وماشيًا في شوارع باريز وأحيائها موضعًا تحدثك النفس أنه محتاج للإصلاح بعد لكثرة ما ترى كل شيء في مكانه وأن مدينة باريز تنفق على أضواء الكهرباء والغاز الذي تنير به شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة ما يبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول السنة فتأمل.

تاريخ الحضارة الفرنسوية

٢٤

بسطنا القول في الفصول السالفة في كل ما يهم عن معرفة باريز وها نحن أولاء نتوخي في هذا الفصل أن نلم بطرف من عمران فرنسا بأسرها وأثرها في الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد وما هذه النبذة إلا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسوي بتصرف كثير وزيادات.

فرنسا مملكة عظمى في أوربا الغربية يحدها المحيط الأطلانطيقي وبحر الشمال أو المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق جبال الألب والجورا والفوج ويفصل بينها وبين البلجيك وألمانيا خط اتفق عليه من الشمال الشرقي والشمال ومجموعة مساحتها ٥٣٦,٤٠٨ كيلو مترات مربعة وسكانها نحو أربعين مليونًا أي نحو أربعة أضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية ١١٥,٠٠٠ كيلو متر مربع والفرنسيس كجميع سكان أوربا أخلاط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذو قوة عقلية حقيقية واختلفت صفاتهم وميولهم لمذاهب المعاش وإن فرنسا لغنية بزراعتها أكثر من غناها بمناجمها ومع هذا فهي تعد من أغنى البلاد وزراعتها أرقى زراعة في الأرض ويندر في أرضها الذهب والفضة والزئبق والنحاس والزنك والرصاص والقصدير والزرنيخ والنيكل والأنتيموان والكبريت ولكن عندها ما يلزمها من الحديد والفحم الحجري.

وإنك لتدهش إذا عرفت أن جزئين من ثلاثة عشر جزءًا من أرضها تزرع وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعوسج ولها في تربية المواشي والحيوانات يد طولى وتجد المعامل الكبرى قائمة في الضواحي الغنية بالفحم الحجري والحديد والمحاصيل الزراعية القابلة للتحول وقد امتاز كل إقليم بصناعة وباريز هي ملكة المدن الصناعية في فرنسا لأنها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات.

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة الفحم الحجري وكثرة السكان وفيها صناعات اشتهرت شهرة الشمس والقمر كما امتاز إقليم الآردن بالجوخ وأعمال الحديد والألواح الحجرية وامتاز إقليم شامبانيا ونورماندیا بالجوخ وأعمال الحياكة والنسيج وإقليم فرانش كونتيه بعمل الساعات وليون وسان اتين بالمنسوجات الحريرية وامتازت المقاطعات المجاورة

لها بتربية الحرير والغزل وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصيني والكاشاني وفي ضواحي إنكولم على الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق ولمرسيليا الميزة بصابونها ولإقليم البروفانس بزهوره العطرة التي تستعمل في الطيب وعلى الجملة فإن صناعات فرنسا من أنفس ما تصنع صنع الأيدي في العالم ولا سيما في منسوجاتها الحريرية وصناعة الجوهرية والبلور والأواني الصينية الدقيقة وكلها مما جعل فرنسا في مقدمة ممالك أوربا.

تقسم فرنسا من حيث أمورها الإدارية إلى ٨٧ إيالة وهذه تقسم إلى ٣٦٢ ولاية و٢٨٩٩ كورة و٣٦١٧ مديرية ولها مجلس نواب ومجلس شيوخ ينتخب أعضاء الأول كل أربع سنين وأعضاء الثاني كل تسع وهذان المجلسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين والقوة الإجرائية بيد الوزارة وهي المسؤلة أمام القوة التشريعية وتقسم هذه البلاد من حيث المعارف والأديان والبحرية والبرية إلى مناطق كثيرة تخالف ترتيب الايالات وكلها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد.

ومن نظر إلى تاريخ فرنسا السياسي والاجتماعي يتجلى له أنها هي بلاد غاليا المستقلة وهي عبارة عن ولاية رومانية على عهد مملكة الرومان افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨-٥١ق.م ولم تكن إذ ذاك إلا خليطًا من العناصر والقبائل لا وحدة بينها ولا جامعة تجمعها ففي الشمال قبائل جرمانية وفي الوسط سلتبة وفي الجنوب والغربي أيبرية وفي الجنوب الشرقي ليكورية وفي الولايات الرومانية مدن يونانية ومستعمرات إيطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة ولم تكن لهم وحدة سياسية ولا رئيس أعلى بل كانوا عبارة عن نحو مئة من الشعوب

لهم أوضاع مختلفة ويحكم على معظمهم مجلس شيوخ ومن هذه الشعوب من يعيش على حال انفراد ومنها متحدة بينها على التساوي ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه أحق بها.

وكانت المدن قليلة جدًّا في بلاد غاليا وغاية ما كان فيها ملاجئ لأوقات الغارات وهي مراكز الأسواق والزيارات فبلاد غاليا كانت بلادًا زراعية وسكانها ثلاث طبقات الأشراف والمحاربون ومنهم ينتخب أعضاء مجلس الشيوخ والملوك والفرسان وعامة الشعب كانوا فدادين نقرب حالهم من العبودية ولم يكن يملك الأراضي أحد ثم أصبحت ملكًا للأسرات الشريفة أما الحرائون فهم من توابع الأرض ويجيء بعدهم العبيد ويعدل من حال الأشراف طبقة الدرويد وهم الكهنة والأطباء والمنجمون والقضاة ولا سيما في أواسط البلاد.

ولما استقام أمر الرومانيين أقاموا زعيمًا عامًّا على البلاد ممتعًا بالسلطة المطلقة متصرفًا بالقوة الحربية والمدنية والدينية ونعني به الإمبراطور وهو زعيم الحرب والمشرع المطلق والقانون الحي والرئيس الروحي و الرب ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة الرومانية بما أتاها من جيوش الرومان وتحرفت لغة الفاتحين فأصبحت اللغة اللاتينية الحقلية وغدت كل أمة غالية مقاطعة برأسها يرأسها زعيم وأخذت التجارة والصناعة ترتقي ولولا أنه كان من حق الممالك أن يبيع الأرض بفلاحيها وهو الحاكم المتحكم في حياتهم ومماتهم لركن الفلاحون إلى الفرار.

ولما أخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعدها إلى الأرياف إلا بعد زمن وكان من فوائد انتشارها أنها أعلنت بأن الأحرار والعبيد سواء أمام الله، هذه هي الفائدة الأخلاقة أمام الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين بنظامهم الذي أخذوه

عن نظام الحكومة ولم يمض الأزمن قليل حتى أصبحت الكنيسة حكومة وسط حكومة تجبي أموالًا من الناس ويغدق المؤمنون وأحيانًا الإمبراطورة عليها من المال ما تكونت منه ثروة طائلة وتعفى أملاكهم من الخراج كما يعفى خدمتها من المحاكمة مع الشعب بل كثيرًا ما يحاكم الشعب نفسه في الكنيسة ولطالما كان الأسقف في ابرشيته خصمًا للحاكم السياسي ورقيبًا عتيدًا عليه.

ولما سقطت المملكة الرومانية تجزأت غاليا إلى عدة ممالك بربرية كالفرنك والبورغوند والفيزغوت وعادت كلمة البلاد إلى الانتشار بعد الاجتماع ولم يكن ملوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كسائر الملوك البرابرة ولا يقيمون للحكومة وزنًا ولئن كانوا يلبسون الثياب الأرجوانية ويضعون التيجان على رؤوسهم كإمبراطور الرومان إلا أنهم لم يكن لهم جيش دائم وليست لهم طريقة منظمة في الجباية كما أن اللغات في البلاد تعددت وكلها لهجات من أصل روماني تمازجها لهجات بربرية وعادت سلطة الأشراف وسلطة رجال الدين تقوى حتى لم يعد يعترف السواد الأعظم من الناس بالزعامة عليه إلا لهم ومنه يطلبون الإنصاف ولهم يدفعون الجزية والخراج وخربت المدن وهاجر رؤساء الجيش والأديار إلى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الأمن في البلاد وكاد الفلاح يكون عبدًا لسيده كما في سابق الأعصار وفي اليمين الذي أقسم سنة ٨٤٢ في ستراسبورغ ظهرت لأول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين ومنها نشأت اللغة الإفرنسية وفي معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعترف بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريز.

وما زالت الملوك تتوالى عليها وتختلف في المبادئ والأطوار حتى قبيل نهاية القرن الثامن وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسوي وزاد عدد المالكين من أبناء القرى زيادة مبهمة وارتقت الصناعة والتجارة على ما

كان يقف في سبيلها من القيود الكثيرة والأنظمة المنوعة وارتقت الأدبيات وتحررت من قيودها القديمة وأخذت الفلسفة تبحث في التسامح الديني والحرية السياسية وإصلاح القوانين الجنائية وتمايز الطبقات الاجتماعية وعارض مونتسكيو نظرية أن الملك ملهم من الله وحقه إلهي على سكان الأرض بنظرية الحكم الملكي النيابي ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعي.

نبهت مجالس النواب في مكافحتها سلطة الملوك (سنة ١٧٨٨) أفكار وكلاء الشعب فبدأت الأمة ترفع صوتها وكان الملوك يخفتونه ولا يرون لها حقًّا في مطالبتها بحق واتفق إن وقعت البلاد في عسر مالي فاجتمع وكلاء الأمة ينظرون في حل ما أصابهم فنشأت بعد حين الثورة الأولى (١٧٨٩) وأعلن لويز الرابع أن الأمة كلها للملك ولكن جاء في قانون حقوق الإنسان والوطني أن مبدأ كل سلطة ينبعث من الأمة بجوهره فما من جماعة ولا من شخص يستطيع أن يحكم حكمًا لا يكون صادرًا عنها بالفعل وهكذا مات حق الملوك الإلهي المزعوم وأتت الثورة على أعشار رجال الدين والإقطاعات والسخرات والأحكام التي يحكمها أرباب الإقطاع وساوت بين الناس في الواجبات والضرائب وقضت على قليل الكفاءة من أرباب الغنى أن توسد إليه الوظائف الكنائسية والحربية بدون استحقاق وحمت الحرية الشخصية وحرية الضمير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن وتساوى كل وطني من أكبر كبير إلى أصغر صغير في الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كل بحسب طاقته وثروته.

هذا موجز الأساس الذي قام عليه بناء النظام الجمهوري ثم عراه قليل من التعديل بتقلب أنواع الحكومات وقيام بعض الأدعياء بالملك إلى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع ألمانيا وعندها استقرت الحال على ما تراها إلى اليوم

أما نشأة الآداب والعلوم فلكل منها تاريخ ويقال على الجملة إن اللغة الفرنسوية هي بنت اللغة اللاتينية تكونت على صورة غريبة إلى أن وصلت في عشرين قرنًا إلى حالتها الحاضرة وكانت أدبياتهم دينية لأول أمرها وبعضها شعري ونثري وأكثرها خرافي ولم تخلص اللغة من القيود العائقة إلا في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وتاريخ العلم ونشؤه فيها طويل كتاريخ الأدب ويقال على الجملة ؟؟؟ كانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد في بلاد غاليا واشتهرت مدرستها كمااشتهرت كليات آثينا وكلية الإسكندرية وكان بيتياس أحد أبنائها الذي ولد نحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح لا يقل عن أعاظم الفلكيين في القديم وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الروماني في البلاد المهمة والتعليم فيها عبارة عن مبادئ عملية من الحساب والمساحة والبناء ثم جاء دور الانحطاط التام فأصيب الغرب بغارات البربر ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية إلا بعد ثمانية قرون بفضل العرب وبينا كان التمدن الإسلامي بالغًا أوجه كانت العلوم منحطة كل الانحطاط في أرض فرنسا. ولم ينتشر الطب والصيدلة في فرنسا إلا بمساعي أطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر فاعتصموا بأسبانيا أولًا ثم بإقليم لانكدوك حيث أسسوا عدة مدارس ومن جملتها مدرسة مونبليه وهذا كان مبدأ انتشار العلم في هذه الأرض فعن العرب أخذ الفرنسيس فيما مضى حضارتهم ونحن العرب اليوم نأخذ عنها وندهش بحضارتهم فسبحان المعز المذل القابض الباسط.

الصحافة الباريزية
٢٥

نشأت الصحافة هنا في مبدأ أمرها بنشر أخبار الملوك والوزارات والموظفين والحروب والدول ثم ارتقت بارتقاء المدارك إلى أن صارت تلم بمعظم الموضوعات التي تهم القراء وتعلمهم، وعلى عهد الثورة اشتد ولوع الناس بالاطلاع على الحديث والآراء السياسية وإلى هذا العهد ظل الصحافي وراء منضدته يكتب ليفيد مثل الأستاذ على منبره والواعظ في معبده لا يقصد إلا تثقيف عقل وتربية نفس.

ولما تكالبت النفوس على المال واتسع للصحافة المجال بكثرة المواصلات والبرقيات وأخذت التجارة ترقى دخلت الصحافة في طور جديد فبعد أن كانت هي خادمة التجارة أصبحت هي بنفسها تجارة لا يقصد منهاإلا الربح وأول من أنزل أجور اشتراكاتها أميل جيراردين مؤسس جريدة لابريس سنة ١٨٣٦ من ٨٠ أو ٦٦ فرنكًا قيمة الاشتراك بالجرائد الكبرى إلى ٤٠ فرنكًا وهي قيمة زهيدة لا تعادل النفقات إنزالها ليكثر قراؤها وإذا كثر قراء جريدة أقبل الناس عليها بإعلانتهم ومنشوراتهم فاستطاعت بعض الصحف أن تعيش مستقلة عن معونة الأفراد والحكومة والأحزاب.

ولكن هذا الاستقلال وإن لم يكتب لها كلها إلا أن سعيها وراء الإعلانات وخدمة الشركات والبيوت المالية قيدها أكثر من قبل بل أخرجها عن المقصد منها حتى صارت العشرون الجريدة الكبرى الباريزية اليوم عبارة عن سمسار لا يهمه إلا أن يقبض العمالة من البائع والشاري وغدت الجريدة من مقالتها الافتتاحية إلى أنبائها البرقية فرفرف قصصها

وتقاريظ الكتب والحوادث الداخلية والخارجية والأنباء المنوعة والمقالات الأدبية والاقتصادية والسياسية والإعلانات والمنشورات وغير ذلك مما تخوض الصحف عبابه مثل أخبار دور التمثيل والرياضات البدنية والسباق لا ينشر منها اسم ولا سطر إلا قبل أن يذهب صاحبه الذي يهمه وينقد أمين صندوق الجريدة مبلغًا معلومًا عنه وعند ذلك ينشر له من الأفكار والمحامد ما يشاء وتشاء الأهواء.

فإن كتبيًا أو طابعًا لا يقدر أن ينشر كتابًا طبعه إلا إذا انتقده كاتب أو عالم كبير وهذا إذا فرض أنه رضي بأن يخدمه بالمجان يسأله مدير الجريدة عن ربح الإدارة من ذلك. فمقالة في تقريظ كتاب قد تكلف الطابع ألفي فرنك يأخذ نصفها كاتبها الموقعة باسمه والنصف الآخر مدير الجريدة ومثل ذلك يتناولون من المصورين [1] والموسيقين والممثلين والراقصات والعقيلات والآنسات والأعاظم والأصاغر لا تدون أسماؤهم بالطبع قبل أن يرشوا إدارة الجريدة بمال ترتضيه وكل ما تراه من أخبار الدعوات والرياضات والمآدب ووصف الأزياء مع بائعات الزهور والجوهريين والخياصات والخياطين يدفعه أرباب المأدبة وتجار هذه الأصناف بل إن أخبار الأعراس والأفراح وأخبار المناعي والأموات لا تكتب إلا لمن تؤخذ منه أجرتها والأعمال الأدبية مهما بلغ من مكانتها لا تذكر بكلمة قبل أن يدفع صاحبها جعالة لقاء ذكر اسمه.

وهناك الماليون وأرباب التجارة يريدون أن يعبثوا بحوالة الأسواق ويعرفون أن السياسة تؤثر كثيرًا في أعمالهم فيعمدون إلى ابتياع الجرائد لتكتب في السياسة على هواهم فيرفعون الأسعار يوم يريدون الرفع

---

(١) اعتمدنا في معظم هذه المقالة على ما جاء في كتاب (كيف تقرأ الجرائد) الذي صدر حديثًا في باريز لمؤلفه جورج فونكريف George Fonsegrive: Comment Lire les Journaux

ويخفضونها كذلك بما لهم بواسطة هذه الجريدة من التأثير في الأفكار العامة ومنهم من يبتاع من الجرائد كلامها كما يبتاع منها سكوتها فدار اللعب في إمارة موناكو تدفع مشاهرات إلى جميع الصحف الكبرى لتسكت عما يحدث فيها من ضروب الانتحار والخراب والفجائع التي تنشأ من المقامرة كما تدفع مبالغ جسيمة أيضًا في أوقات معينة لتأخذ الصحف في حمد مرافق مونتكارلو ونزلها ودور تمثيلها وسواحلها وصفاء العيش فيها.

وإن أعظم علماء الاقتصاد لا تنشر له مقالة في موضوع مالي قبل أن يوافق عليها المصرف الذي ابتاع من الجريدة روحها المالية ليصرفها كما يشاء وبعد حادثة بناما التي ظهرت فيها رشاوى الصحف الإفرنسية لم يعد يقدر الإنسان أن يقرأ سطرًا في شأن مالي في جرائدهم إلا ويشك فيه.

وهكذا أصبحت الصحافة الباريزية مقيدة في صورة حرة مطلقة ففي وسعها أن تضرب في كل ما تريد وتنزع كل أساس وتهاجم كل موضوع وتغتاب كل امرئ وتنم عن كل عمل وتفتات على كل فرد ولا يحظر عليها إلا شيء واحد وهو أن تكشف الغطاء عن الأسرار المالية فإذا فعلت يحكم على الكاتب والناشر والجريدة بأشد عقوبات العطل والضرر وكذلك إذا دلت على الطرق الاحتيالية التي يعيش بها المحل الفلاني منذ سنين.

وعلى ذلك فالجرائد هنا يجب أن لا تقرأ إلا بحذر شديد حتى مقالات الكيمياء أو التاريخ فإنها لا تنشرها إلا ولها منها مآرب تظهر بعد أعمدة من نفس العدد أو في عدد تال، وخف كل الخوف من الصحف التي تخدم الأحزاب جهارًا فإن هذه تقلب الحقائق الناصعة وتجسم

الحوادث أو تضعفها بحسب هواها وتستعمل من السفسطة ما يضحك ويبكي.

فكأن الصحافة الباريزية جعلت لقلب الحقائق لا تقدر أن تسقط فيها على حقيقة خالصة من الشوائب فهي تزيد إلى ضعف البشر الطبيعي وغلطهم وخطأهم أمورًا تأتيها بذاتها بالقصد لتحريف الحق وتشويهه فمنها ما يخضع للحكومة في كل ما يكتب ومنها ما يخضع للأحزاب وكلهم خاضعون لزبنهم وكثير منهم يقولون كل ما يريدون على شرط أن يحسن المرء دفع المطلوب منهم. فقد قيل إن الرياء تكريم الرذيلة للفضيلة والصحف الفرنسوية تكرم الحقيقة من هذا النوع أي أنها هي الرذيلة.

هذا ما اقتبسته من فكر الكاتب الفرنسوي في هذا الباب وصاحب الدار أدرى بالذي فيه وقد أجمع العقلاء الذين لقيتهم من أهل العلم والمطبوعات وغيرهم على أن الصحافة الفرنسوية كلها ترتشي وتلفق في أحاديثها وتكذب في رواياتها ما عدا جريدة (الأمانيته) أي الإنسانية وهي لجرويس أحد زعماء الاشتراكيين تعيش من وارداتها الشرعية ولا تسف لتناول رشوة من أحد وإن الصحافة الإنكليزية أشرف غاية وأنبل قصدًا وأكثر مادة وأوسع مصادر أما أنا فعللت هذا التصريح من أصدقائي الفرنسويين بأن إنكترا هي أرقى الأمم بأخلاقها والأخلاق هي معيار الأمم والجرائد مرآتها.

ومن الصحف الباريزية ما يصدر صباحًا وأكثرها جرائد لا تهتم بالمسائل السياسية بل بالأمور المالية والحركة الأدبية كدور التمثيل والخطب وغيرها أما جرائد المساء فأكثرها يهتم بالسياسة فالطان والديبا من الجرائد المسائية والجورنال والماتين والبتي باريزين والبتي جورنال

من الجرائد الصباحية والجرائد طبقتان قسم لعامة القراء وهي التي ينادي عليها المنادون في الشوارع بأعلى أصواتهم وتباع في كل مكان فيقرأها البواب والحوذي والمساح والكساح وسائق الأتوموبيل والشرطي والمرتزق وبعض التجار وذلك كأكثر الجرائد الصباحية وقسم للطبقة العالية وأبحاثها لهم بالطبع مثل الطان والديبا والغولوا والفيغارو وهذه لا ينادى عليها وتباع بثمن أغلى فالطان يبتاع عددها بثلاثة فلوس أو خمسة عشر سانتيما في حين تباع تلك الجرائد العامية بفلس واحد وهي أكبر حجمًا وأوسع مادة من هذه ولكن شتان بين مادة ومادة وحجم وحجم.

وجريدة الطان هي الجريدة الوحيدة التي تعني كثيرًا بأخبار هذا الشرق الأدنى خاصة والسياسة الشرقية عامة وهي جريدة وزارية تقدس كل وزارة تأتي وهذه بالطبع تعطيها أخبارًا وربما أمدتها بمعونة مالية وهي لا تذيل المقالات السياسية والإخبارية بأسماء كتابها على عادة معظم الجرائد السياسية وبذلك قد يقع لها أن تؤيد اليوم في مقالتها الأولى فكرًا مخصوصًا ثم يجيء كاتب آخر من الغد في نفس ذاك المكان من الجريدة فيضعف ذاك الرأي بعينه وينتقده وأعرف الجرائد بالشرق على التحقيق هي هذه وربما كانت جريدة الأيكودي باري من جرائد الصباح أكثر منها مادة برقية إخبارية بدون تعليق على الحوادث ومقالات الطان عن السياسة الشرقية تتناقل لأنها أقرب إلى الثقة والتعقل من غيرها ومع هذا تؤخذ بكل حذر شأننا مع عامة الصحف الإفرنجية التي تقول الحق ولكن إذا صادف هوى لها وهيهات أن تقوله بدون عوض. ولقد كنت أظن جريدة الديبا وحدها ترتشي من السلطان عبد الحميد المخلوع ولكن علمت هنا أن الطان أيضًا على ما فيها من الغمز واللمز بالدولة كانت لا تستنكف من قبض الخمسة آلاف ليرة من أعوان ذاك السلطان لتكتب على هواه يومًا تعلم المخلوع بمكانة أقوالها في الأندية السياسية.

وأنواع الجرائد هنا كثيرة ومنها اليومي الذي لا يكتب إلا في موضوع واحد مثل جريدة (كوميديا) وهي تبحث في دور التمثيل والقصص التمثيلية والفاجعات وغيرها ومنها جرائد للسباق مثل جريدة (الأوتو) وهي لنشر أخبار سباق الحوافل (الأتوموبيل) وغيرها من أنواع السباق ومن جرائدهم ما هو خاص بتأجير الأملاك والعقارات ومنها الخاص بطلاب الزواج وطالباته ومنها للأزياء وأخرى للعطور والطيوب ومنها للأخبار الخلاعية ولكنها مقصورة على طبقة خاصة تطبع سرًّا وتوزع كذلك وإذا رآها الشرطة صادروها وأنزلوا العقوبة الشديدة بكاتبها وبائعها ومشتريها.

أما تنظيم إدارات الجرائد الكبرى فهو الغاية ولا سيما الأمهات منها مثل (الماتين) وهي في أعظم جادة وبنايتها أجمل بناية وآلاتها الطابعة أحسن الآلات فيها اثنتا عشرة تطبع الواحدة مئة ألف نسخة في الساعة زرتها مع زهاء سبعين رجلًا وامرأة رأيتهم سبقوني إلى زيارتها فما رأيت نظامًا أتم ولا استعدادًا استوفى من الكمال أوفى القسم ومن أحسن ما قرأته مما كتب فوق غرف المحررين (خلق المحرر ليكتب فلا تشغله فيما لا يعنيه) وزرت أيضًا إدارة البتي باريزين وهي دونها في الاستعداد وإن لم تكن دونها في الانتشار والنفاد.

الطباعة الباريزية
٢٦

ألمعنا مرات في الفصول السالفة إلى تفنن الباريزيين في الأمور الذوقية والطباعة من جملة فنون الذوق وإن كانت تتوقف على علم وفضل وتجربة، وأجور الطبع هنا غالية لغلاء الأسعار وأجور الدور

والمنازل فالعامل الجيد لا يرزق أقل من نصف ليرة وأقل عامل لا يرزق أقل من أربعة فرنكات في يومه ولذلك ترى بعض أرباب المجلات وغيرهم من المؤلفين والطابعين يطبعون مجلاتهم وكتبهم في مطابع الولايات لرخص أجورها وجودة طبعها الذي لا يختلف عن المطابع الباريزية في شيء.

ومن جملة المطابع العظمى التي زرتها مطبعة الأمة أي مطبعة الحكومة التي أسسها لويز الثالث عشر سنة ١٦٤٠ ثم نقلت إلى قصر الكردينال روهان من أجمل القصور الباريزية القديمة المعروف ببيت أساقفة ستراسبورغ وقد أنشئت لها بناية هائلة في شارع الكنفاسيون لضيق هذا المكان على سعته البالغ سطحها عشرة آلاف متر مربع.

تدخل من الباب فترى في فناء الدار تمثال غوتنبرغ مخترع الطباعة والمتفضل على الإنسانية معمولًا من البرونز فلا تتمالك من الدعاء له وذكر بيض أياديه على العالم ثم يأخذك الدليل في الوقت الذي تعينه لك إدارة المطبعة ويطوف بك قاعات مسابك الحروف وفيها حروف في ثمانين لغة واللغة العربية في مقدمة لغات الشرق رأيناهم في بعض الغرف كتبوا بيتًا من الشعر العربي ليمرن الأستاذ العملة على تعلم هذه اللغة فيحسنوا تنضيد حروفها بفهم.

ثم طاف بنا الدليل قاعات التنضيد والتجليد والطبع والطي فرأينا كل شيء قد جعل في مكانه اللائق به والعملة والعاملات يعملون في مكان واحد كتفًا إلى كتف وقد يتولى الأعمال الشاقة الرجال من دون النساء. وعدد العاملين والعاملات في المطبعة يناهز الألف والخمسمائة وفيها ما يربو على ستين آلة طابعة على آخر طرز منها خمس آلات من المعروف بالروتاتيف وعلى مثلها تطبع جميع الجرائد الكبرى في الغرب اليوم.

وتنفق الحكومة على هذه المطبعة نحو تسعة ملايين فرنك مسانهة وفيها تطبع الجريدة الرسمية ومطبوعات الحكومة والنظارات ومناشيرها وفهارسها وأوامرها فالاستعداد فيها تام لكل ما تطلب الحكومة طبعه وليس في وقتها متسع لطبع مطبوعات الأفراد وناهيك بمطبعة حوت من الأدوات ما يلزمها من سبك الحروف حتى التجليد وناهيك بكثرة أشغال حكومة الجمهورية التي تقع ميزانيتها وحدها في ثلاثة آلاف صفحة كبيرة يطلب طبعها في وقت قصير وهذا لا يتيسر إلا بمطبعة متقنة جدًّا.

ولهذه المطبعة معامل للتصوير الشمسي وطبع الصور والطبع المحفور المجوف والحفر على الخشب والحفر على النقش والحفر الناتيء على النحاس والزنك والطبع الملون وطبع الحجر والتصفيح والطبع المنحس وغير ذلك من التفنن في الطباعة. وتسمح المطبعة بإعارة الطابعين بعض الحروف الغريبة من اللغات الأجنبية ولا تطبع من الكتب إلا ما كان بلغة غريبة لا يوجد من حروفها في كل مطبعة وذلك لمحض خدمة المعارف والفنون.

هذه جملة ما يقال في مطبعة الأمة ولو جمعت مطابع مصر كلها ما دانتها بالمكانة وكذلك لو جمعت مطابع الآستانة وأضفت إليها مطابع الولايات العثمانية برمتها والمطبعة التي تنفق عليها الحكومة نحو أربعمائة وخمسين ألف ليرة في السنة يستحيل على حكومة كالحكومة العثمانية والمصرية أن تقوم بمثلها وهي لا تنفق على المعارف كلها نحو هذا القدر من المال أو أكثر منه بقليل فتأمل.

مدرسة فرنسا
٢٧

من المعاهد التي استغرقت شطرًا كبيرًا من وقتي في باريز دروس مدرسة فرنسا (كوليج دي فرانس) لسهولة التلقي فيها في كل علم يخطر في البال ولأن هذه المدرسة ذكرتني بمدارس الإسلام أيام حضارتنا، وقد جعلوا العلم مباحًا لكل طالب يلقنونه إياه بلا عوض.

في شارع المدارس بالقرب من كلية السوربون قام بناء عظيم أسسه فرنسيس الأول ملك فرنسا حوالي سنة ١٥٣٠ وجعل فيه درسين الأول لتعلم اللغة الرومية والثاني للعبرانية وسمى المدرسة مدرسة الملك فرأت الكلية إذ ذاك أن قد استهين بها فأوعزت إلى مدرسة اللاهوت أن تتهم مدرسي مدرسة الملك بأنهما يدعوان إلى الزندقة فحال الملك دون صدور الحكم عليهما وأضاف إلى المدرسة درسًا في الفصاحة اللاتينية ليخلص وجماعته من تهمة الإلحاد، وما زال عدد الدروس يزيد على عهد كل الملوك حتى أضاف إليها هنري الثالث درس العربية ونابليون الأول درس التركية ولم يبرح بناؤها ودروسها عرضة للقلب والإبدال حتى على عهد الجمهورية الثالثة.

ولقد أصبحت هذه السنة الدروس التي تلقى على الناس مجانًا ٤٩ درسًا يصح أن يقال فيها إنها مجموعة علوم البشر يتولى تدريسها أعظم أساتذة هذه البلاد وعلمائها ممن اشتهروا بفن أو علم أو لغة وصرفوا في البحث فيه شطرًا مهمًّا من حياتهم ولم أر في هذه المدرسة أستاذًا تقل سنه عن ستين إلا بعض المعاونين ممن يتجاوزون الأربعين، وينتخبهم المجمع العلمي أو المجامع العلمية الخمسة، وأساتذة المدرسة ويقبض

الأستاذ عشرة آلاف فرنك في السنة ولا تتجاوز مدة الدروس ستة أشهر يتلو في خلالها درسين في كل أسبوع فقط.

أما العلوم التي تلقى على جمهور المستمعين فهي ١- علم الأثقال التحليلي والسماوي. ٢- العلوم الرياضية. ٣- علم الطبيعة والرياضة. ٤- الطبيعة العامة والتجربية. ٥- الكيمياء المعدنية. ٦- الكيمياء العضوية. ٧- الطب. ٨- علم الحياة العامة. ٩- تاريخ الأجسام الغير العضوية الطبيعي. ١٠- علم تكوين الجنين. ١١- التشريح العام. ١٢- علم النفس التجريبي. ١٣- تاريخ العلوم العام. ١٤- تاريخ تشريع المقابلة. ١٥- الاقتصاد السياسي. ١٦- الجغرافيا والتاريخ والإحصاء الاقتصادي. ١٧- تاريخ العمل. ١٨- جغرافية فرنسا التاريخية. ١٩- تاريخ الأديان. ٢٠- الفلسفة الاجتماعية. ٢١- علم الاجتماع الإسلامي. ٢٢- علم الجمال وتاريخ الفنون. ٢٣- علم الكتابات والعاديات الرومانية. ٢٤- الكتابات والعاديات اليونانية. ٢٥- الكتابات والعاديات السامية. ٢٦- الآثار المصرية وأصول لغاتها. ٢٧- الآثار الأشورية وأصول لغاتها. ٢٨- الآداب العبرانية والكلدانية والسريانية وأصول لغاتها. ٢٩- الآداب العربية واللغة العربية. ٣٠- النقود القديمة ونقود القرون الوسطى. ٣١- آداب اللغات الصينية والتترية والمنشوية ولغاتها. ٣٢- آداب اللغة السنسكريتية. ٣٣- آداب اللغة اليونانية. ٣٤- فقه اللغة اليونانية. ٣٥- تاريخ آداب اللاتينية. ٣٦- التاريخ الوطني والعاديات الوطنية. ٣٧- الفلسفة الحديثة. ٣٨- اللغة الفرنسوية وآدابها في القرون الوسطى. ٣٩- اللغة الفرنسوية الحديثة وآدابها. ٤٠- أصول اللغات الجرمانية وآدابها. ٤١- لغات أوربا الجنوبية وآدابها. ٤٢- اللغات والآداب السلتية. ٤٣- اللغة السلافية وآدابها. ٤٤- علم النحو المقابل. ٤٥- العادات الأميركية. ٤٦-

الرياضات. ٤٧- تاريخ فن الموسيقى. ٤٨- التاريخ العام والطريقة التاريخية. ٤٩- أصول اللغات الهندية والصينية وتاريخها.

هذه العلوم التي تدرس في مدرسة فرنسا ولا يستغرق الدرس منها ساعة يتلو في خلالها الأستاذ زبدة علمه وبحثه ولا يكثر المستمعون إلا في بعض الدروس التي رزق أساتذتها فضل بيان وطلاقة لسان وأكثر الحضور غرباء أي غير فرنسويين وفيهم كثير من الفتيات طالبات العلم ممن قصدن فرنسا من ألمانيا وإنكلترا وروسيا والنمسا وإيطاليا وبلغاريا ورومانيا والصرب والسويد إسبانيا وأميركا ليغترفن من مدارس باريز ويحكمن لغتها الجميلة. فكأن أهل هذه العاصمة زهدن في حضور هذه الدروس المجانية وأزهد الناس في الرجل أهله وجيرانه، وإن دروسًا يعد من جملة أساتذتها لفاسور وبول لوروا بوليو الاقتصاديين وماسبرو وغانو الأثريين وجوليان ومونو المؤرخين وبرجسون وريبو الفيلسوفين وغيرهم من الأئمة الأعلام لحرية بأن يستفيد منها كل طالب ويغترف من درر بحورها عاشق العلم.

وإن هذا المعهد ليولي فرنسا شرفًا ليس وراءه غاية ويدل على تفانيها في نشر المعارف والأخذ بأيدي القائمين عليها وينادي بلسان الحال والمقال على توالي العصور والأجيال إن فرنسا إذا هرمت في سياستها وأخلاقها فهي على الدهر فتية في جمال علمها وجدة حكمتها.

التجارة الباريزية
٢٨

لم يكتف الفرنسويون بل الغربيون بما بلغوه من أسباب الراحة والرفاهية بل تراهم يعملون ليلهم ونهارهم لئلا يسبق بلد بلدًا آخر أو

مملكة مملكة أخرى كأن المنافسة التي هي من أعظم عوامل الارتقاء قد تجسمت في صدر الكبير والصغير من الإفرنج فكان من آثارها ما يبهرنا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة.

رأيت روح الاجتماع مستحكمة في أعمال الأوربيين فلا يكاد يأتي زمن قليل حتى تصبح جميع مشاريعهم وأعمالهم شركات وجمعيات ليخفى عمل الفرد ويظهر عمل الجماعة ويتراجع ضعف الواحد أمام قوة المجموع فقد ظهرت لتلك الأمم نتائج الاشتراك جماعة ظهورًا لا ينكره إلا من يكابر حسه ويغش نفسه فأنشأ من كانوا إلى الإنفراد في متاجرهم ينضمون بعضهم إلى بعض ومن عاشوا بالوحدة يربحون ويخسرون فلا يدري بهم أحد عدلوا عن سالف طريقتهم واقتدى المتأخر بالمتقدم أو العناصر اللاتينية والسلافية بالعناصر الإنكليزية السكسونية.

مثال ذلك مدينة باريز مهد الحضارة اللاتينية فإنك تجد معظم مشاريعها ومتاجرها ومصانعها لشركات ومشاريع الأفراد ومتاجرهم ضعيفة ضئيلة لا تكاد تحيا حتى تموت وكلها آيلة طوعًا أو كرهًا إلى الاندماج في سلك الاشتراك مع الجماعة، دخلت كثيرًا من مخازن باريز فكنت أشهد على قلة إلمامي بفن التجارة روح الجماعة مرفوفة عليها وتعدد القوى زائدة في نمائها وحسن الذوق وسلامة الإبداع تتخلل أرجاءها وتزيد بهاءها.

باريز أعظم بلد تصرف فيه السوق المالية والتجارية والصناعية من فرنسا ورؤوس أموالها مقدمة جميع متجارها ولا تفوقها في ذلك إلا لندرا، وقد بلغ عدد ما في باريز من البيوت المالية والمصارف وشركات الضمان فقط زهاء ألفي محل توشك أن تكون كلها لشركات وأعظم

متاجر باريز بل فرنسا تجارة الأطعمة المحضرة والأمتعة والثياب والأزياء وكلها مهمة جدًّا لا بكثرة عددها بل بمكانتها وفخامتها وانتظام أعمالها.

زرت بعض هذه المخازن من مثل لابل جاردنيير والبرنتان والبون مارشه واللوفر ولافاييت ودوفاييل وكل واحد منها يبتاع بما حوى قطرًا واسعًا من أقطار الشرق ويحتاج وصفه إلى الكلام ساعات على شرط أن يكون المتكلم عارفًا بالتجارة وما يتصرف أو يتوقف عليها وتتوقف عليه وكل مخزن يعد مستخدموه وموظفوه بالمئات ففي مخزن دوفايل وهو لفرش الدور والقصور وما يلزم لها من الأثاث والخرثي والرياش والأواني والسرر والصناديق والمقاعد والمتكآت والكراسي وأدوات الطبخ وكل ما يتصرف تحت أنواع الزينة والتبرج والبذخ والرفاهية ما يأخذ بمجامع القلب ويعد من أغرب غرائب الغرب. ولا يقدر المرء أن يطوف هذا المخزن في أقل من ثلاث ساعات إذا أحب أن يلقي نظرة واحدة على ما فيه من التحف والأمتعة الثمينة وهو قصر فخيم جدًّا لم أر أجمل من نقوشه البديعة وبنائه العظيم سوى متحف اللوفر ومتحف فرسال ودار المجلس البلدي الباريزي وفي مخزن دوفاييل محل للتمثيل ومحل للموسيقى ومحل للألعاب السينماتوغراف يختلف إليها الزائرون باجور معتدلة جدًّا والغرض منها أن يمروا ببعض مخازن ذاك المحل الكبير فيكون مرورهم بها وإلقاء أنظارهم عليها بمثابة إعلان عما فيها من الأعلاق النفيسة وببركة الإعلان يشتري من لم يكن تحدثه نفسه بالشراء.

ومن الغريب أن هذا المكان الذي لا يشبهه في الفخامة إلا أرقى قصور الملوك والأمم كما قلنا آخذ الآن في توسعة مخازنه لأنها ضاقت به على سعتها وما أدري ما هو رأس ماله ولا مقدار أرباحه وعدد مستخدميه وغاية ما رأيت أن مصرفه أشبه بمصرف كبير بل هو في سعته

وكثرة مستخدميه أشبه بمصرف الكريدي ليونيه في القاهرة لا في باريز فإنه هناك العجب العجاب بعينه.

وقرأت في إحصاء أخير إن مخزن لافاييت أحب أن يزيد رأس ماله فقرر مساهموه أن يزيدوه اثنين وعشرين مليونًا ونصف مليون من الفرنكات فإذا كان مخزن واحد زاد رأس ماله في جلسة نحو مليون ليرة عثمانية فكم يكون أصل رأس المال.

ومما هو حري بالنظر في المسائل الاقتصادية أن أهل باريز على شدة كرههم للألمان يبتاعون في بلدهم البضائع الألمانية لرخص أسعارها والتفنن في إبداعها حتى كادت بضائع الألمان تأتي على بضائع فرنسا مع جودة هذه ومتانتها وأصبحت بذلك معظم البيوت التجارية لأناس أو لشركات من الألمان وغيرهم ومثل ذلك قل على ما قرأته في إحدى المجلات عن تجارة لندرا أو تجارة نيويورك فإن القسم المهم منها بيد الألمان يصرفون على الإنكليز والأميركان سلعهم وحكومة إنكلترا وأميركا مع شدة حرصهما على مصلحة قومهما التجارية لم تستطيعا بالتعاريف الجمركية ولا بغيرها أن تقيما سدًّا منيعًا دون تسرب البضائع الألمانية إليهم. ولكن ألمانيا أو العنصر الجرماني ومن لف لفه تحارب هذه الحرب التجارية بسيف العلم والمعارف وسدود الدول لا تقوى على صد هجماتها المعقولة.

ذكر الإحصائيون أن مدارس ألمانيا تخرج كل سنة أربعين ألف طالب وبيدهم الشهادات التجارية فأين يذهب هؤلاء الرجال بعد؟ وهل لهم إلا أن يصرفوا متاجرهم في مشرق الشمس ومطلعها بالطرق الاقتصادية المدهشة، فكم رجل تخرج من البلاد المصرية العثمانية يا ترى حتى الآن في المعارف التجارية وكم طالب أتقن اللغة الألمانية منًا حتى أصبح

يكتب فيها ويترجم منها وإليها كما يكتب الفرنسوية أو الإنكليزية ويترجم بها ومنها.

قال لي أحد علماء الألمان أتدري بأي شيء غلبنا الفرنسيس في حرب السبعين قلت لا أعلم قال غلبناهم لأننا كنا عارفين بما عندهم أما هم فلم يكونوا يعرفون ما عندنا وأنا أقول إن اقتصارنا معاشر العثمانيين والمصريين والسوريين خاصة على تعلم اللغة الفرنسوية في الأكثر هو من الاحتكار الضار فيجب أن نعرف أو بعضنا لغة أمة كبرى تريد أن تحارب العالم حربًا اقتصادية حتى لا يكون مثلنا مثل الفرنسيس مع جيرانهم الألمان قبل حرب السبعين جهلوا ما عندهم فخسروا في مادياتهم ومعنوياتهم.

نعم نتوفر على الأخذ من أوروبا كل ما تمتاز به مملكة من ممالكها فنحول وجهتنا بعد الآن إلى جرمانيا لنتعلم علومها واقتصادها ومتاجرها وبريتها ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق وعن إنكلترا السياسة والعلوم والبحرية وعن إيطاليا الصنائع النفيسة ونجعل للغة الألمانية والإيطالية حظًّا من عنايتنا حتى لا نكون حكرة مضرة لحكومة خاصة من حكومات الغرب فنحن كما نريد في السياسة أن نعامل الدول كلهن بوئام يجب أن نأخذ عن كل دولة راقية أحسن ما عندها حتى لا نكون من الجامدين على أمة بعينها والجامدون في مسائل الدين كالجامدين في مسائل الدنيا لا يخلو حالهم من ضرر على المجتمع.

الإعلان أساس التجارة
٢٩

تقدم في الفصل السالف أن البيوت التجارية في باريز تبيع ما تبيع ببركة الإعلان عن نفسها وهنا مجال لأن أفصل ذاك الكلام المجمل فأقول: كل من زار مدينة أوربية أو أميركية من أبناء هذا الشرق الأقرب يأخذه العجب من وفرة الإعلانات وتفننهم في نشرها والفرنسيس في الإعلانات مقلدون لا مجتهدون قلدوا الأميركان والإنكليز وهؤلاء ينفقون عليها نفقات لا تكاد تصدق فقد ذكروا أن معمل الموازين [١] فيربانك وشركاؤه الذي كان ينفق على الإعلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك مسانهة أخذ اليوم ينفق نحو ثلاثة ملايين ونصف فرنك وقد كان خصص أحد معامل الصابون ثلاثين ألف ريال للإعلان عن مصنوعاته وهو اليوم يصرف ألف ريال في اليوم وتخصص المعامل الكبرى التي تبيع بالمفرق في مدينة نيويورك وحدها زهاء أربعة ملايين ريال في السنة لنشر إعلاناتها في الصحف وفي مدينة شيكاغو يستخدمون البريد لنقل قوائم بإعلاناتهم وقد أنفق أحد أصحاب المخازن لإرسال طبعة واحدة من الإعلانات بطريق البريد ٦٤٠ ألف ريال وليس من محل في أميركا إلا ويصرف خمسة في المئة من أرباحه على الإعلانات وقد أنفق أحدهم ٧٥٠ ألف ريال للإعلان عن موسى له فباع ستة ملايين موسى وكذلك فعل توما بيشام بحبوبه فصرف للإعلان عنها مليوني جنيه.

فاشتهار اسم المعمل أو صاحبه من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي وترداده في أفواه أرقى الأمم وأوحشها موقوف على كثرة التفنن

---

(١) المقتبس م٢ ص٢١٦.

في الإعلان عنه والبذل في هذا السبيل عن سعة حتى قال كارنجي أعظم أغنياء الأميركان: إذا أردت أن تبيع قبعة بريال فإنك تستطيع أن تبيعها بريالين إذا وضعت اسمك عليها وذلك لأنك تفهم الناس بأن لاسمك بعض القيمة.

وذكروا [١] أن شركة ولن سي الأميركية وهي شركة معامل أصواف مؤلفة من ٢٧ معملًا رأس مالها ٦٩٠ مليون ريال وكانت مجموعة أرباحها سنة ١٩٠٢: ١٨٧,٥٠٠,٠٠٠ على حين بلغ مجموع المنسوجات الصوفية المصنوعة في الولايات المتحدة كلها مليارًا و٤٨٥ مليون ريال فبيدها جزء من ثمانية أجزاء من عمل الصوف ذكروا أنها توصلت بفضل التفنن في الإعلان عن نفسها إلى أن كادت تلتهم جزءًا عظيمًا آخر من أرباح الشركات الأخرى إن لم تكن التهمتها حتى الآن.

والطرق إلى ذلك مختلفة فمن ضروب الإعلانات الإعلان في الجرائد والمجلات على اختلاف أنواعها ووضع صفائح منحسة في الصفحة السابعة أو الثامنة أي الأخيرة وإعلانات في شبك ودس الإعلانات في أخبار الجرائد وبين أخبار الرياضات والسباق ودور التمثيل والأزياء وإدماجها في المقالات وتعليقها على حيطان الدور وفي شوارع المدن والقرى وعلى طول السكك الحديدية وفي أماكن النزهة والمناظر التي يسرح فيها النظر وفي عجلات الحوافل والترامواي والسكك الحديدية تحت الأرض وفوق الأرض وستور دور التمثيل والقصور وجميع الأماكن العمومية حتى المراحيض وترسم الإعلانات على القرطاس الذي يضعه الكاتب تحت يده وعلى المقطع والسكاكين وعلبة عيدان الكبريت والدواة والبارومتر وكتب التقاويم وورق النشاف

(١)كتاب الإعلان الرابح المعقول لارين J.Areen: La pulieie lueartive et raisonnee

وبطاقات البريد وتجعل من الورق الملون والمقوى والزجاج والخزف والخشب والمعدن وغيرها. وتبدو في المساء بألوان مختلفة مقطعة بادية بالكهرباء وغيرها مما يطول ذكره.

ومن غريب تفننهم في الإعلانات أن مخزن أدوات نحاسية وحديدية في ليفربول أخذ يعلن في جرائدها بأنه يقدم مفتاحًا بلا ثمن لكل من يضيع مفتاح بابه أو خزانته فبهذه الواسطة كان يأتيه المضيع فينصح له المحل بأن يبتاع قفلًا كاملًا ويغير القفل القديم حتى لا يقع المفتاح في يد لص وربما هانت عليه السرقة فبعض الناس يبتاعون وبعضهم يكتفون بأخذ مفتاح بلا ثمن ولكن النصح يفعل في أكثرهم. واخترع أحد البدالين من بائعي المأكولات المحضرة في لندرا طريقة للإعلان عن محله بأن اغتنم فرصة حضور جوق تمثيل فابتاع مئات من الكراسي لمستخدمي محله أدخلهم على نفقته فتحدث القوم بذلك وذكرته الجرائد فحصل المقصود للمحل بالإعلان عن نفسه. ومن غريب تفننهم أن أحد مخازن القبعات في بلتيمور في أميركا أعلن في الجرائد أنه يريد أن يعرف أحد النساء المحكوم عليهن بالقتل فاهتدى إليها وأعطاها مئة ريال على أن تقول قبل ضرب عنقها هذه الجملة: (كل ما أستطيع أن أقوله الآن هو أن محل مستر بلانك يعمل أحسن القبعات بريالين) ثم قطع عنقها واغتنى صاحب المعمل.

والأمثلة على ذلك كثيرة ويكفي إلقاء النظر على أي حائط أو مجلة أو جريدة لتعرف مبلغ تفنن الغربيين في الإعلان والأساليب في الكتابة التي يختارونها والصور المنوعة ومنها المضحك وغيرها الجدي وبعضها لطيف وآخر بشع ومنها السياسي والأدبي والعلمي وقد جعل الإنكليز السكسونيون للإعلانات قواعد حتى صارت علمًا من العلوم لا يبرز فيه إلا من حسن ذوقه وعرف النقش والرسم والتصوير والطباعة وكان ملمًا

بالاقتصاد السياسي وعلم النفس ومحيطًا بعالم المالية والصناعة والتجارة والجرائد والمجلات وكان ذاهبة بالتفنن والأدب والخطابة حاسبًا كاتبًا مقنعًا يعرف التفنن في المسائل الحاضرة أو يحسن علم الحال.

ولا تعيش معظم الجرائد والمجلات الكبرى إلا بأجور إعلاناتها حتى أن أجرة صفحة واحدة مرة واحدة في جريدة (لادي هوم جورنال) بلغت ألف جنيه ويؤخذ من إحصاء صدر سنة ١٩٠٠ أن في الولايات المتحدة ١٨٢٢٦ جريدة ومجلة بلغ مجموع ما يطبع من أعدادها من كل نسخة ١١٤,٢٩٩,٣٣٤ ومجموعة ما تطبعه في السنة ٨,١٦٨,١٤٨,٧٤٩ وبلغ مجموع إيرادها تلك السنة ٨٧٨,٩٤٨,٢٥٠ فرنكًا منها ٤٧٩,٣٠٥,٦٣٥ فرنكًا من أجور الإعلانات أي ٥٤٠٥ في المئة من مجموع دخلها وتطبع بعض الجرائد نسخًا خاصة بنشر الإعلانات فقط وتوزعها على مشتركيها ومن الجرائد ما يطبع غير الإعلانات وتوزع مجانًا: ويصرف أحد بيوت الثياب في فيلادلفيا نصف مليون فرنك في السنة أجرة صفحة واحدة من إحدى الجرائد الكبرى في تلك المدينة اسمها لروكورد ويصرف مخزن آخر يريد منافسته مليون فرنك على أربع جرائد. ومن كتاب الإعلانات من يرزق ألف ليرة في السنة.

ومن الإعلان الغريب أن بعض التجار ليس لهم بيوت ولا مخازن بل هم يطبعون إعلانات وينشرونها في قوائم خاصة وعلى صفحات الصحف والكتب والرسائل فيرسل الطالبون بالبريد يطلبون منهم ما يشاؤون من بضائع ومأكولات وهم يرسلونها إليهم بالبريد أيضًا وهذه الطريقة اخترعت في الولايات المتحدة لأن ثلاثة أرباع سكانها يعيشون في القرى والمزارع بعيدين عن مراكز التجارة وأشغالهم لا تسمح لهم بالاختلاف إلى المدن لابتياع ما يشاؤون وبهذه الواسطة يوفرون عليهم عناء التعب والمساومة ويصلهم ما يشتهون وهم في أعمالهم وناهيك بما في هذه

الطريقة من تبادل الثقة بين التاجر والشاري وفي شيكاغو وحدها تبيع مثل هذه المحال التجارية في السنة بما قيمته ملياران وخمسمائة مليون فرنك وأن ثلاثة محال منها لتأخذ وحدها كل يوم خمسة وعشرين ألف رسالة في طلب ما يلزم أصحابها. وقد حسبوا أن عشرة ملايين أي ثمن أهالي الولايات المتحدة يبتاعون حاجياتهم على هذه الكيفية.

وإن لأحد هذه المحال التجارية في شيكاغو زبنًا يبلغون مليوني نسمة يتناول منهم في السنة أربعة ملايين رسالة وهذه الرسائل لا تفتح واحدة واحدة بل تجعل كل ستين منها في آلة تفتح كلها بلحظة ثم ترسل إلى مئات من البنات تجعل كل قسم مع قمسه وكل طلب مع ما يضارعه وتجعل في لوالب كهربائية لا تقل عن خمسة عشر ألف لولب وترسل في أسرع ما يمكن إلى البيوت التي تقدم للمحل طلباته وهي لا تقل عن ٧٧ ألف نوع فتأتي كلها على جناح البرق بحيث يكون العمل ما أمكن مستغنيًا عن الأيدي الكثيرة على أن محلًا واحدًا من هذه المحال التجارية التي تبيع بالمراسلة عنده من المستخدمين ٦٢٠٠ مستخدم ولم يكن صاحبه قبل ربع قرن يملك ليرة واحدة وثروته تعد اليوم بملايين الليرات والناس يطلبون إلى محله وإلى غيره من المحال التي على شاكلته كل ما يخطر ببالهم ومنهم من يطلبون أو يطلبن الزواج بواسطته.

وعلى الجملة فإنك لا ترى في ديار الغرب محلًا تجاريًا أو معملًا أو مشتغلًا بالفنون الجميلة بل ولا عالمًا ولا كاتبًا ولا صانعًا إلا وينفق جزءًا من ماله على الإعلانات ليربح المئة مئات وللإعلان يد طولى في عامة الأعمال الصناعية والزراعية والعلمية ولولاه ما رأينا المخازن الكبرى والمعامل الكبرى والجرائد الكبرى فعسى أن يقتدي الشرق بأخيه الغرب في هذا السبيل فيعلن خصوصًا عن أصقاعه الجميلة ليجذب السياح إليها ويربح منهم مئات الألوف من الليرات كما فعلت سويسرا واغتنت بعد

فقرها بكثرة تشويق العالم إلى زيارة ربوعها وكما فعلت فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها من أصقاع أوربا وأميركا مثل مدينة دالاس في ولاية التكساس في الولايات المتحدة فإن أهلها كانوا سنة ١٨٨٠ عشرة آلاف نسمة فأزمع بعضهم أن يؤسسوا ناديًا سموه نادي المئة والخمسين ألفًا أي مدينتهم ستكون سنة ١٩١٠ مئة وخمسين ألف نسمة وما برحوا يتذرعون إلى ذلك بكل حيلة حتى بلغ عددهم سنة ١٩٠٤ :٨٣ ألفًا وتوصلوا إلى أن قال الرئيس روزفلت في خطاب له أن شمالي التكساس هو حديقة الرب ومدينة دالاس تطالب ويحق لها ذلك ذلك أن تكون نقطة دائرة هذه الحديقة.

نعم إن الإعلان أساس من أسس الثروة اليوم بل هو سبب من الأسباب المعقولة المشروعة وأثره في الإعلان عن الأشخاص ظاهر وكم من نابه اشتهر بتحدث الناس في أمره ومن آخر خمل ذكره لأنه لم يعرف كيف يتوصل إلى الشهرة فعاش ومات ولم يدر به أحد فاللهم اجعل الشرقيين من النابهين بحق لا الخاملين المجهولين.

دور التمثيل والأنس والاجتماع في باريز
٣٠

إن ما شهدته من التمثيل العربي المنحط جدًّا في الديار المصرية والشامية زهدني في التمثيل على أنواعه فصرت لا أختلف إلى دار تمثيل إلا متكارهًا وذلك في المدة الطويلة لقلة غنائه وانقطاع الرغبة فيه وأعلل ذلك بأن التمثيل لم يعهده العرب أيام حضارتهم بل لم يكن لهم ما يشبهه في قرطبة ولا في بغداد ولا في دمشق ولا في القاهرة أيام عزتها ولذلك قلمًا مال أبناء العرب إليه ميل الغربيين له وقدروا مزاياه حق قدرها.

ولما حللت باريز كان من أوائل المسائل التي توخيت دراستها حالة التمثيل في الغرب والسر في توفر أهله عليه وخدمتهم له كما يخدم الشعر والموسيقى والخطابة بل جعلوا هذه الفنون خادمة للتمثيل، وأصبح عندهم من ضروريات الحياة كالطعام والشراب لا حياة بدونهما وكذلك التمثيل لا حياة روحية بدون الاختلاف إلى دوره ولو مرة في الشهر إن لم يكن مرة أو مرتين في الأسبوع.

والتمثيل في باريز من أعظم ملاهيها وقل أن تجتمع لعاصمة ما اجتمع لها من ضروبه ولشدة عناية الحكومة به تنفق من مالها كل سنة أربعة دور تمثيل مبلغًا تستعين به على تحسين حالها فتمنح الأوبرا ثمانمائة ألف فرنك والتيانر والفرنسوية ٢٤٠ ألف فرنك مع الدار وتعطي الأوبرا كوميك ٣٠٠ ألف وتعطي الأوديون ١٠٠ ألف فرنك وفي باريز ٥٣ دار تمثيل كبرى ذهبت إلى أشهرها مثل الأوبرا والتياترو الفرنسوية والأوديون والشاتليه وساره برنارد والفودفيل وغيرها.

وكنت كلمًا ألفت اصطلاحاتهم في أحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم ومظاهرهم ورقصهم وغناهم يتبين لي سر تغالي الغربيين بالتمثيل وأنه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عملية ودار سلوى وارتياح أرواح فلا عجب إذا عدوه من أكبر العوامل في نهوضهم وتثقيف مجتمعاتهم. وشغفوا بفصوله ولا شغف الشرقي بفضوله وحرص الفرد منهم على ساعاته حرصه على عزيز أوقاته.

أما دور التمثيل فهي قصور فخمة هندسوها على ضخامتها بحيث لا يحرم الحضور على اختلاف درجاتهم من سماع ما يقال على مسارحها ورؤية ما يعرض فيها من المشاهد والمناظر. وكفى بأن دار الأوبرا كلف بناؤها ثلاثين مليون فرنك وذرعها أحد عشر ألف متر، وأقل دار تمثيل

تساوي عشرات الألوف وبعضها مئات الألوف من الليرات وأن مما يبهج جوق الموسيقى في الأوبرا وقد حزرته بمائتي شخص وجوق الممثلات والراقصات والممثلين على المسرح وما أظن جمهرته تقل عن خمسمائة.

وإذا عرفت أن الأوبرا تدفع لأحد ممثليها ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة أي ١٢٨ ألفًا عن ٦٤ ليلة في السنة وتدفع لغيره من الممثلين رواتب تختلف بين ٨٥ ألفًا إلى ٣٠ ألفًا. وعن كل ليلة يغني فيها كاروزو عشرة آلاف فرنك وتتناول بعض الممثلات أربعة آلاف فرنك في الشهر جاز لنا أن نستقل إعانة الحكومة للأوبرا ونحكم على كثرة دخلها وخرجها.

ولقد كنت أتمثل نفسي في حضرة أعظم فصحاء الأرض وعلماء الاجتماع والنفس ساعة تنتهي إلى مسمعي أصوات الممثلين والممثلات. وتنفتق ألسنتم بكلمات الحكمة والأدب. ويشخصون الفضيلة في أبهى مظاهرها كأنك تراها فلا أتمالك من توقير الممثلين والممثلات وأكبار فائدة التمثيل المدارس لتنشئة الصغار في وقت معين من السن ودور التمثيل مدارس دائمة للصغار والكبار تلقنهم من أيسر السبل حكمة وآدابًا وتلقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة.

حضرت رواية (مثل الأوراق) في الأوديون ورواية (الباريكاد) لبول بورجه في الفودفيل ورواية (جان دارك) في تياترو ساره برنارد. ورواية الجندي الصغير في الشاتليه فكان يحيل لي وأنا أسمع وأرى أن الأمر واقعي. وأن هذه المشاهد حدثت الآن وقد اجتمع جمال الصوت إلى جمال الوجوه إلى جمال الكلام إلى جمال الهندام إلى جمال المكان إلى جمال النظار. وأقل هذا مما يستهوي النفس فلا تدري أي شيء ترى ولا أي فائدة نعي.

وما أظن أكبر متنطع لو حضر التمثيل في مثل هذه الدور العظمى يستطيع أن يعيب شيئًا ممَّا يشهد. واي عين لا تقع على ساره برنادر أشهر ممثلة فرنسوية وهي في الخاسة والستين من عمرها تمثل دور جان دارك وهي في التاسعة عشة فتظهر كأنها هي بصوتها وحركتها ونضرة وجهها ولا ترتاح وتعجب وأي أذن تسمع الحكمة في رواية الباريكاد يقولها أحد الممثلين بصوت رخيم (إن الطبقات الاجتماعية كالأمم يضيع حقها في حفظ ما لم تقو على الدفاع عنه) ولا يفكر طويلًا.

ولقد رايت في دور التمثيل حتى ما يوصم منها بأن فيه شيئًا من الخلاعة مثل (مولن روج) إن الأدب يغلب على السامعين والناظرين. وإن قاعات الاستراحة بين الفصول ليسير فيها الخرد العين كاسيات عاريات معطرات متبرجات ولا ترى إلا من يغض الطرف حياءً وأدبًا. والغالب أن النساء يلبسن لليالي التمثيل أجمل ثيابهن وأزيائهن كأنهن في بيوتهن وبين صويحباتهن وأصحابهن. وقلمَّا تراهن في الشوارع إلا مكتسيات من اللباس بما خف محمله وقل ثمنه.

أما سائر أماكن الطرب كمحال السماع والموسيقى والمراقص العامة فكثيرة جدًّا في باريز وأحسنها ما كان على جوانب الجواد العظمى أو بالقرب منها ويكون فيها المرء بحسب مبلغه من التهذيب، وموسيقى الإفرنج وعزفهم وزفتهم يستحسنها الشرقي مع طول الألفة لها والأنسة بها. ومن لم يعرف عندهم ولو أحد هذه الأنواع الثلاثة استغربوا أمره وعدوه محرومًا من لذائذ الدنيا ساقطًا من رسوم الهيئة الاجتماعية. ولكل قوم عاداته وأخلاقه يحرص عليها كثيرًا ولا يرى فيها حرجًا ولا نكيرًا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

من باريز إلى الآستانة
٣١

قضيت شهرين اثنين في هذه العاصمة طفت المعاهد ورأيت المشاهد وعرفت العامل الجاهد وتبينت العالم المجاهد وطعمت الجشب والشهي من الطعام ووصلت السير بالسري وعمل الليل بعمل النهار، ورأيت العملة في حاناتهم ومطاعمهم وواكت الأغنياء في مقاصفهم وشاركتهم في نعيمهم واختلطت بطبقاتهم أسمع عباراتهم ولم أستنكف من غشيان كل مكان أرجع منه بفائدة مستطلعًا طلع خلق جاريًا من الاختبار فيه على عرق فكانت عيني تمل النظر وأذني تسأم السماع وذهني يتأفف من التفكر وقلبي يتخوف كثرة الوعي. ومع ما صرفته من الوقت والقوة خرجت من هذه المدينة وفي النفس منها أشياء لم أتمكن من درس معالمها ومجاهلها ولا سيما أماكن الرياضات البدنية واللعب على اختلاف ضروبه وزيارة مجاري العاصمة تحت الارض وسراديبها والاعتبار بقبورها ومدافنها وهي مزينة كقصور الأحياء ومقطعة إلى طرق ومناطق.

وفي يوم بدأ نهر السين بفيضانه المشئوم الذي طغى على السدود والسكور فدكها وبثقها وأودى بالأموال الجسيمة من ناطق وصامت ركبت القطار وقت الظهر إلى الحدود الألمانية فكان نهر الموز والمارن هائجين حتى طغت مياههما على السهول والأودية ولم يصل القطار إلى نانسي على الحدود. ويبلغ ستاسبورغ في أرض الألمان وقاعدة الإلزاس إلا وقد انقلبت تلك الأمطار ثلوجًا وذاك الهدير سكونًا. ولون تلك المياه الكدرة بلون الثلج الأبيض الناصع وبلغنا مونبخ عاصمة مملكة بافيرا الألمانية صباح الغد، فوقف القطار زهاء ساعتين فرأيت أن لا أضيع الفرصة

فأخذت أطوف المدينة ولكن كانت الثلوج غمرتها فلم أر منها إلا واجهات الأبنية ورؤوسها وهنا تمثل لي النقص وأحسست بالعجز وشعرت بالغربة وأنا التفت عن يميني وشمالي فلا أسمع إلا الألمانية التي لا أعرف منها أكثر مما أعرف من الكردية وقد تركت بعض رفاق لي في القطار ومنهم بولونيون يتكلمون بالإفرنسية تطيب نفسي بمحادثتهم ومفاكهتهم حتى إذا عدت آخذ مكاني من القطار اجتاز بنا بعد قليل في أرض النمسا وهكذا حتى وصلنا مساء اليوم الثاني إلى فينا عاصمة النمسا.

وعلى ذكر اللغة لا بأس بأن أقول أنني يوم دخلت فرنسا لم أشهد وحشة ولم أشعر بغربة لمعرفتي بلسان أهلها واطلاعي على تاريخهم وعاداتهم فكنت كأنني داخل ولاية من الولايات العثمانية التركية أو قطرًا من الأقطار العربية في غربي آسيا أو شمالي إفريقية ولما انتقلت من ستراسبورغ شعرت بتغير العادات واللهجات وأيقنت بأن الغريب الذي يزور بلدًا لا يعرف لغة أهله كالأصم والأعمى وهذا ما عافني في الأكثر عن زيارة إنكلترا وألمانيا خلال هذه الرحلة مع شغفي بحضارة هاتين الأمتين لأنني أستصعب أن أرى غيري بعيون غير عيني وآذان غير أذني.

قضيت في فينا يومين استرحت فيهما من وعثاء السفر واطلعت على بعض معاهدها إلا أن الثلوج التي بلغت نحو ذراع عاقتني عن إتمام الزيارة فركبت ثالث يوم بعد الظهر القطار قاصدًا بلاد المجر فاجتزنا عاصمتها بودابست في الليل ووقف القطار فيها ساعة لم أتمكن في خلالها حتى ولا من رؤية المحطة وعدنا إلى قطارنا حتى تخطينا من الغد أرض الإمبراطورية إلى أرض البلقان ولم يكد القطار يجتاز نهر الطونة حتى تمثل أمام خيالي تاريخ هذه البلاد، وبينا كنت أذكر وقائع العثمانيين في سلسترا والبروج المعروفة ببرج العرب. وأذكر تلك الدماء العزيزة التي

أهرقت على ضفاف الطونة لفتح هذه البلاد ركبت معنا من أول محطة في بلاد الصرب فتاتان صربيتان في الخامسة عشرة من عمرهما عليهما سيماء الحشمة والأدب فسألت الرفيقة رفيقتها أن تغني شيئًا فالتفتت إلينا. وكان معنا رفيق بلغاري يعرف التركية فاستأذن في ذلك فقلت له لا بأس فاندفعت الفتاة تغني بنغمة على إيقاع غريب فأصت له نفسي بالدموع خصوصًا وقد جاءها الغناء وهي تفكر فيما أصابنا في هذه الديار من الشقاء. فعجب رفيقي البلغاري وقال لعلك فهمت هذا النشيد الوطني الصربي قلت لم أفهم، وإنما تأثرت من النغمة ومن أمور أخرى فسألني ما هي فلم يسعني إلا أن بحت له بذات نفسي. ولما ذكرت له كيف تقدموا هم وتأخرنا من بلاد هواؤها عثماني وسماؤها عثماني. وأكثر عاداتها عثمانية عذرني على شعوري بما فيه من فضل أدب.

ووقف القطار ساعتين في بلغراد عاصمة الصرب فاغتنمت الوقت لزيارتها وهي نظيفة لطيفة صغيرة حرية بأن تكون قاعدة لتلك المملكة التي يقطعها القطار طولًا بأقل من عشر ساعات وزرت من الغد صوفيًا عاصمة بلغاريا وهي أجمل وأضخم منظمة على مثال المدن الأوربية ويغلب الأدب أهلها وكثير منهم يعرفون التركية. وقد وقفنا عليها نحو ست ساعات تمكنت أثناءها من درس معالمها وحدائقها ومتنزهاتها وبعض قصورها وهي أقرب إلى أن تكون مدينة شرقية منها إلى أن تكون مدينة غربية ويقال إنها ترتقي سنة عن سنة ارتقاء يحسدها عليه حتى الأوربيون الراقون وعجبت لما سمعت بعض الألفاظ التركية يستعملونها مع اللغة البلغارية حتى الآن كأنهم تركوها عضوًا أثريًا يذكرهم بأيام حكم الأتراك عليهم.

وعند الظهر سار بنا القطار يقطع بلاد البلغار ووصلنا إلى جسر مصطفى باشا في ولاية أدرنة أول التخوم العثمانية عند العشاء وهناك

جاءنا رجال شرطتنا يدمدمون ويبرقون ويرعدون يحكمون على هذا بالجزاء النقدي ويعفون عن ذاك ويطلبون من هذا جوازًا ومن الثاني أن ينبشوا صوانه وهميانه ومن الثالث أن يفتشوا صندوقه ويراقبوا كتبه والخلاصة تغيرت معنا الحال من الأعلى إلى الأدنى حتى بلغنا بلادنا فرأينا الانحطاط باديًا عليها في كل شيء وإدارتها هي تلك الإدارة الاستبدادية بعينها لم يعدل الدستور من شدتها وما زلنا على ذلك حتى بلغنا صباح الغد الآستانة عاصمة سلطنتنا العثمانية.

عاصمة السلطنة العثمانية

٣٢

صقع جميل، وسواحل بديعة ومناظر رائقة، وسماء صافية، ورفاهية مفرطة، وأنس دائم، فمن المضيق إلى الخليج، إلى جزر البحر، إلى متنزهات منقطعة القرين إلى غابات ملتفة، وجبال مكسوة، وعيون خرارة. وكل ذلك بهجة النفس والخاطر وهذه هي الآستانة وأحياؤها وضاحيتها.

أما عمرانها فصورة مكبرة من عمران الولايات لا نظام ولا شوارع منظمة ولا طرق معبدة ولا راحة للراكب والسائر ولا للمقيم والنازل وغاية ما فيها من مصانع وآثار قصور السلاطين والجوامع الكبيرة الزاهية التي أنشأوها منذ عهد محمد الفاتح إلى يومنا هذا وبعض ثكن ومدارس عالية حديثة لا شأن لها من حيث فن البناء.

والآستانة من حيث قوتها المادية ضعيفة ضئيلة، نصف أهلها أتراك يبلغون نحو ستمائة ألف والنصف الآخر أروام وأرمن وأكراد وأرناؤد وعرب وغيرهم من العناصر العثمانية ويغلب على الأتراك الاتكال لأنهم ما زالوا حتى بعد الحرية يعتقدون من أنفسهم الغناء والسؤدد. أكثر من

بقية العناصر ويتوهمون أنهم العنصر الحاكم ولذلك قلمَّا ترى بينهم تاجرًا معتبرًا أو زارعًا كبيرًا أو ماليًا دراكة يعيشون كلهم إلا المرتزقة والباعة عالة على الأمة لايعرفون غير تقلد الوظائف الإدارية والعلمية والقلمية والعسكرية.

فالآستانة من هذه الوجهة مدينة الاتكال المجسم يعيش أهلها كالحلمة الطفيلية على عنق الولايات، ولكن خربت ولاية أو لواء أو قضاء ليعمر بها أحدهم مصيفًا له على ضفاف الخليج أو في جزيرة الأمراء ويقتني من الجواري والسراري والعبيد بقدر ما تطيب له نفسه.

ولأهل الآستانة فضل أدب ولين جانب عرفوا به منذ القديم فترى الواحد منهم يعاملك بأقصى اللطف والظرف حتى يرضيك وفي باطنه على الأغلب يسرلك غير ذلك وهذا الخلق عام في عمال النظارات والإدارات الكبرى ولولا ذلك ما انصرفت وجوه أرباب الأشغال من سكان الولايات إلى الآستانة يقصدونها لكشف ظلامة ونيل رتبة ومرتبة وراتب.

صرفت في هذه العاصمة عشرين يومًا قابلت في خلالها كثيرًا من أهل العلم والسياسة وكنت اتكاره في الاختلاف إلى المعاهد والناس إذ سئمت نفسي كل ذلك بعد باريز التي رأيت فيها من كل شيء أحسنه ومن العالم أرقاهم ولطالما اسودت عاصمة بلادي في عيني ووددت على الأقل لو كتب لي أن أزورها قبل الرحيل إلى الغرب وإمتاع النظر والحواس بحضارته البهجة حتى لا أرى الانحطاط بعد الرقي ولا الظلام بعد النور.

ومن جملة المعاهد التي هي جملة مقصدي وغاية مناي من زيارة الآستانة مجلسنا النيابي زرته خمس مرات وأعضاؤه نحو مائتين وخمسين

نائبًا من جميع عناصر الدولة وأصقاعها تجد فيهم ذا العمامة البيضاء أو الخضراء كما تشهد فيهم لابس الكوفية والعقال وثلاثة أرباعهم من لابسي الطرابيش ولقد سمعت من أرباب العمائم مناقشات راقية لم أكد أسمعها إلا من النواب الذين صرفوا شطرًا من أعمارهم في أوربا يتعلمون ويتمرنون ويدير حركة المجلس من النواب اليوم نحو عشر أعضائه شأن مجالس العالم كلها فإن أرباب العقول الراقية والمضاء الكبير قلائل في كل طائفة. خصوصًا ومجلسنا ما برح طفلًا ويرجى أن يكون في الانتخابات المقبلة أرقى ممَّا هو الآن.

رأيت النظام قليلًا في المجلس يبدأ قبل الظهر بالنظر في قانون كذا وبعد الظهر يتناقش في غيره قبل أن يكمله ومن الغد يتناقش في مسألة أخرى وينسى القانون أو اللائحة الأولى وذلك لأنهم وسدوا رئاسته لرئيس اشتهر بخدمته الحرية والشهرة قد تكذب. وكم وسدوا النظارات في هذا العهد الدستوري الجديد إلى أناس اشتهروا بعلمهم وعقلهم في الدور السالف حتى إذا جاء الآن دور العمل أبانوا عن ضعف في المدارك وخور في العزائم وبضاعة مزجاة من العلم وا لعمل ونفس شريرة تعد قتل عنصر من العناصر قتلًا معنويًّا لغاية بعيدة الحصول أسهل من تناول الكأس أو السلام على الناس.

وكل أولياء الأمر إذا حدثتهم في نقصنا والسعي لإصلاحنا شاركوك في حديثك وربما تظاهروا بأكثر من غيرتك وحملوا أشد من حملتك فإذا أتت نوبتهم ليعملوا تراهم يقرون القديم على قدمه إن لم نقل يزيدون الحال أعضالًا وأشكالًا. فهم فلاسفة قول لا عملة عمل وجربذتهم في أساليب لهم يتقنونها لا في ظلامة يرفعونها وولاية يرقونها وإصلاح يدخلونه.

ولا أغالي إذا قلت إن عمال الآستانة الآن صورة من صور العهد الحميدي إلا أنهم يدعون الحرية وهم مضطرون إلى الإسراع بمصالح العباد بأقل مراوغة ومطاولة مما كانوا عليه في العهد الماضي أما الإصلاح الحقيقي فأظن من سيقومون به لهذه البلاد العزيزة لم يخلقوا بعد ونحن نكتفي من الحاليين أن يحتفظوا فقط بالحالة الحاضرة ريثما يتخرج جيل جديد يربى على أدب النفس وأدب الدرس وينشأ بعيدًا عن أخلاق الحكومة الاستبدادية المطلقة التي غرست مبادئها الساقطة في القلب واللحم والدم والعظم.

المتحف السلطاني [١]

٣٣

دخلنا هذه الدائرة الفخمة من بابها الغربي الكائن بجوار نظارة العدلية ومررنا أمام دار الضرب العامرة وبعدها دخلنا من باب آخر ينتهي إلى ساحة كبيرة بني على أطرافها رواق ذو قباب أشبه ببنيان التكايا ثم دخلنا من باب ثالث فاستقبلنا بهو كبير يسمونه غرفة العرض كان يجلس فيه الوزراء والأمراء للمذاكرة والمشاورة وفي صدره مصطبة كبيرة يصعد إليها من درجة واحدة كان يجلس فيها السلطان متواريًا عن الأعين.

ثم خرجنا من هذه الغرفة وصعدنا إلى قصر شامخ يصعد إليه بسلم من رخام جدرانه مزينة بالقيشاني بناه السلطان مراد الرابع بعد رجوعه من بغداد على طرز قصر هارون الرشيد وسماه (قصر بغداد) وهو قصر بني على الطرز الشرقي بشكل مثمن منتظم تحيط به من الخارج ردهة ضيقة

---

(١)لم تتيسر لنا زيارة هذا المتحف فعهدنا إلى صديقنا شاكر بك الحنبلي أن يزوره عنا فكتب لنا هذا الفصل في وصفه ففعل وأنا أشكره لفضله وعنايته.

ذات منافذ تطل على الخمائل والبحيرات وتشرف على بحر مرمرة وقسم من البوسفور وأحياء القسطنطينية وضواحيها وبجانب هذا القصر دائرة (الخرقة الشريفة) وفيها الرداء النبوي وبقية المخلفات والآثار النبوية.

وخرجنا بعدئذ من هذا القصر ودخلنا قصرًا آخر فيه غرفة كبيرة طولها نحو عشرين ذراعًا وعرضها نحو ثلاثة عشر ذراعًا يقال إنها من بناء السلطان مصطفى الرابع، وفي الجهة القبلية من هذا القصر قصر آخر بناه السلطان عبد المجيد ويسمونه (سلطان مجيد كوشكي) مبني على الطراز الإيطالي وهذا القصر أجمل قصر رأيناه هناك ومما يجدر بالذكر في هذا القصر صفاء بلور النوافذ حتى إنك تظن النافذة مفتوحة لا بلور فيها لشدة صفائه وعلى جانب هذا القصر حجرة صغيرة بناها السلطان عبد المجيد لتبديل لباسه قبل دخولها دائرة الخرقة الشريفة

ثم انتهينا إلى دائرة المتحف السلطاني وهي بيت القصيد في هذه الزيارة وهنا لا يتمالك الإنسان من الدهشة عندما يشاهد تلك الآثار النفيسة والمصنوعات الثمينة النادرة التي لا تقدر لها قيمة لقيمتها التاريخية دخلنا هذه الدائرة وهي مؤلفة من ثلاث غرف تحتية وثلاث أخرى فوقية وأول شيء وقع نظرنا عليه تخت كسرى الذي غنمه السلطان سليم الأول من الشاه إسماعيل الصفوي في حرب (جالديران) الشهيرة وقد نصب في وسط المتحف يوحي إلى الرائي بعظمة الدولة العثمانية ومجدها السالف ويصور للناظر السلطان سليم الأول ممتطيًا جواده مستلًا سيفه يقود جيشه الباسل إلى بلاد الأكاسرة ويشتبك مع صاحب العجم في حرب عوان فيهزم جيشه ويستولي على عرشه وخزائنه.

هذا التخت على هيئة مستديرة قائم على أربعة أعمدة يصعد إليه بدرجة واحدة وكله مرصع بالياقوت والزمرد ممَّا يبهر الناظر.

شاهدنا في هذا المتحف سيف قسطنطين بالثوغوس آخر قياصرة الروم وهو سيف مرصع بالماس أخذ من جملة الغنائم يوم فتح القسطنطينية. وشاهدنا مهد السلطان محمود الثاني وهو على شكل السرر التي تصنع في دمشق من الخشب مرصعة بالصدف وهذا مرصع بالأحجار الكريمة. وفي المتحف ثلاث قطع من الزمرد الأولى بقدر جوزة الهند وزنها ثمانمائة درهم والثانية على شكل مستطيل وزنها ستمائة درهم والثالثة بينهما في القطع والوزن وهناك أوان من النجف بعضها مرصع وبدون ترصيع وساعات وأوان من العاج وبواطي من الصيني ودروع وطبرات ومغافر وبنادق قديمة مرصعة ممَّا لا يكاد يحصى وخواتم من الماس بعضها فضة بقدر الجوزة. وإلى جانبيها دُوي قديمة ذهبية وقماقم ومحاريب وسبحات ومراوح مرصعة وفي جملة هذه المراوح ثلاث تعد من نوادر المصنوعات الواحدة قبضتها مرصعة بالماس والأخرى مرصعة بالياقوت والماس في وسطها ياقوتة بقدر الجوزة والثالثة مرصعة بالأحجار الكريمة وعليها رسم الكرة الأرضية.

ومما أمتعنا به النظر صورة شخص طوله عشرة سنتيمترات صدره وبطنه لؤلؤة واحدة ورجلاه فيروزتان وبالقرب منه صندوق وعليه فيل من الذهب مرصع بالأحجار الثمينة، رأينا أغطية مناضد من الأطلس والديباج بعضها مرصع باللؤلؤ فقط والبعض الآخر مرصع باللؤلؤ والزمرد والياقوت بنقش بديع يأخذ بالعقول وهنا قلب من الماس حجرته الوسطى بقدر البيضة ويقال إن هذه الحجرة هي رابع حجرة في الدنيا من حيث الحجم والوزن وقد أمتعنا الطرف برسم السلطان عبد العزيز مجسمًا معمولًا من النحاس الأصفر ممتطيًا جواده بقطعة كبيرة طبيعية وآخرين صغيرين ورأينا رسم إسكندر الثاني قيصر الروس ورسم غليوم الأول عاهل الألمان

ومما رأيناه ثلاث آلات للمنظومة الشمسية مصنوعة من النحاس الأصفر تدور فيها الأرض والسيارات حول الشمس بحركة دولاب يدار باليد كل ذلك بل أكثره موضوع في خزائن من البلور لا تمسه الأيدي رأينا مسميات لا نعرف أسماءها ممَّا يحار لها العقل ويدهش لها الفكر وأنى لنا بابن المعتز يقف في هذه الخزينة ويصف ما فيها من الحلي والحلل والجواهر الثمينة والمصنوعات الفاخرة النادرة بمنظومات تحكي ترصيع الجواهر المكنوزة في هذا الكنز الكبير ليس شيء أصعب على الكاتب من أن يرى أشياء لم يألف مشاهدتها ولا يعرف لها اسمًا فهو إذا أراد وصفها عصته الألفاظ وضاقت به التعابير. رأينا في هذا المتحف شيئًا كثيرًا كله من النادر الغريب الذي لا يوجد إلا في خزائن الملوك ولو أردنا أن نصف كل ما رأيناه لطال بنا البحث واحتجنا إلى سفر كبير ولكن نكتفي بذكر الآثار التاريخية الثمينة بالنظر لما لها من المكانة العلمية والقيمة الأدبية.

فمن ذلك درع مرصعة بالماس والياقوت مع سيف مرصع أيضًا مكتوب عليهما هذه العبارة (هذه الدرع غنمها السلطان مراد الرابع لما فتح بغداد في اليوم الثامن عشر لسنة ألف وثماني وأربعين هجرية) وتخت معمول من الباغا مرصع بالفيروز والزمرد وهو تخت السلطان أحمد الثالث كان يجلس عليه يوم عرفة وفي وسطه فراش من الأطلس. مرصع باللآلئ بنقوش لطيفة يصعد إليه بثلاث درجات صغيرة وخزانة من الكهرباء الملون المعرق أهدتها فيكتوريا ملكة الإنكليز للسطان عبد العزيز ومكتب (قنصل) كبير مرصع بالماس والياقوت وسائر الأحجار الكريمة أهدتها كاترينة قيصرة الروس للوزير الأعظم محمد باشا البلطه حتى يوم وقعة (بيروت) الشهيرة وهذا المكتب من أثمن ما شاهدناه في هذه الخزينة لما فيه من الأحجار الكريمة وحلل ملوك بني عثمان

وعمائهم موضوعة كلها على قوالب مخصوصة على شكل إنسان بالهيئة التي كانت عليها ومكتوب على كل منها اسم صاحبها وسيف السلطان الغوري عزيز مصر وخاتم السلطان عبد العزيز الذي نزع من أصبعه يوم استشهاده، ووسامات مختلفة أهداها ملوك أوربا للسلاطين العثمانيين وغير ذلك من الآثار البديعة التاريخية.

وفي الجملة فإن هذه الخزينة هي أعظم خزينة على وجه الارض لأنها جمعت بين خزائن الأكاسرة وخزائن القياصرة وملوك الإسلام وكانت في الدور القديم تجمع فيها الأموال الزائدة عن نفقات الدولة وتدخر لأوقات الحروب، وتسمى (أيج خزينة) أي الخزينة الداخلية يروى أن السلطان مصطفى الثالث كان جمع فيها مبالغ طائلة صرفها كلها في الحرب الروسية ويقدر ما صرفه في ذلك الوقت باثني عشر مليون ليرة على حساب هذا الزمان.

أما بناء الدائرة فليس من الأبنية الفخمة المزينة بل هو بسيط جدًا على طرز التكايا وليس فيه ما يستحق الذكر سوى ما ذكرناه آنفًا من القصور الحديثة التي بناها ملوك بني عثمان بعد الفتح وإنما هي تمتاز بجمال موقعها وحسن مناظرها ومكانتها التاريخية فالواقف في فنائها أو في أحد قصورها يمتع طرفه بتلك المناظر البهيجة ويسرح فكره في غابرها وحاضرها ويهتز طربًا وتتجلى له عظمة آل عثمان وسلطانهم، ويرى الفاتح يسوق أسطوله على اليابسة على صورة لم يسبق لها نظير، ويفتح القسطنطينية ويملك قصر القياصرة وخزائنهم كما افتتح أجداده بلاد الأكاسرة وقوضوا عروشهم ويكون نعم الأمير الذي امتدحه الرسول وجيشه نعم الجيش.

وفي الحقيقة إن هذا البناء اللطيف من أجمل ما يتصوره الفكر، وألطف ما تشعر به النفوس فهو يحتاج إلى قريحة شاعر مطبوع أو قلم كاتب مجيد يصف ما تشعر به النفس من المعاني الشعرية في جانب هذه المناظر البهيجة والآثار التاريخية، هذا ولا يسعني هنا إلا أن أثني الثناء الطيب على ناظر المتحف حافظ محمد رفيق بك لما أبداه من المجاملة والملاطفة في زيارتنا هذه، كما أني أشكر للأستاذ الزهراوي وعبد العزيز أفندي قولجه لي عنايتهما في هذه الزيارة التي هي من أثمن الزيارات التاريخية.

المتحف العثماني [1]

٣٤

ليس بين معاهد الآستانة وقصورها معهد توفرت فيه شروط التجديد، ودخلته الروح الغربية مثل المتحف العثماني فهو المعهد الوحيد الذي قلدنا فيه الأوربيين وأحسنا التقليد يستفيد به زائره تاريخ الصناعة، ولا غرو فقد ضم عاديات الأمم القديمة كالرومانيين واليونانيين والفينيقيين والأشوريين والبابليين والمصريين والحتيين والبيزنطيين المتأخرين من نواويس وتماثيل وأوان وآثار حجرية وخزفية وبلورية، وكلها شاهدة على الدهر بما كانت عليه حضارات الشعوب التي انقرضت فأصبحت بلادها من جملة ولايات هذه السلطنة العثمانية أيد الله أركانها.

ومن أجمل ما يشاهد فيه مسلتان عثروا على الأولى في صامسون والأخرى في إزنيق واسد وجد في هاليكارناس (قصبة بودروم) ويرد تاريخه إلى أربعة قرون ق.م وبجانبه ناووس روماني استخرج من دراج

(١) اعتمدنا على كتاب (موزه همايون عثماني يه مخصوص رهثما أثر وحيد).

في ولاية أشقودرة ومن ألطف عاديات هذه الدار النواويس التي عثر عليها في صيداء وهي عبارة عن ستة وعشرين ناووسًا ادعى بعضهم أن أحدها هو ناووس إسكندر المقدوني لأن الإسكندر توفي في العراق وجيء به إلى سورية على أن روايات المؤرخين مختلفة في مدفنه. ومن النواويس ناووس دفن فيه تابنيت ابن اشمونازار ملك صيداء وعليه كتابة بالخط الفينيقي، وناووس الإسكندر من أغرب ما نقش الناقشون تحسدنا عليه وعلى كثير من الآثار الموضوعة في قاعات متحفنا أهل العاديات والآثار ويبذلون لنا لو أردنا في الحصول عليها مئات الألوف من النضار ونواويس المتحف البريطاني واللوفر ليست بأعظم منها.

ومن عاديات المتحف ناووس معروف باسم (صدراب) أحد ولاة فارس فيه رسوم الصيد والقنص والحرب واللعب والسباق ووضيمة جنازة. ومنه يستدل على ما وصلت إليه هذه الصناعة من تلوين الرخام في ايونيا في الساحل الغربي من بلاد الأناضول من الارتقاء في القرن الخامس ق.م وهناك تمثال ثماني عشرة امراة من أعجب ما نقش الناقشون جعلن على أشكال منوعة بعضهن قائمات وبعضهن قاعدات وهن يذرفن دموع الحزن واللهفة. وبالقرب منهن ١٩ قطعة من نواويس رومانية عثر عليها في جبل لبنان وحمص وبيروت.

ومن النواويس البديعة ناووس اسمه ناووس ليكيا أي البلاد المعروفة اليوم بسواحل اضالية من أعمال قونية وهو رومي الصنعة محلي الأسلوب، وعلى مقربة منه تمثالان من الخزف المنقوش لأبي الهول عثر عليهما في مدينة أورله أو ميناء قلازومن من أزمير.

قلنا إن الناووس المعروف بناووس الإسكندر هو من أبدع ما صنعت الأيدي، ولذلك زاره ألوف من علماء أوربا وأميركا يعجبون بصنعه، وفيه

كثير من الرسوم والخطوط النفيسة الملونة ومن الصور المزبورة، عليها وقائع الإسكندر المشهورة، ومن كتاباته ما كتب بالخط الهيروغليفي المصري، ومنها بالخط الفينيقي.

ومن الرسوم الموجودة في ناحية قريبة ما يرجح أنه رسم الحرب التي نشبت بين الإسكندر في أيسوس أو أربيل وبين دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ق.م

ومما يقع نظرك عليه في القاعة الرابعة بعض عاديات حيثية مثل أسود وجدت في زنجيرلي وقصورها وتمثال يمثل أحد ملوك الحيثيين وقاعدة تمثالين لأبي الهول وتمثال من الحجر الأسود اسمه (أسد مرعش) كتبت عليه كتابات حيثية وهو أشهر أثر عثر عليه من آثار هذه الأمة حتى الآن.

والحيثيون أمم مختلفة كانت في القرن الخامس عشر قبل المسيح تنزل في جبال الأكراد في سورية وقبادوكيا وقسم عظيم من بلاد الأناضول حتى مجرى نهر قيزل أيرمق وكديز وأصولهم كثيرة متباينة بل إن البلاد التي كانوا مستولين عليها هي كما يقول المحققون في شمالي سورية أي في المنطقة الممتدة من فرع الفرات الأكبر إلى جبال طوروس، وقد أنشأوا على الفرات قلعة قارغاميش المعروفة الآن بجرابلس وأخذوا يهددون مدينة نينوي القديمة (الموصل) إلى أواخر القرن الثامن ق.م وبلغوا منتهى مجدهم بين القرن العاشر والثامن ق.م وقد استولى على هذه القلعة صاراغون ملك أشور سنة ٧١٢ وباستيلائه عليها محي اسم الحيثيين من عالم الوجود على أن تاريخ هذه الأمة مع ما بلغت من الحضارة بين الأمم القديمة لم يؤثر عنها بالذات شيء يدل على عظمتها لأن خطها لم ينحل حتى الآن ويرجى أن يكتشف كما اكتشف الخط

المصري القديم بواسطة حجر وجد في رشيد كتب بالخط المصري مترجمًا إلى اليونانية.

ومن العاديات المهمة في المتحف الأواني الزجاجية والخزفية وأحسن الزجاج ما جاء من سورية وقد كتب على كل قطعة منها اسم البلد الذي عثر فيه عليها. ومعلوم أن تاريخ وجود الزجاج قديم يتعذر معرفته وهناك قطع من الفسيفساء عثروا عليها في استانكوي أو جزيرة كوس من جزائر البحر الرومي ويرد تاريخها إلى الدور اليوناني وآثار معبد أشمرن في صيداء من آثار الفينيقيين الخزفية وآثار سوكة وآياثلوغ ونامورد من أعمال أزمير وغيرها من بلاد الأناضول وأكثرها يوناني. وفي قاعة أخرى أوان وجدت بالقرب من صور وويج في ولاية مناستر في بعض المدافن وأوان في ليندوس (رودس) وغيرها يرد تاريخها إلى أدوار مختلفة يونانية ورومانية ومنها ما عثر عليه في لابسكي من أعمال كليبولي.

ومن الآثار المهمة في القاعة الحادية عشرة عاديات أرض فلسطين ومنها ما عثروا عليه في جوار القدر ويرجع تاريخه إلى القرن الثامن ق.م وما عثر عليه في بحيرة حمص في الجزيرة التي حفر فيها من القدور والأسرجة وقد اعتبروا القسم الأعظم منها من عهد الزمن النحاسي. وفيه قطعتان من المرمر وجدتا بالقرب من المسجد الأقصى وعليهما كتابات بالرومية تحظر على الغرباء أن يتخطوا معبد سليمان وإلا فيعاقبون بالموت. وهناك حجر كلسي عثروا عليه في القدس مكتوب عليه كتابة فينيقية وفيه ذكر جر الماء تحت الأرض في قناة حفرت في الصخور من نبع جيحون إلى سور القدس حتى تصل إلى نبع عين سلوان وينسبونه إلى الملك حزقيا أحد من ورد ذكرهم في سفر الملوك من التوراة.

وليست العاديات المصرية كثيرة في المتحف ومنها صور أبي الهول وفي ثلاث قاعات الآثار الكلدانية والبابلية والآشورية وأكثرها ألواح وأوان وأكواب وعظام كتبت بالخط المسماري.

ومنها ناووس من الخزف يرد إلى عهد بابل أي إلى نحو ٦٠٠ سنة ق.م ومنها مسلة من الحجر من مخلفات نابونيد ملك بابل كسرها سنخريب في وقائعه مع السيتيين. ومن العاديات ما وقع في خرابة نيفر في الشمال الشرقي من الديوانية من أعمال بغداد ومنها ما وجد في تللو من أعمال البصرة ومنها ما عثروا عليه في سيبارا أوابي الحبة من أعمال الجزيرة.

وقد خصوا القاعة السابعة عشرة بالآثار التدمرية والحميرية ومن الآثار التدمرية ما يستدل منه على أن صنعها من بدائع صناعهم وإن كانت تشبه الصناعات اليونانية لأن مملكة تدمر وإن كانت يهودية لم يبق فيها أثر لهم لأن الآشوريين قرضوا عمرانها ثم ارتقت على عهد أورليانوس أوائل ظهور النصرانية ودخلت في حوزة المملكة اليونانية على عهد الإسكندر واستعملت اللغة الرومية ولا سيما في الرسميات وإن كانت لغتها الآرامية أو السريانية، أما الآثار الحميرية فهي آثار أهل سبأ ومعين في الجوف وعاصمة سبأ مأرب وأهل معين كانوا نازلين في قصبة العلى في جوار مدائن صالح ومملكة حمير اليمانية إنما نشأت بعد هلاك مدينة سبأ ومعين واستدلوا من ذلك على أن الخط الحميري يشبه الفينيقي ولكن دخله قلب وإبدال كثير.

ومن العاديات آثار قبرص منها تمثالان للمعبودين هركول وآفروديت وأوان خزفية ونذور، ومنها حلي أشورية وفينيقية وحلي وجواهر وأقراط وأساور وقلائد وجدت في مدينة تروادة أي في محل اسمه الآن حصارلق

من أعمال لواء بيغا شمالي جون أدرميد وكان اسمه في القديم إيدا وهو بين جبل قار وهللسبون أي بين جناق قلعة وبحر الأرخبيل وكانت هذه عاصمة قديمة مشهورة ومنها ما وجدوه في ترال من أزمير وليبة من طرابلس الغرب وبرقة وغيرها في طرسوس وآخر في برغمة وفي نابلس.

هذه جملة أشرنا بها إلى ما حواه المتحف وله قسم آخر إسلامي جعلوه في قصر الصيني أمام البناء الجديد كما قسمت مصر عادياتها إلى متحفين متحف الآثار المصرية واليونانية القديمة والمتحف العربي. وقصر الصيني هذا مما أمر بإنشائه السلطان محمد الفاتح ولكن لم يبق عليه من آثار أيامه إلا أثر ضئيل جدًا مثل الآثار التي يحويها وبعض عاديات وأكثرها من قرون الانحطاط أي القرون الخمسة الأخيرة ومنها بعض الصيني الذي كان يعمل في دمشق ورودس وأزنيق وكوتاهية وبعض الكاشاني المكتب بالكوفي ومنها ما عثر عليه في مصر وقونية ودمشق وبورصة وكان يعمل فيها كما نعمل الطنافس البديعة في معامل دمشق وتوقاد وأصفهان وغيرها.

ومن عاديات قصر الصيني درفنان من صنع قره مان وقونية ومنها دكات وقماقم وطنافس ومصابيح وخطوط صدرت عن بعض الملوك العثمانيين ومنبر من صنع الرها (أورفة) وأوان خزفية وجدت في الرقة من أعمال حلب وجلود كتب من صنع مهرة المجلدين من العرب والفرس والترك وأصونة وخزائن وبعض آثار حجرية يقال إنها أموية عثر عليها في القدس وبعض نقوش حيوانات رسمت على الزجاج من الأدوار التركمانية والأرتقية وملوك بني آرتق من مماليك ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حكموا جهات ماردين وديار بكر وحلب إلى سنة ٨١١هـ وانقرضت دولتهم بعد حكم ٣٣٤ سنة إلى غير ذلك من العاديات والآثار ومما عرضوه عود طرب أو طنبورة وهي من صنع عصور الظلمة أيضًا.

وبالجملة فإن العاديات القديمة التي جعلت في البناء الجديد كلها حسنة ومفيدة لو لم يكن الكسر والتحطيم يغلب عليها لما قاسته من أهاويل الدهر أما العاديات التركية والعربية الأخيرة فتافهة على الأكثر. وفي الآستانة محل قرب جامع السلطان أحمد عرضوا فيه صور الإنكشارية مجسمة من الجبس صنع النمسا وهم يلبسون ألبستهم المعروفة وجالسون على مراتبهم وعاداتهم لا بأس بزيارتها لما فيها من الفائدة التاريخية.

خطابنا [١] في التربية الأوربية
٣٥

سادتي الإخوان الأعزة:

أوعز إلى أعضاء هذا المنتدى الكريم أن أحدثكم بما رأيت في رحلتي الأخيرة إلى أوربا فلم تسعني مخالفتهم لأن الطلاب أعزة وتبادل الأفكار معهم من أشرف المطالب ولكن الموضوع كبير لا يتسع وقتي الآن للإحاطة بأطرافه كله ولا أوقات الحضور الكرام إلى وعيه وسماعه ولذلك أقتصر منه في هذه الليلة على الإشارة إلى طرف مما تأثرت به نفسي في درس معالم الحضارة الأوربية في أماكنها واستطلاع طلعها بالعمل بعد الاشتغال بدراستها بالنظر مدة. ولذا استميح عفوكم إذا لحظتم في أقوالي شيئًا ممَّا لم يعتد بعضكم سماعه فأنا أقص عليكم شعوري ولا حرج على الشاعرين كما لا حرج على الشعراء.

---

(١) ألقيناه في المنتدى الأدبي في الأستانة وهو مجمع الناشئة العربية من طلاب المدارس العالية.

أول ما يقع عليه نظر الداخل إلى أرض أوربية ذاك الانتظام الغريب في مرافق الحياة ومظاهر القوة فيسقط لأول وهلة على نموذج صالح من استبحار العمران هناك بل يتجسم في عينه وذهنه ما سعت إليه ولا تزال تسعى تلك الأمم الراقية من الأخذ بأسباب الراحة والبسطة من طريق التكمل العلمي والنشوء الاجتماعي والعملي.

ولا يزال هذا النموذج من العمران يعظم في نظر السائح كلمًا طاف المعاهد وزار المشاهد وجال في القرى والدساكر والحواضر والقواعد. وكل فرع من فروع هذا الارتقاء العجيب يحتاج الناظر في وصفه إلى مجلد برأسه حتى يتجلى للسامع بعض التجلي وما راء كمن سمع.

ماذا أذكر لكم أيها الإخوان من حال أوربا ومدنية الغرب الراقية التي بلغها بقوة العقل وتطبيق العلم على العمل؟ أأحدثكم بصناعاتها التي تبهر النفس؟ أو باتساع متاجرها التي لا يحصيها العد؟ أو بارتقاء زراعتها التي تنادي بلسان حالها ومقالها بأنه لم يبق بعد ما بلغته غاية؟ أم أذكر لكم حال المجامع العلمية والسياسية والجمعيات الاجتماعية والنقابات التجارية والصناعية أم المدارس الجامعة والكلية والثانوية والابتدائية أم المتاحف والمعارض والمكاتب والمجالس والمصارف ودور التمثيل ومحال الطرب والأنس؟

كل هذه المشاهد كنت أختلف إليها في أوقاتها وأجتمع برجال العلم والأدب والسياسة منذ الصباح إلى ما بعد منتصف الليل ونفسي تتأثر بتغير المشاهد بحيث تملك على مشاعري فلا أستطيع التفريق في الحسنات كأنني ابتليت بداء الاستحسان لا تقع عيني على شيء ولا تسمع أذني بشيء ولا يتصور ذهني أقل شيء إلا وأخذ به جملة وتغرق النفس في استحسانه وتحار في وصفه.

ولقد كنت عزمت أن أدون في مفكرتي ما يعرض لي من المظاهر والمناظر ويتردد في صدري من الأفكار والخواطر وأحضره من المحاضرات والخطب والدروس النوادر ولما كثرت على الموضوعات كل القلم من التقييد وقلت إنك يا هذا تكتفي متى عدت لتحدث قومك بما رأيته من تسجيل ما يعلق في ذهنك وبعضه مما فيه الغناء والكفاية.

نعم تركت التقييد على خلاف عادتي فصدق فيّ قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

لولا أن اليأس من أعظم الأمراض في الأفراد والجماعات لطاوعت النفس وقنطت من نهضة هذا الشرق لمجاراة الغرب ولولا أنني أعتقد بأن النجاح مقدور لكل مخلوق يعمل وأن الأجسام تتكون من الذرات وأن من الجزئيات تنشأ الكليات لسجلت بأن قيام الشرق العثماني وهو على نهضته المتثاقلة البطيئة التي نشهدها أمر متعذر إلا بعد قرون إن كتبت له الحياة ولكن أمامي مثال الدولة اليابانية مملكة الشمس المشرقة رأيتها جارت أكبر الدول الأوربية في ثلاثين سنة وفاقت من كانت تعمل منذ ثلثمائة سنة من الدول الغربية فبلغت درجة عالية من الحضارة.

نعم إن اليأس يجب أن لا يتطرق إلينا، وإن كنا ويا للأسف تحت وصاية الغرب اليوم في كل شأن من شؤون حياتنا السياسية والاجتماعية والعلمية والتجارية يصرفون علينا كل ما يريدون من ضروب المعارف ويربحون بعقولهم منا أنواع الأرباح والمكاسب ويستثمرون شرقنا بكل ما لديهم من ذرائع العلوم والفنون ونحن معهم باهتون شاخصون شأن عبد مع سيده أو جاهل مع عالم.

حضرت دروسًا كثيرة في الكوليج دي فرانس وهي المدرسة العظمى التي تضم في صدرها زهاء أربعين عالمًا من كبار علماء فرنسا يقرأ كل واحد منهم درسين اثنين في كل أسبوع في العلم الذي أخصى فيه وتفرد به طول عمره وتكون دروسهم عامة يحضرها كل من أراد فتدل على كرم الفرنسويين في العلم وحضرت دروسًا في مدارس أخرى ووفقت إلى سماع خطب ومحاضرات كثيرة فلم أر في أكثرها إلا تعصبًا على الشرق وغمطًا لحقوقه.

أذكر لكم على سبيل المثال محاضرتين دعيت إليهما لتعلموا منهما مقدار ما يعده الغرب للشرق ومبلغ حكم أبنائه عليها ولكم بعدها أن تقيسوا حاضرهم بحاضرنا وغابرهم بغابرنا وتضحكون بعدها أو تبكون.

فالمحاضرة الأولى كانت في قاعة السوربون الكبرى أي كلية باريز، وهي المكان الذي جرت العادة أن يكون معهد العاملين للعلم من الفرنسويين فأقامت جمعية آسيا الفرنسوية والجمعية الجغرافية حفلة للاحتفاء بأعضاء بعثة بليو إلى التركستان الصينية وكنشو بحضور جماعة من أعضاء المجمع الفرنسوي ولم يكن الحضور أقل من ألف وخمسمائة مستمع ومستمعة والمسيو بليو هو في الثامنة والعشرين من عمره طلق اللسان آية في البيان وهو أستاذ اللغة الصينية في المدرسة الفرنسوية في الشرق الأقصى، شرح في محاضرته ما لاقاه في رحلته التي بدأت في ١٥ حزيران سنة ١٩٠٦ وانتهت ف الصيف الماضي وأتى على ما وفق إليه من الاكتشافات الأثرية والكتابية وغيرها في آسيا الوسطى مما حفظ لفرنسا شهرتها القديمة في البحث عن الآثار وقال إن التعصب انتشر هناك بانتشار الإسلام في القرن الحادي عشر للمسيح فكان من ذاك التعصب أن أتى على الآثار بجملتها وقد قرَّع الشرقيين عامة والمسلمين منهم خاصة أنواع التقريع، أما رحلته فهي كسائر الرحلات العلمية التي يرحلها

الغربيون إلى آسيا وإفريقية فيكونون مقدمة الفتح والاستعمار وقديمًا كان الشاعر يقول (السيف أصدق أنباء من الكتب) فإذا أرادت أمة أن تفتح بلد أخرى ترسل إليها السيوف والبنادق ثم تمهد البلاد بالمعارف أما اليوم فيرسل الغرب رجال العلم يرتادون البلاد أولًا. ثم يرسلون مدافعهم وبنادقهم وآلات تدميرهم والأمثلة على ذلك كثيرة.

وقد ادعى بليو صاحب البعثة. والغالب أنه على حق فيما ادعاه أن ما وفق إلى جلبه من الآثار قد أغنى مكتبة الأمة في باريز بألوف من المخطوطات الصينية ومنها شيء في تاريخ الصين كما أغنى متحف اللوفر الشهير بتماثيل ورسوم ونقوش فأصبحت باريز بذلك عاصمة الدروس الصينية في أوربا ويحق لها أن تفاخر بأن مجموعة ما عندها الآن من الآثار الصينية ليس لها مثيل في الغرب حتى ولا في الصين نفسها قال وغاية البعثة في التركستان الصينية، ولا سيما في مقاطعات قاشار وأرومشي البحث عن بقايا التمدن البوذي الذي سبق التمدن الإسلامي إلى هناك، وأنه رأى جميع أهل التركستان من أهل الإسلام، وإذ كان دينهم يحرم التماثيل والصور لم يظفر بكثير منها في الأماكن المطروقة إذ كانت تعبث بها أيدي المتعصبين منهم.

وقال إنه رأى لسوء الحظ أن قد سبقه إلى ارتياد تلك الأصقاع أناس من الألمان والإنكليز واليابان والروس للغاية نفسها ولكنه وفق إلى أن اكتشف بين قاشار وكوتشار في نصف الطريق في طومشونك تمثالًا بوذيًا صغيرًا بين الصناعة اليونانية و البوذية حري بأن يكون صلة بين الصناعة الشرقية القديمة والغربية وظفر في قاشار تحت أنقاض أحد المعابد في طبقة كثيفة بمخطوطات هندية فأحرز ثلثها بواسطة راهب انقطع في تلك المغاور ووصف تلك البقاع به لا شجر فيها ولا عشب مع أنك تمشي فيها ألوفًا من الكيلو مترات اللهم إلا في بعض الواحات، وأكثر تلك

الأصقاع جبال شامخة ومنحدرات كثيرة ورمال محرقة فكانت الحرارة في الصيف تصل إلى الاربعين درجة، وفي الشتاء إلى الخمس والثلاثين تحت الصفر حتى كان الحبر يجمد في أيدي اعضاء البعثة متى أرادوا أن يقيدوا آثار بعثتهم وقد أخذ أحد أعضاء البعثة صورة طوبوغرافية من خط هذه الرحلة وفوائد فلكية في عدة نقاط وآب بمجموعة من الحشرات والحيوانات تغني المتحف الطبيعي وبصور كثيرة عرضت بالفانوس السحري على الحضور تلك الليلة حتى لكأنهم ذهبوا بأنفسهم إلى تلك الأصقاع النائية.

هذه المحاضرة الأولى التي تكهرب بها جسمي وتأثرت عواطفي وسمعت بها مهانة أمتي بأذني. والمحاضرة الثانية ألقاها المسيو تارديو من كبار السياسيين الفرنسويين وصاحب المقالات الافتتاحية في جريدة الطان في الدولة العثمانية فهو أول أخصائي في سياسة الشرق، ولا سيما دولتنا يقلب القلم بين أصبعه كما تشاء حكومته. حضرت خطبة له في مدرسة اللغات الشرقية الحية، ألقاها على طلبة تلك المدرسة العالية ممن يتخرجون الآن ليذهبوا إلى الشرق فيما بعد لخدمة حكومتهم ويكون منهم التراجمة والقناصل والسفراء ببيان لم أسمع من العرب ولا من العجم أبلغ منه لم يتمتم ولم يعطس ولم يكرر، وقلمًا رأيت إنسانًا درس موضوعه وأعد له المواد التاريخية والمستندات أكثر من ذلك ولكن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال كلام الخطيب فكان عجبي بتحامله على هذه الدولة أكثر من عجبي بذلاقة لسانه، فقد تكلم على علاقة فرنسا بالشرق ولا سيما بالدولة العلية منذ القديم فقال إن فرنسا صاحبة الفكر الأول في الحروب الصليبية قد أتى عليها زمن حالفت فيه الدولة العلية أيام قوتها لتستخدمها لأغراضها وقد جنى الفرنسيس ثمار هذا الوفاق ثم لما مضت سنون والدولة لم تر خيرًا لها من

تلك المخالفة نزعت يدها من يد حليفتها ثم عادت فرنسا فبعثت بأبنائها إلى القريم ليحاربوا مع الإنكليز والعثمانيين جيوش الروس، لأن مصلحتها اقتضت ذلك إذ ذاك وأفاض في نشاة الامتيازات الأجنبية في البلاد المصرية والعثمانية، وقال إن فرنسا في كل دور من أدوارها استخدمت الدولة العلية لمقاصدها وأن لها اليد الطولى في المسألة الشرقية أي استقلال بلاد البلقان واليونان. وأنها لا تقصر كل حين في بتر عضو من أعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفنى.

فيا إخواني ويا سادتي أيسمع عثماني هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تذوب كمدًا وحسرة وتسود الدنيا في عينيه؟

هذا بعض ما يعده الغرب للشرق فماذا يعد الشرق للغرب؟

نحن يا قوم لا نحفظ كياننا ولا نحتفظ بلغتنا وديننا وآدابنا إلا إذا قاتلنا من يريدون قتالنا بالسيف الذي يقاتلوننا به، وأعني به سيف العلم، نحن يقضى علينا أن نأخذ من تلك المدنية الغربية التي تدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا نأخذ عن رجال العلم منهم ونحتك بهم زمنًا لتستفيد ونعرف الطرق التي يجب علينا سلوكها.

رأيت الدولة بعد انقلابنا الأخير بعثت بزمرة من الطلبة العثمانيين ليدرسوا في مدارس أوربا ولا سيما في مدارس باريز فقدرت عددهم قليلًا جدًا بالنسبة لمجموع هذه الأمة. وإني لأخجل أن أقول لكم إن عدد الطلبة البلغاريين في روسيا وألمانيا والنمسا وفرنسا والبلجيك وإنكلترا أكثر من عدد الطلبة العثمانيين وإياكم أن تظنوا أن جميع طلبة الأجانب تبعث بهم حكوماتهم ليدرسوا على نفقتها بل إن لهمم الأفراد شأنًا عظيمًا في هذا الباب وكثيرًا ما ينفق الطالب من مال أبيه عن سعة حتى لا يتم دروسه إلا وقد أتى على آخر فلس مما عنده وهو مغتبط بما صنع لأنه

أحرز رأس مال كبير لا يقدر بالملايين والكرات وعاد وهو يعرف كيف يخدم أمته وبلاده.

نحن مقصرون كل القصور في إرسال أبنائنا إلى ديار الغرب يلتقطون درر العلوم من بحار كلياتها ومدارسها والعرب في هذا المعنى أكثر العثمانيين قصورًا ولقد أحصيت جميع من يدرسون من أبناء سورية في أوربا على نفقة الحكومة أو على نفقاتهم فلم أقدر أن أوصلهم إلى ثلاثين طالبًا أكثرهم يدرسون على نفقتهم فليت شعري أليس هذا العدد بقليل على قطر يناهز سكانه الثلاثة ملايين هذا من سورية أرقى البلاد العربية وما أظن أحدًا من أبناء العراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس وبرقة وغيرها من الأقاليم العربية يدرس في مدارس أوروبا فيكون هؤلاء الثلاثون طالبًا لخمسة عشر مليونًا من العرب العثمانيين يصيب كل مليون نسمة طالبان وما أعظم ذلك من قصور وتقصير.

نعم هو قصور ليس وراءه وراء وجمودهم كاد يصدق به علينا حكم الغريب وإني لأرجو أن لا تكون أقوالنا أكثر من أفعالنا فإن الكلام لا أثر له بقدر الفعل، نريد معاشر العرب أن نجاري الأمم الراقية بل سائر العناصر من إخواننا العثمانيين ولا نجاريهم على الأقل في مضمار التعلم.

نتناغى بالوطنية وننذب حظ اللغة العربية ونحن أبناؤها الذين نعقها ولا نتعلمها. أليس ممَّا يزعج أن يخاطب العربي أباه وأمه وأخاه وصديقه بغير لغته الأصلية؟ يعمل ذلك ليتمرن على تثقف غير لغته بل لأنه لا يعرف أن يتكلم ويكتب بلسان أبيه وأمه وقد يكون في الأكثر ممن يفرض عليهم فرض عين تعلمها ليفهم بها كتابه وشريعته.

أنا إن كنت عربيًّا وأحب العرب وأريد نهوضهم ليتيسر لي كل ما أريد إذا لم أخاطبهم وأخطبهم وأكتب لهم بلغتهم التي يفهمونها، أنا إن كنت

أريد الاطلاع على مجد آبائي وأجدادي أأتمكن من ذلك بدون دراسة ما خلفوه من آثارهم وهل يتيسر لي هذا إلا باللغة التي كتبوا بها؟ أقول هذا وأنا آسف كل الأسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصورًا لا أبالي إذا قلت إن فيه العار والشنار.

أيزهد سلالة العرب الأكارم في لغتهم ويتعلمها المستشرقون أكثر من علماء العرب أنفسهم؟ أيزهد العربي ابن العشرين في العربية ويتعلمها رجل أعجمي في الستين من عمره. وأعني به الكنت دي ساردیج الفرنسوي. هذا الرجل من أهل الطبقة العالية في غناه كان والده سفيرًا في طهران عن الملك لويز فيليب ملك فرنسا وقد كان هو موظفًا في السفارات وآخر وظيفة له رئاسة تراجمة سفارة فرنسا في مدريد ثم استقال وهو يسكن في الصيف في قصر له في لوزان في سويسرا وفي الشتاء في باريز وقد قام في ذهنه منذ أشهر أن يدرس اللغة العربية للاطلاع على حضارة العرب ومدنيتهم الباهرة فاتخذ له أستاذًا صديقنا ووطنينا ميشيل أفندي بيطار وأنشأ يتحرج به فقطع شوطًا في التعلم وإذ كانت الدواعي تضطره إلى المقام في قصره في سويسرا أكثر من باريز وكان أستاذه لا يستطيع أن يلحق به إلى سويسرا كتب إليه يلتمس منه التماس التلميذ من أستاذه أن يبعث إليه بدروس عشرين يومًا حتى لا يضيع وقته مدة مقامه في سويسرا ويحرم من الاستفادة والتحصيل فإذا آب إلى العاصمة يعاود ما بدأ به.

هذا الرجل على أبواب الشيخوخة وهو في هذه السن يحاول أن يتعلم لغة شرقية لا عهد له بمعرفتها. أو أن يتعلم لغة القرآن ليدرس بها مدنية أهله وشبان العرب أنفهسم يترفعون عن أن يقصوا ولو بعض أوقات فراغهم في إحكام لغتهم. هذا هو مثال صغير من أمثلة الهمم في الشرق وأمثلتها في الغرب فهل فيكم ياشباب المستقبل وقرة عيون العثمانية

العربية من يمشي على أقدام الشيخ الفرنسوي حتى لا يجيء علينا وقت نضطر فيه أن نأخذ لغتنا بل ديننا عن أوربا ونكون تحت وصايتها حتى في أمس الأمور بنا وأعلقها بقلوبنا؟

كل ما نراه من همم الغربيين ومناتهم هو محصول الكتاب والمدرسة فأنتم وأمثالكم شباب هذه الأمة في أيدي اقتداركم أن تجددوا لها شبابها إذا وضع كل منكم نصب عينه الذهاب إلى الغرب وقضاء سنين في الدرس والبحث ليرى بعينه ويحكم بنفسه على قصورنا عن الغربيين وفقرنا وغناهم وشقائنا وسعادتهم ليعلم أنني لا أغالي فيما أوردته لكم بل إنني عاجز عن الوصف والتعريف ولا يقعن في أذهانكم أن الذهاب إلى أوربا بعيد المنال وأنه لا يتيسر إلا لكبار الأغنياء. فالعيش في معظم البلاد الأوربية أرخص من الآستانة ومصر ودمشق وبيروت والمدارس رخيصة أجورها أو لا يكاد يكون لها أجور. ومنها ما أجرة الطالب فيه مع الأكل والنوم والدرس ستون فرنكًا في الشهر ومثل هذا القدر من المال لا يصعب على أحد فيما أحسب أن يعده أو يستلفه على المستقبل مهما بلغ من ضيق ذات يده.

يا أبناء قومي ويا زهرات أمتي! أليس من العار أن تكون بلادنا التي لا تعيش إلا بالزراعة ولا تحيا إلا بالزراعة، خالية من عارفين بها على الأصول الحديثة فلا يكون الذين يتعلمون منًّا هذا الفن في أوربا سوى طالبين اثنين. أحدهما في المدرسة الزراعية في لوفان من أعمال البلجيك وهو رفيق بك بيصون من بيروت والآخر في كرنيون من أعمال باريز في مدرسة كرنبون الزراعية واسمه مصطفى أفندي الكيلاني من حماة. كلاهما من أبناء الأعيان، ولهما أرض ومزارع فنعما عملًا بالاختصاص بهذا الفن الشريف المفيد ولكن أليس في أبناء سورية بل البلاد العربية أحد من أبناء الأعيان يملك أراضي وقرى غير هذين الشابين، بل إن

المالكين كتار ولكن محبي الدرس قلائل! هذا في فن الزراعة فمتى يقوم منَّا أناس لتعلم الكهربائية ومد الخطوط الحديدية والهندسة العملية والصناعات الحديدية واليدوية والتجارة، وغير ذلك ممَّا نحن فيه عيال على الأوربيين.

زرت مدرسة كرنيون الزراعية، وهي على مسافة ساعة من باريز، فرأيت شعارها مكتوبًا بقلم غليظ في مكتبتها بما معناه: (الأرض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه) ولكن قومي غفر الله لي ولهم يحتقرون هذا الفن فيما أرى. فإن كنا نختلف في البديهيات فمتى نتفق في غيرها؟

زرت كرنيون ورأيت بها أن عبد القادر الكيلاني يلبس مشلح الزراع ويدرس كما يدرس أبناء الأعيان في فرنسا ويجاريهم في ذكائه وأطلعني على ما في مدرسته من متاحف ومعارض واصطبلات وحظائر لتربية الماشية. وحدائق لغرس النبات والبقول، وغابات للنزهة والانتفاع، وأدوات للعمل وحرث الأرض وكرثها.

رأيت كل هذا وأكبرته وقلت في نفسي لو حذا السوريون في الزراعة وتربية الماشية حذو الفرنسيس فيها وتربتهم تلائم تربتنا وأقاليمهم أشبه بأقاليمنا لاغتنينا غنًى يغنينا عن الهجرة وتطلب الوظائف الاتكالية. فقد ذكروا لي أن خروفًا علفته إدارة المدرسة سنتين على الطريقة العلمية فبيع في أحد المعارض بسبعين ليرة. فأين خرفاننا التي يباع الواحد منها بسبع ليرات مهما علفناها بجهلنا وبساطتنا وأطعمناها السمسم المقشر أو الشيح والقيصوم والعرار والعرعر.

ولكن الآمال معقودة بأن نعلف خرفاننا على طريقتهم ونستثمر تربتنا على أصولهم ونربي عقولنا على مناحيهم ونطبع دوابنا وماشيتنا بحسب

سنتهم فيكون إذ ذاك أبناء عبد القادر في التوفر على زكاء التربة في نفعهم لهذه الأمة على مستوى جدهم الذي زكى النفوس في عصره، وتزكية التربة لا تقل عن تزكية التربية والمآل واحد.

مدرسة كرنيون الزراعية هي التي أوصي أبناء الأعيان وغيرهم إلى التخرج فيها لتخصب بهم تربتنا بعد إجدابها وتملأ جيوبنا بعد فراغها والمال مبدأ كل عمل وفاتحة كل ارتقاء مادي وأدبي.

نحن لا نرقى الرقي المطلوب إلا إذا تعلمنا العلم العملي وزهدنا قليلًا في شقشقة الألسن والنظريات المجردة. ومن جملة المدارس التي زرتها في فرنسا وتأثرت أيضًا بنظامها مدرسة جزيرة فرنسا في مقاطعة الواز. زرتها بدعوة من صديقي مرسي أفندي محمود أحد كتاب مصر فكانت زيارتها وزيارة مدرسة كرنيون من أسعد الأيام التي قضيتها في ارض الفرنسيس وإني أحب أن أقص عليكم قصة هذه المدرسة لتعرفوا الغرض منها فأقول: قام منذ عشر سنين في فرنسا رجل من رجال الصحافة اسمه اديمون ديمولانس ودرس طرق الحضارة والتعليم والتربية عند الألمان والإنكليز والأميركان وقابل بين طرائقهم وأخلاقهم وعاداتهم وبين ما عند الفرنسيس منها ووضع لذلك الكتب وكتب المقالات وأنشأ مجلة العلم الاجتماعي التي تدور على هذا الغرض ومن جملة كتبه سر تقدم الإنكليز السكسونيين الذي نقل إلى العربية فعمت فائدته العرب كما عمت الإفرنج.

وقد وفق ديمولانس صاحب تلك الدعوة بأن التف حوله أناس من أرباب الغيرة على ارتقاء بلادهم والاهتمام بمستقبلها فكانوا يعطونه بالمئات لقيام الغرض الذي حاول بلوغه وتربية أبناء الفرنسيس على الطريقة الإنكلوسكسونية العملية فأسست لذلك ثلاث مدارس كبرى

عقب دعوت الأولى مدرسة روش أسست سنة ١٨٩٩ باسم جماعة من المساهمين وأخرى في إقليم نور مانديا لجماعة من كبار الصناع منها وأخرى في ليانكور أسست سنة ١٩٠١ وهي التي أريد أن أحدثكم عنها.

ليانكور قرية سكانها نحو ثلاثة آلاف وستمائة وهي على نحو ساعة من باريز إلى الشمال في مقاطعة الواز وفيها ما في سائر بلاد فرنسا من أنواع المرافق والرفاهية والمعامل الكبرى الصناعية والزراعة الراقية الفنية بل فيها من دور التمثيل فقط ثلاث دور وفي قصر الدوك دي لاروشفوكولد في أرض مساحتها مائتا هكتار أي نحو ثلثمائة فدان لم يبق منها إلى دائرة حشمه أما دائرة قصره فقد أتى عليها رجال الثورة الأخيرة فدكوها وجعلوا عاليها سافلها وقد جعلت المدرسة فوسعت كل صفوفها ومرافقها ومعاملها.

في هذه البقعة الجميلة الواسعة بل المزرعة الكبيرة والحانوت الفخم التي حوت الغابات والمروج والحدائق والغدران والآكام والسهول يتربى رجال المستقبل على الطريقة الإنكليزية وفيهم الفرنسويون وأكثرهم من أبناء الباريزيين وعدد قليل من الأميركان والإنكليز والبرتقاليين والأميركيين والمصريين. يعيشون في هذا البيت كأنهم في أسرة لا في مدرسة وقد رفعت عنهم أكثر القيود التي تقيد طلبة المدارس الداخلية واختصر منها على ما يحفظ به النظام والآداب من مثل الحظر على أحدهم أن يركض ويرفع صوته في المدرسة أو في حجر الدروس وأن يلعب في الأماكن التي هي ممر لإخوانه وأن لا يخرج من المدرسة ولا يركب في قارب الغدير بدون رخصة أولًا وأن لا يبتاع أي شيء كان من المدينة بدون استئذان وأن لا يدخل جرائد ولا كتبًا إلا إذا وقع عليها المدير ولا يدخن وأن يلبس ثياب اللعب عندما يخرج من غرفة المائدة وقت الظهر ولا يركب دراجته إلا يومي الخميس والأحد وأن لا يعبث

بما حوت حديقة المدرسة ومكتبتها وأن لا يتكلم بعد أن يطفأ النور في غرف النوم مساء ولا قبل ان يستيقظ رفاقه صباحًا وما عدا ذلك فهو حر أن يلعب اللعب الذي يختاره في الأوقات التي خصصت لذلك منذ الظهر إلى حوالي الساعة الرابعة بعده.

وكل هذه القيود لا تكبر على التلميذ لأنه يعرف أنه لابد منها لكل عائلة كبرى وما هذه المدرسة إلا كذلك والمدرسة تقسم إلى ثمانية صفوف أسسها الأستاذان الإنكليزيان هو كنسن وسكوت ومديرها اليوم المسيو لبلا وهو فرنسوي لأن قانون فرنسا يحظر على الأجانب إنشاء مدارس بأسمائهم في البلاد، وفي المدرسة نحو عشرين معلمًا ومعلمة وناظرة ورئيسة المدرسة الآنسة باري من أقرباء ادمون ديمولانس صاحب الدعوة إلى الأخذ بطريقة الإنكليز السكسونيين في التربية ومن أولئك المعلمين معلمان إنكليزيان واثنان ألمانيان.

ويقسم تلامذتها بحسب أسنانهم واستعدادهم ولا يختلط الكبار بالصغار إلا في بعض أوقات ساعات النهار وهذه المدرسة تعد التلامذة لنيل شهادة البكلوريا أو العالمية ولكن على غير الطريقة التي يحشى بها رأس التلميذ بالمواد النظرية وهو عن العلم العملي بمعزل. فالمدرسة تربي الإرادة والعين والذوق واليد والجسم أكثر مما تربي الذهن والذاكرة.

وأسماء الصفوف كصفوف سائر المدارس ويشترك جميع المعلمين في التعليم ويلاحظون الدروس أيضًا ولا يراجعون التلامذة فيما تعلموه خارج الصفوف النظامية لأن النهار يكفي لذلك ويتولى الأولاد بأنفسهم أمور لعبهم وحفظ النظام العام وسائر شؤون الحياة وربما لا تروق أكثر الأولاد هذه الطريقة خصوصًا وأكثر من فيها من أبناء الأغنياء والأمراء

اعتادوا أن يخلقوا وحواليهم الخدم والحشم يتولون من أمورهم ما يتقاعسون هم عن عمله ويصعرون خدودهم كبرًا من القيام به.

ويقسم التلامذة بعد الصفوف والعرق إلى بيوت مختلفة وكل بيت يديره أستاذ ويعهد إلى النساء بالإدارة البيتية والعناية بالمرضى وتعليم الموسيقى وتعليم الأحداث من الطلبة وهن يعشن في المدرسة نفسها، وعلى الطلبة أن يحضروا ثلاث جلسات في الأسبوع لتعلم لعب الكوكي والكريكة بنظارة أساتذة في هذه الألعاب. وفي المدرسة دار للتمثيل كما فيها ميدان للعب السيف، ومحل لتعلم الرقص والموسيقى ومحال دروسهم أشبه بمكتب رجل منه بقمطر تلميذ لكل واحد منضدة عليها دواة وورق نشاف يتصرف فيها كما يشاء ويرى فيها الدروس التي يدرسها بطريقة عملية أكثر منها نظرية.

فيتعلم مع العلم صناعة من الصناعات التي هي أحب إلى قلبه كالزراعة والنجارة والحدادة والتصوير والتجليد وصنع المقوى والفخار والجلد وغيرها، وذلك بنظارة أساتذة هذا الشأن يدلونه على الطرق التي يسلكها ولا يعملون معه بل يدلونه على عيوب عمله ويده وعينه هما اللتان تعملان ليعتمد بذلك على نفسه. فإذا عاد إلى أهله يستطيع أن يصنع بذاته عملًا من مثل ذلك، فلا يكون فرق بين ما عمله في المدرسة ويعمله بعد الخروج منها ويتولى أكثر شؤونه كما قلنا بنفسه حتى يسهل عليه كل جهاد في حياته فإن الرياضات التي يقومون بها في البستان والحقول والرحلات في الخلاء سواء كانوا مشاة أم ركبانًا على الدراجات تزيد في قواهم وقابليتهم للرياضات البدنية ولا يقل النوم عندهم عن عشر ساعات للصغار إلى تسع للكبار ليستريحوا من أتعاب النهار.

وتمتاز هذه المدرسة بأن يرحل تلامذتها بمراقبة أساتذتهم أو بعضهم إلى البلاد المجاورة كالبلجيك وهولاندة أو غيرهما من مقاطعات فرنسا البعيدة ليعتادوا الاستغناء عن الرفاهية ويحسنوا التخلص عند الحاجة من مشاكل الأحوال التي كثيرًا ما تصادف الإنسان في حياته وذلك أيضًا ليحتملوا بصبر وحسن خلق معاكسات الوقت ونكد الأيام وتتوثق عرى المحبة بينهم ففي عيد الفصح تنقسم المدرسة إلى ثلاث فرق بحسب سن التلامذة المؤلفة منهم فتذهب كل واحدة في وجهة خمسة أيام وكل من حسنت أخلاقه ودروسه يرحل به أيضًا كل ثلاثة أشهر مرة أومرتين يومًا أو بعض يوم إلى مكان بعيد، وللمدرسة في الصيف شهران أيضًا عطلة فتكون عطلتها السنوية من حيث المجموعة ثمانين يومًا وتستوفي المدرسة أجرة من كل طالب إلى سن الحادية عشرة ٢٥٠٠ فرنك فإذا تجاوز هذه السن تأخذ منه ثلاثة آلاف يدخل في ذلك أكثر حاجاته ما عدا بعض الدروس كالرقص والموسيقى والرسم فإنه يدفع أجرتها على حدة، وهو مبلغ كثير بالنسبة لأهل بلادنا. ولكنه لا يستكثر في مدرسة مثل هذه تنفق النفقات الطائلة على الأساتذة والعيشة والرحلات ويطبق فيها العلم على العمل وتربي الحواس بالعمل أكثر من تربية الذاكرة.

حدثني أحد أساتذة المدرسة قال كان فكر مؤسسها ديمولانس أن تكون على الطريقة الإنكليزية المحضة ولكن لم تمض مدة حتى انقلبت أوضاع الدروس والرياضات إلى ما يشبه الأوضاع الفرنسوية لأن ما توهمه ديمولانس من أنه يمكن تطبيقه في بلاده قد غالى فيه كثيرًا ولو كان حيًا -مات منذ نحو سنتين- لرجع عن كثير ممَّا نعاه على قومه وعد عدمه نقصًا في تربيتها وسببًا في ضعفها، وهو قول حق سديد، لأن ما يوافق أمة لا يطبق بالحرف على أخرى وللعادة والمحيط والتقاليد دخل كبير في أوضاع الأمة على أن هذه النغمة قد أفادت فرنسا وغيرها بلا شك

وأطلعت الشرق على أن التربية الفرنسوية مع ما هي عليه من الحسن هي في رقيها دون التربية الإنكليزية السكسونية من وجوه. وإن كانت هذه دونها من وجوه ولعل بلادنا تستفيد من كل ذلك عبرة.

تقدم أن تلامذة مدرسة ليانكور هم من الفرنسيس وخليط من البرتقاليين والأميركان والإنكليز والمصريين وهكذا شأن معظم المدارس في فرنسا ولا سيما كلياتها الجامعة فلا يتعلم فيها الطلبة من الذكور فقط بل يتعلم فيها الطالبات من الإناث وإني لا أذكر أنني حضرت خطبة أو درسًا أو مجلسًا علميًّا. ولا زرت متحفًا ولا مطبعة ولا إدارة جريدة إلا ورأيت الفتيات سبقتني إلى تلك الأمكنة ومعظمهن روسيات وإنكليزيات وألمانيات وبلقانيات وبولونيات والبولونيات [1] أكثر الفتيات الأجنبيات في فرنسا وأكثرهن عناية بتعلم اللغات الأجنبية حتى إن الواحدة منهن لتكلمك فلا تحسبها لا فرنسوية لكثرة إتقانها للغة الفرنسوية وإجادتها النطق بها ممَّا لا يكاد يتيسر مثله لغريبة ولا لغريب عن اللغة وهن مع هذا

(١) شارك النساء الرجال في أوربا في كل عمل من أعمال الحياة وفي فرنسا شاركن الرجال في الأمور الذهنية أيضًا وثلث ما ينشر في فرنسا من الكتب هو من أقلام الكاتبات والشاعرات وكثيرات منهن يكتبن ويجدن كالرجال مثل مارسل تيار مؤلفة كتاب دار الخطيئة والكونتس دي نوايل والعقيلة دي ريبه امراة الشاعر المشهور وهي شاعرة مثله ومريم هاري صاحبة كتاب فتح البيت المقدس وعشرات أمثالهن من المشهورات، والمنافسة الأدبية بين الجنسين النشيط واللطيف على أتمها في فرنسا حتى قال لي أحد كتابهم أنه سيجيء يوم على فرنسا لا يبقى لكتابها وجه للمعاش إلا أن يطيروا في مناطيد الهواء فقط وما عدا ذلك فالنساء يتولينه بدلنا. ولعل من يسيح في أوروبا بعد عشرين سنة يشاهد ما لم نشهده الآن من الارتقاء المادي والأدبي فقد ساح الشيخ رفاعة الطهطاوي في منتصف القرن الماضي ولم يكن من مرسيليا إلى باريز سكة حديدية بل كانت فيها حافلة بالدواب فأغتبط بما رأى وساح أحمد زكي باشا في أوائل هذا القرن فركب القطارات في أوربا جمعاء. وسحنا نحن اليوم فرأينا ما لم يكن يعهد من السيارات الهوائية والمؤلفات في العلوم والصناعات الأدبية فماذا يشهد أولادنا وأحفادنا بعدنا يا ترى؟

أكثر النساء الأوربيات تفانيًا في إحكام ملكة لغتهن وحرصًا على آدابها وتلقينها.

ولقد كانت المرأة البولونية تعلم أولادها لغتهم في الغابات والحقول عندما كانت الحكومة الروسية تحظر عليهم إلى قبل بضع سنين تعلم لغتهم لتجعلهم روسًا مع الزمن فلما دالت دولة الجهل ونال البولونيون كسائر العناصر السلافية بعض حريتهم عقيب إنشاء مجلس النواب كان من البولونيين أن فتحوا في شهر واحد في البلاد التي وقعت منذ قرن ونصف تحت سلطة الروس زهاء أربعة آلاف مدرسة يعلمون فيها العلوم العالية والدروس المنوعة بلغتهم ولم ينقصهم أساتذة ولا أعوزهم بالطبع التلامذة.

فالمرأة البولونية وإن عنيت بتعلم اللغات الأجنبية عنها تحتفظ بلغتها ووطنيتها احتفاظًا أسأل الله أن يرزقنا نحن بعضه حتى أنها إذا تزوجت من أجنبي لا تلبث أن تصبغ أولادها بصبغتها بحيث اضطر بسمرك أن يسن في عهده قانونًا يحظر فيه على الضباط الألمان أن يتزوجوا من البولونيات إذا تبت له أن الوطنية الألمانية كادت تضعف ويعروها الانحلال في القسم الذي أصاب مملكة بروسيا من إرث صاحب بولونيا.

فيا ليت شعري متى يكون نساؤنا بل رجالنا في هذه المنزلة من صحة الوطنية مع الحرص على الجامعة العثمانية التي هي عدتنا في شدتنا وبدون هذه الجامعة السياسية لا يرجى لنا بقاء بعد الذي رأيناه من تكالب الغرب على الشرق فنحن إن أنصفنا لا ننزع يدنا من الجماعة لأن يد الله مع الجماعة ومن رأى كيف كانت حالة سويسرا وألمانيا والولايات المتحدة قبل الوحدة السويسرية والألمانية والأميركية يدرك سر الاجتماع

والتعاضد ويعرف أن المركب الكبير يستحيل أن تأتي عليه الأنواء بقدر ما تضر بالصغير فقد يغرق هذا أو يستغرق في غيره ولا من يسمع به.

تعلمنا أوربا وأميركا كل يوم معنى من معاني الوطنية والجامعات الجنسية. فإن كان بعض الاجتماعيين يدعون اليوم إلى إنشاء جامعة أوربية واحدة وبعضهم إلى إنشاء جامعة أميركية واحدة وبعضهم إلى إنشاء جامعة صفراء من اليابان والصين واحدة أفلسنا نحن يا أبناء العثمانية أحرياء بأن نزيد في تكاتفنا وتكافلنا ونرفع من بيننا سوء التفاهم بسعي العقلاء منَّا.

طال المقال وبت أخشى عليكم الملال فهل تأذنون بأن أختمه بجمله واحدة للمقارنة بين أخلاقنا وأخلاق الغربيين وهي الأخلاق التي كانت من أعظم الوسائط في ارتقائهم كما كان نقيضها واسطة في انحطاط وذلك أنني تبينت بالاختبار أن الإفرنج أكثر تفكرًا منَّا في مصادر الأحوال ومواردها فهم لا يقدمون مثلنا على أمر قبل أن يوقنوا من أنفسهم الغناء فيه، فالصانع في الغالب لا يتطال إلى أن يكون سياسيًّا والمحامي لا يعمل في الزراعة، وهكذا اختص أهل كل طبقة بطبقتهم وتفرد كل عالم بما يعلم ولم يتعده فالاختصاص أو الإحصاء هو الذي كان واسطة نجاح الغرب ودعوى معرفة كل شيء هي التي كانت واسطة انحطاط الشرق.

الغربي يفتخر بأنه لا يعرف غير ما تعلمه ف مدرسته وحصله من حرفته، ولكنه تعلمه فبرز فيه وأحاط بأطرافه وصبر حتى نضج فتناول ثماره جنية. أما نحن فنسارع في الهبوب كما نسارع إلى الرقود فنهب دفعة واحدة كما نخمد كذلك.

الغربي يهمه نجاح العمل من حيث هو عمل نافع لأمته ولنفسه ولذلك جاءت مصانعهم ومعاهدهم بل وجميع شؤون حضارتهم فخمة

خالدة وكانت مصانعنا ومعاهدنا وسائر أعمالنا مختلة معتلة لا تدوم إلا بدوام من عمل لها أول مرة فإذا ما ذهب تذهب بذهابه.

الغربي استفاد ويستفيد بتجارب غيره لأن من عادته أن يحسن الانتفاع بكل شيء. ونحن من عادتنا أن نهزأ في الأكثر بكل شيء.

الغربي يدخل الإصلاح إلى داره وبيته وأمته بالتدريج بحسب سنة النشوء في عالم الكون والفساد، ونحن نحب أن نظفر طفرة في إصلاحنا والطفرة محال لأن سنن الفطرة لا تغالب ولا تعاند. الغربي يحب النظام حتى صار ذلك طبيعة ثانية له ونحن لا يهمنا النظام ولا التنظيم. الغربي معتدل على الأكثر في عامة أحواله ونحن أميل إلى الإفراط أو التفريط. الغربي عبد الواجب ونحن قلمًا نقوم بفرض أو واجب فالغربي كما أحسن تقسيم الأعمال والإخصاء فيها أحسن استخدام الوقت إحسانه لاستخدام عناصر الطبيعة فجده جد ولكن في أوقات الجد وهزله هزل ولكن في أوقات الهزل ونزهته نزهة ولكن في أوقات النزهة وعمله عمل محض ولكن في زمن العمل والشرقي ويا للأسف ليس كذلك.

أحسن الطبائع في الغربي خلق الاعتماد على النفس وإنكار النفس فهو يعتمد على كفاءته أولًا ثم على محيطه وأمته وقد يهتم في الأكثر بمصلحة أمته اهتمامه أو أعظم بمصلحة نفسه ولذلك جاء كل غربي راق أمة برأسه وأمة تتألف من أفراد هذا حال سوادهم الأعظم ينبسط ظل عمرانها ويمتد على الأرض سلطانها، فالله أسأل أن يهب هذا الشرق المحبوب نفثة من تلك الروح العالية وهذا لا يرجى لنا إلا بتكثير سواد أمثالكم يا طلاب المدارس العالية: فطلاب المدارس العالية هم ولا جرم أهل المطالب العالية فاعرفوا مقدار أنفسكم ومقدار الآمال التي تعلقها عليكم أمتكم نضر الله وجوهكم وبيض بكم وجوهنا.